العلاقات المصرية الأوربية

في عصر المماليك الجراكسة

(٧٨٤-٩٢٢هـ/١٣٨٢-١٥١٦م)

دراسة سياسية اقتصادية

أطروحة تقدم بها

فائز علي بخيت الحديدي

إلى

مجلس كلية الآداب في جامعة الموصل

وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الدكتوراه

فلسفة في التأريخ الإسلامي

بإشراف

الأستاذ الدكتور

عبد المنعم رشاد محمد

١٤٢٦هـ ٢٠٠٥ م

The Egyptian -European Relations During The Mamluk Sultanate AL Circassian

IN (٧٨٤-٩٢٢A.H/ ١٣٨٢-١٥١٦ A.D)

A Political and Economical Study

Thesis submitted

By

Fa'iz Ali Bekhiet Al-Hadedi

To

Council of the collage of Arts University ofMosul

As a Partial fulfillment of the Requirements of

Ph.D degree in Islamic History

Supervised

By

Pr. Abid Mouna'am Rashad

٢٠٠٥A.D **١٤٢٦A.H**

إقرار المشرف

أشهد بأن إعداد هذه الأطروحة جرى تحت إشرافي في كلية الآداب/ جامعة الموصل وهي جزء من متطلبات شهادة الدكتوراه فلسفة في التاريخ الإسلامي.

التوقيع :

المشرف:أ.د.عبد المنعم رشاد محمد

التاريخ : / /٢٠٠٥

إقرار المقوم اللغوي

أشهد بأن هذه الأطروحة الموسومة بـ " العلاقات المصرية الأوربية في عصر المماليك الجراكسة (٧٨٤-٩٢٢هـ/١٣٨٢-١٥١٦م) دراسة سياسية اقتصادية " قد قمت بمراجعتها وأصبحت مؤهلة للمناقشة بقدر تعلق الأمر بالسلامة اللغوية.

التوقيع :

الاسم : أ.م.د.علي فاضل الشمري

التاريخ : / /٢٠٠٥

إقرار رئيس لجنة الدراسات العليا

بناء على التوصيات التي تقدم بها المشرف والمقوم اللغوي ، أرشح هذه الاطروحة للمناقشة .

التوقيع :

رئيس الجنة : أ. د.هاشم يحيى الملاح

التاريخ : / /٢٠٠٥

إقرار رئيس القسم

بناء على التوصيات المقدمة من قبل المشرف والمقوم اللغوي ورئيس لجنة الدراسات العليا أرشح هذه الأطروحة للمناقشة .

التوقيع :

رئيس القسم : أ. م. د. عصمت برهان الدين عبد القادر

التاريخ : / /٢٠٠٥

قائمة المختصرات

المختصر	دلالته
ت	توفي
ج	جزء
مج	مجلد
ع	عدد
ق	قسم
د. ت.	دون تاريخ طبع
د. م.	دون مكان طبع أو دون مطبعة
ص	صفحة
P	Page
Vol.	Volume
No p.	دون مكان طبع أو دون مطبعة
No D.	دون تاريخ طبع
E. B.	Encyclopaedia Britannica
E. I.	Encyclopaedia Islam

ثبت المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١-٩
التمهيد : الأوضاع السياسية في مصر وقيام دولة المماليك الجراكسة	١٠-٣٢
الفصل الأول : العلاقات السياسية المصرية مع الصليبيين في جزر البحر المتوسط	٣٣-٣٤
أولاً :العلاقات المصرية ــ القبرصية(٧٨٥-٩٢٢هــ/١٣٨٣-١٥١٦م)	٣٤-٦٨
ثانياً:العلاقات المصرية ــ الرودسية(٨٠٦ــ٩٢١هــ/١٤٠٣ــ١٥١٥م)	٣٥-٨٠
الفصل الثاني : العلاقات السياسية المصرية الأوربية	٨١-١١٩
أولاً : علاقة مصر مع الممالك الاسبانية	٨٢-١٠٠
١. العلاقات المصرية ــ الاراغوانية (٨٢٨-٩٢٠هــ/١٤٢٤-١٥١٤م)	٨١-٩٣
٢.العلاقات المصرية ــ الكتالونية (٨١٨-٩٢٢هــ/١٤١٥-١٥١٦م)	٩٣-٩٩
ثانياً : علاقة مصر مع الممالك الإيطالية	١٠٠-١١٩
١.العلاقات المصرية ــ الجنوية (٧٨٥-٨٦٨هــ/١٣٨٣-١٤٦٣م)	١٠١-١١١
٢.العلاقات المصرية ــ البندقية (٨١٨- ٩٢٢هــ/١٤١٥-١٥١٦م)	١١٢-١١٦
ثالثاً : العلاقات المصرية ــ الفرنسية (٨٢٥-٩٢٢هــ/١٤٢١-١٥١٦م)	١١٧-١١٩
الفصل الثالث : العلاقات الاقتصادية (التجارية) المصرية الأوربية	١٢٠-١٥٦
أولاً : عوامل ازدهار تجارة مصر الخارجية في عصر المماليك الجراكسة	١٢١-١٣٧
ثانياً العلاقات المصرية ــ الإيطالية(٧٨٧-٩٢٢هــ/ ١٣٨٦-١٥١٦م) .	١٣٨-١٤٠
أ: العلاقات المصرية ــ البندقية (٧٨٨-٩٢٢هــ/١٣٨٦-١٥١٦م)	١٤١-١٤٦
ب : العلاقات المصرية ــ الجنوية (٧٨٧-٩٠١هــ/١٣٨٥-١٤٩٥م)	١٤٦-١٤٩
ج : العلاقات المصرية ــ الفلورنسية (٨٢٦-٩١٥هــ/١٤٢٢-١٥٠٩م)	١٤٩-١٥٣
ثالثاً : العلاقات المصرية ــ الكتالونية (٨١٧-٩٠٨هــ/ ١٤١٤-١٥٠٩م)	١٥٣-١٥٥

رابعاً : العلاقات المصرية ــ الفرنسية (٨٦١-٨٧٧هــ/١٤٥٦-١٤٧٢م)	١٥٥-١٥٦
الفصل الرابع : عوامل انهيار دولة المماليك الجراكسة	١٥٧-١٩٤
أولاً : ظهور البرتغاليين	١٥٨-١٧٤
ثانياً : قيام الدولة العثمانية وسياستها التوسعية	١٧٤-١٩٠
ثالثاً : سياسة الدولة الاحتكارية	١٩٠-١٩٤
الخاتمة	١٩٥-١٩٧
الملاحق والاشكال	١٩٨-٢١١
ثبت المصادر والمراجع	٢١١-٢٣٧
الملخص باللغة الانكليزية	A-D

التمهيد

الأوضاع السياسية في مصر وقيام دولة المماليك الجراكسة

قبل البدء بالحديث عن الأوضاع السياسية ، وأهم الأحداث التي أدت إلى قيام دولة المماليك الثانية ، لابد من التطرق إلى الموقع الجغرافي لمصر ودوره المؤثر في مجريات الأحداث السياسية لكونه من الثوابت التي لا تتغير بتغير الحقب التأريخية ، ولما له من أهمية في فهم الأوضاع السياسية السائدة لذلك البلد .

لذا فقد شغلت مصر موقعاً ستراتيجياً مهماً ، اكسبها أهمية كبيرة وخاصة من الناحيتين السياسية والتجارية (١) ، ذلك بدوره جعل مصر ترتبط بعلاقات سلمية وحربية في آن واحد عن طريق البحر الأبيض المتوسط شمالاً (٢) ، والبحر الأحمر شرقاً (٣) ، وهذا التعدد في أنواع البحار التي تطل عليها مصر قد فرض على مصر اتخاذ سياسة خاصة تتفق مع كل جهة من الجهات البحرية المختلفة .

أما عن موقع مصر الإقليمي فهي من ضمن الإقليم الثالث الذي يبدأ من المشرق إلى الشمال ابتداءاً من بلاد الصين ثم إلى الهند والسند وكابل وكرمان وسجستان وبلاد فارس والاحواز والعراق والشام ومصر(٤) ، وموقع مصر ضمن ذلك في غرب جزيرة العرب ، وكذلك تشغل زاوية الركن الشمالي الشرقي من أفريقيا ، وبذلك فهي تمثل حلقة وصل بين قارتي آسيا وأفريقيا (٥) ، إذ يحد مصر من جهة الشمال بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط)

---

(١) نعيم زكي فهمي ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى (مطابع الهيئة المصرية العامة ــ القاهرة : ١٩٧٣ م) ، ص ١٤٠ .

(٢) ترتبط مصر عن طريق البحر المتوسط بالشام والمغرب العربي واوربا . للمزيد من التفاصيل ينظر : أحمد مختار العبادي ، تأريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام في عصري الايوبيين والمماليك (دار الاحد البحيري ــ بيروت : ١٩٧٢) ، ٢ / ٢٠١ .

(٣) أما بالنسبة للبحر الأحمر واهميته في تامين الاتصال بالحجاز واليمن والمحيط الهندي وتجارة المشرق . ينظر : العبادي ، تأريخ البحرية ، ٢ / ٢٠١ .

(٤) محمد بن احمد بن أبي بكر المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (مطبعة بريل ــ ليدن : ١٩٠٩م) ، ص ٦٠ ؛ زكريا بن محمد بن محمود القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد (دار صادر - بيروت : ١٩٦٠م) ، ص ١٣٧ .

(٥) عماد الدين اسماعيل بن محمد المعروف بأبي الفداء ، تقويم البلدان (د. م. ــ باريس : ١٨٤٠م) ، ص ١٠٣ ؛ خولة حمدون عبدالله الصواف ، مصر في عهد عمرو بن العاص (أطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى كلية الاداب ــ جامعة الموصل : ١٩٩٩م) ، ص ١٥ .

ومن جهة الجنوب بلاد السودان في حين تحدها الصحراء الليبية الكبرى من جهة الغرب أما حدودها الشرقية فتمتد بمحاذاة البحر الأحمر (القلزم) [١] .

واختلفت التسميات التي أطلقت على مصر ، وتضاربت الروايات التأريخية في أسبابها فأشار قسم منها إلى أنها سميت نسبة إلى مصريم بن حام بن نوح عليه السلام لأنه أول من نزل بها [٢] ، في حين يذكر القلقشندي أن التسمية تعود إلى سير الناس إليها واجتماعهم بها [٣] ، أو أنها تعد حداً فاصلاً بين المشرق والمغرب [٤] ، إلا ان الزبيدي أشار إلى ان كلمة مصر في

(١) ابراهيم بن محمد الاصطخري ، المسالك والممالك ، تحقيق : محمد جابر عبد العال ، مراجعة : محمد شفيق غربال (دار القلم ـ القاهرة : ١٩٦١ م) ، ص ٣٩ ؛ أبو القاسم بن حوقل النصيبي ، صورة الارض (محمد فؤاد بيبيان وشركاؤه ـ بيروت : د / ت) ، ص ١٢٦ ؛ عبد اللطيف البغدادي ، الافادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بارض مصر ، تحقيق : علي محسن عيسى مال الله (مطبعة التعليم العالي ـ بغداد : ١٩٨٧م) ، ص ٦٦ -٦٧ ؛ شمس الدين أبو عبدالله الانصاري ، نخبة الدهر وعجائب البر والبحر (د. م. ـ لايبزك : ١٩٢٣م) ، ص ٢٢٩ ؛ ابراهيم بن محمد بن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الامصار في تأريخ مصر وجغرافيتها (المكتب التجاري للطباعة ـ بيروت : د/ت) ، ٢ / ٤٢ ؛ أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ١٠٣ .

(٢) عبيد الله بن عبد الله آبن خرداذبة ، المسالك والممالك (مطبعة بريل ـ ليدن : ١٩٨٩م) ، ص ٨٠ ؛ علي بن الحسين بن علي المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق : يوسف اسعد داغر (دار الاندلس ـ بيروت : ١٩٦٥م) ، ١ / ٣٨٨ ؛ أبو بكر احمد بن محمد الهمذاني ، مختصر كتاب البلدان (مطبعة بريل ـ ليدن : ١٨٨٤م) ، ص ٥٦ ؛ شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت الحموي ، معجم البلدان (دار صادر ـ بيروت : ١٩٥٧م) ، ٥ / ١٣٧ ؛ الانصاري ، نخبة الدهر ، ص ٢٢٩ ؛ صفي الدين عبد المؤمن البغدادي ، مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع ، تحقيق : علي محمد البجاوي (دار المعرفة ـ بيروت : ١٩٥٥م) ، ٣ / ١٢٧٧ ؛ أبو الحسن بن محمد الفاسي ، وصف افريقيا ، تحقيق : محمد الحجي واخرون (الشركة المغربية ـ الرباط : ١٩٨٢م) ، ٢ / ١٨٨-١٨٩ .

(٣) احمد بن علي القلقشندي ، صبح الاعشى في صناعة الانشا (دار الكتب العلمية - بيروت : ١٩٨٧م) ، ٣ / ٣٥١ .

(٤) أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ١٠٣-١٠٤ .

اللغة العربية تعني المدينة أو الإقليم [1] ، والراجح أن التسمية تعود نسبة إلى مصريم بن حام لإجماع أغلب المصادر التأريخية والجغرافية على ذلك .

وقد أصبحت مصر مقر الخلافة الإسلامية بعد سقوط بغداد على يد المغول سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ابتداءاً بدولة المماليك[2] البحرية [3] ، وبدورها وقع على عاتقها حماية المقدسات الإسلامية من الغزاة الصليبيين والمغول ، وبما أن تلك المسيرة استمرت حقبة من الزمن ، إلا أنها في النهاية انهارت نتيجة الانحلال السياسي والاقتصادي الذي أصابها بسبب مجيء سلاطين ضعاف لم يتمكنوا من المحافظة على كيان دولتهم [4] .

---

[1] محمد مرتضى الزبيدي ، تاج العروس من جواهر القاموس (دار مكتبة الحياة - بيروت : ١٨٨٨م)،٥٤٣/٣ .

[2] تعود بداية جلب المماليك إلى العصر العباسي الأول ، إذ يعد خلفاء ذلك العصر أوّل من وضع نظام المماليك ، وخاصة في عهد الخليفة العباسي المعتصم بالله في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، ثم اتبعهم بعد ذلك الفاطميون في السير على النظام نفسه ومن ثم سار الأيوبيون على نهجهم . للمزيد من التفاصيل عن المماليك . ينظر : انطوان خليل ضومط ، الدولة المملوكية التأريخ السياسي والاقتصادي والعسكري (١٢٩٠-١٤٢٢م) (الدار الحديثة - بيروت : ١٩٨٢ م) ، ص ١٦-١٧ ؛ علي حسني الخربوطلي ، مصر العربية الإسلامية (مطبعة لجنة البيان العربي - القاهرة : ١٩٦٣م) ، ص ٣١١ ؛ *Encyclopedia Britannica , " Egypt " (No p. - London : ١٩٦٦) Vol. ٨, p. ٦٢; W. B. Stevenson , The Crusaders in the east , Second edition (Slim Press – Beirut : ١٩٦٨) , p. ٣٣٢-٣٣٣; David Ayalon , Lesclavage Du Mamelouk (No. p. - Jerusalem : ١٩٥١), p. ٢– ٦٢.*

[3] قامت دولة المماليك البحرية الأولى سنة ٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠- ١٣٨٢م) للمزيد من التفاصيل عن قيام دولة المماليك البحرية . ينظر : العبادي ، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام (دار النهضة العربية - بيروت : ١٩٦٩م) ، ص٢١٠ .

[4] إبراهيم علي طرخان ، مصر في عصر المماليك الجراكسة (مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة : ١٩٦٠م) ، ص ١-٢ ؛ حنان جاسم الزهيري ، العثمانيون في السياسة المملوكية (أطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب - جامعة الموصل : ٢٠٠٢م) ، ص ١٤ .

إن الأحداث المضطـــربة التي أصابت دولة المماليك الأولى أدت بالتالي إلى قيـــام دولة جديـــدة أكملت مســـيرتها في الحفاظ على مقر الخلافة الإســـلامية لفترة تـــزيـــد على مئة وأربع وثلاثين ســـنة ، والتي أطلق عليها اســـم دولة المماليك الجراكســـة [1]والتي استطاع سلاطينها [2] فرض سيطرتهم ليس على مصر فقط ، بل شملت بلاد الحجاز والـــشام واليمن [3] .

يعد الجراكسة عموماً من الترك الجركس ، وهم يتكونون من أربـــع طوائـــف هـــي سركس واركس والاص وكسا وتتفرع منهم بطون كثيرة [4] ، أما عن موطنهم الأصلي فهـــم

---

(1) الجراكسة : لم تطلق هذه الكلمة عليهم في بداية الأمر بل كانت كلمة البرجية هي التسمية السائدة علـــيهم إلا أن ازدياد عددهم ونفوذهم السياسي فيما بعد ، وتوليهم المناصب المهمة في الدولة المملوكية الأولـــى ، وأثارتهم الخوف لدى السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة (٧٤١هـــ / ١٣٤٠م) أطلق عليهم اســـم الجراكسة . ينظر : حكيم أمين عبد السيد وآخرون ، قيام دولة المماليك الثانية (الدار القومية – القاهرة : ١٩٦٦م) ، ص ٢٧ .

(2) لقد كان معظم السلاطين الجراكسة من العنصر الجركسي باستثناء اثنين كانا من الروم ومن أصل يوناني وهما خشقدم وتمربغا ، فقد استمر حكم السلاطين الجراكسة (١٣٤) سنة ، تسعة منهم كان لهـــم الـــدور الكبير فحكموا مدة (١٢٥) سنة . للمزيد ينظر : فيليب حتي وآخرون ، تأريخ العرب (مطـــول) ، ط٢ (الجامعة الاميركية – بيروت : ١٩٥٨م) ، ٢/ ٨١٩ ؛ عبد الوهاب حمودة ، صفحات من تأريخ مـــصر في عصر السيوطي (الدار المصرية – مصر : ١٩٦٥م) ، ص ٤ ؛

Stanly Lane Pool , History of Egypt in the Meddle Agest (No p. – Holland: ١٩٦٨) , p. ٣٢٥–٣٢٦ ; Philp Hitti , History of Arabs (Great Britain , London : ١٩٦٤) ,p. ٦٤٩–٦٩٥ ; E. B. " Egypt " , Vol. ٨ , p. ٦٣.

(3) ستانلي لين بول ، سيرة القاهرة ، ترجمة : حسن إبراهيم حسن وآخرون (مطبعة الـــشبكي ، مـــصر : ١٩٥٤م) ، ص ٢٠٠ .

(4) تقي الدين أحمد بن علي المقريزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية (مطبعة الأوفست – بغداد : د/ت) ، ٢ / ٢٤١ ؛ بدر الدين العيني ، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي ، تحقيق : محمد شلتوت وآخرون (دار الكتاب العربـــي – القـــاهرة : ١٩٦٧م) ، ص ٢٦؛ عبد الملك بن حسين العصامي ، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي (المطبعة السلفية – القاهرة : ١٩٦٠م) ، ٤ / ٣٠ .

يسكنون في الجزء الشمالي الغربي من بلاد القوقاز [١] الممتدة من بين البحر الأسود وبحر قزوين محاذاة مملكة جورجيا ، أي انهم يعيشون شرق البحر الأسود وشمال بحر قزوين [٢] ، فضلاً عن ذلك كان يطلق عليهم آسم (اديغة) وهي تسمية يطلقونها على أنفسهم [٣] .

وعلى ما يبدو أن سبب وجود المماليك في مصر يعود إلى الخطر المغولي الذي اكتسح أواسط آسيا في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، مما اضطروا إلى التوجه نحو العراق ، وبذلك انتهز الملك الصالح نجم الدين الايوبي سلطان مصر الفرصة فاشترى عدداً كبيراً من المماليك ، وقربهم منه وبنى لهم ثكنات وسماهم المماليك البحرية أو جنود الحلقة [٤] ، متخذهم للدفاع عنه وبعد مدة تمكن المماليك من القضاء على الحكم الأيوبي، وتواصلاً لتلك السياسة قام المماليك البحرية بشراء المماليك الجراكسة الذين بلغ عددهم في البداية ثلاثة الآف وسبعمئة مملوك [٥] ، ينتمون إلى جنس الجراكسة على خلاف مماليك عصره [٦] .

---

(١) *Bertold Spuler , the Muslim Word (Netgerland – Leiden : ١٩٦٠) , Par. ١١ , p. ٧٧ .*
وبلاد القوقاز تمثل المنطقة الممتدة من شمال البحر الاسود إلى الجنوب الشرقي من بحر قزوين . للمزيد ينظر : محمود شاكر ، التاريخ الإسلامي (المكتب الإسلامي – بيروت : ٢٠٠٠م) ، ج٢١ / ١٩٨ .

(٢) عبد الرحمن محمد بن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (مؤسسة جمال للطباعة والنشر – بيروت : ١٩٧٩م) ، ٥ / ٤٧٢ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى ، ٤ / ٤٧٢ ؛ يوسف عزت ، تأريخ القوقاز ، تحقيق : عبد الحميد غالب (مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه – اسطنبول : ١٩١٢م) ، ص ٥٨-٧٥ ؛ احمد شلبي ، الموسوعة الإسلامية (لجنة التأليف – القاهرة : ١٩٦٧م) ، ٥ / ١٨٠ ؛ الباز العريني ، المماليك (دار النهضة العربية – د/م : ١٩٦٧م) ، ص ٦٣ .

(٣) شاكر ، التأريخ الإسلامي ، ٧ / ٧٠ ، ٢١٠-٢١١ .

(٤) جنود الحلقة : وهم الاجناد الذين يحيطون بالسلطان . ينظر : القلقشندي ، صبح الاعشى ، ٤ / ١٦ .

(٥) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (مطابع كوستاتوماتس – القاهرة : د / ت) ٨/ ٤٣ .

(٦) عبدالله بن فتح الله البغدادي الملقب بالغياث ، التأريخ الغياثي – الفصل الخامس من سنة (٦٥٦-٨٩١هـ/ ١٢٥٨-١٤٨٦م)دراسة وتحقيق: طارق نافع الحمداني (مطبعة اسعد : ١٩٧٥م) ، ص ٣٤٦ .

علماً أن تكوين النواة الأولى لقيام دولة المماليك الثانية [(١)] ، يعود إلـى أوائـل حكـم السلطان المنصـور قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م) [(٢)] ، الـذي أصـر علـى إنشـاء فرقـة
عسكرية من المماليك ذي الأصل الجركسي ، وذلك في سنة ٦٨١هـ/١٢٨١م [(٣)] .

وقد اهتم بهم اهتماماً كبيراً فأنزلهم في أبراج القلعة فسموا بالبرجية ، ممّـا أدى إلـى انتسابهم لذلك المكان [(١)] ، ليكون ولاء تلك الفرقة له دون الفرق المملوكية الأخرى [(٢)] ومـن

[(١)] محمد بن احمد بن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور (المطبعة الأميرية الكبرى – مصر : ١٨٩٤م) ، ١ / ١١٥ ؛ عبد السيد ، قيام دوله ، ص ١١ .

[(٢)] من الأسباب التي دفعت المنصور قلاوون إلى اختيار مماليك من الجراكسة بالذات ، وتوفرهم في اسواق الرقيق بعد أن أسرهم المغول من بلادهم ، فضلاً عن أن هؤلاء كانوا يمتازون بالـشجاعة ، ممـا حفـز السلطان المنصور قلاوون إلى الإكثار من شرائهم من اجل تحقيق أغراضه وسيطرته على الوضع الداخلي المضطرب ، ولا ننسى سبباً آخرَ مهماً وهو أن كثرتهم قد أدت إلى الانخفاظ في سعر المملوك الجركـسي الواحد بـ (١١٥) ديناراً في حين أن سعر المملوك التركي كان يبلغ (١٢٥) ديناراً ، سعيد عبد الفتـاح عاشور ، العصر المملوكي في مصر والشام ، ط ٢ (دار النهضة العربية – القاهرة : ١٩٧٦م) ، ص ١٤١-١٤٢ ؛ مصر والشام في عصري الأيوبيين والمماليك (دار النهضة العربية – بيروت : ١٩٧٢م) ، ص ٢٢٣ .

E. B. " Egypt " , Vol. ٨, p. ٦٢.

[(٣)] كان التقسيم العسكري في الدولة المملوكية الأولى مقسم إلى ثلاثة أقسام الأول يقال لهم أجنـاد الحلقـة وهؤلاء مخصوصون لخدمة السلطان ، أما القسم الثاني منهم مماليك السلطان في حين يطلق على القـسم الثالث مماليك الأمراء ، فبدأ السلطان قلاوون بإلغاء قسمين وإبقاء قسم واحـد مـنهم وهـو القـسم الأول المخصص في خدمة السلطان ، المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ترجمة : محمد مصطفى زيادة (مطبعة لجنة التأليف والترجمة – القاهرة : ١٩٧٠م) ، ج١/ق٤ / ٤٦٢ . وان تلك الفرقـة اقتـصرت تعليمهم على الفنون العسكرية ممّا جعلهم قوة عسكرية ضاربة استطاعت أن تفرض سيطرتها على مـصر والدول المجاورة . ينظر :

Francesco Gaprieli , A Short History of the Arabs (Great Britain - London : ١٩٦٥) , p. ١٥٥; Spuler , the Muslim , part. II , p.٧٧.

الجدير بالذكر أن هدفه من إنشاء تلك الفرقة لتكون حماية خاصة له استناداً لقوله : **((كل الملوك عملوا شيئاً يذكرون به ما بين مال وعقار ، وانا عمرت أسواراً ، وعملت حصوناً مانعة لي ولأولادي وللمسلمين ، وهم المماليك))** [٣] ، ونتيجة لذلك الاهتمام المتزايد من لدن السلطان قلاوون بتلك الفرقة ، أدى ذلك إلى الانشقاق الداخلي المتمثل بظهور النزاع العنصري بين المماليك الأتراك والجراكسة [٤] .

علماً أن عملية شراء المماليك الجراكسة لم تتوقف في عهد السلطان الناصر قلاوون عند هذا الحد بل استمرت إلى عهد ابنه السلطان الأشرف خليل (٦٨٩-٦٩٣هـ/١٢٩٠-١٢٩٣م) الذي زاد في عددهم ، فاشترى خلال حكمه للمدة (٦٨٨-٦٩٣هـ/ ١٢٨٩-١٢٩٣م) ما يقارب ألفي مملوك [٥] ، وعلى ما يبدو أن السلطان المملوكي سمح لهم ولاول مرة بمغادرة أبراجهم والنزول إلى أسواق القاهرة ، شريطة أن يتم ذلك خلال النهار والعودة قبيل حلول الليل إلى أماكنهم داخل القلعة [٦] ، وتمخض عن تلك السياسة أمران ، أولهما : انغماس المماليك البرجية في الحياة العامة ، بعد أن كانوا معزولين فضلاً عن مخالطتهم مع سائر الطوائف الأخرى من المماليك أما الأمر الثاني : لتلك السياسة فقد اثار الحسد من سائر

---

[١] المقريزي ، المواعظ والاعتبار ، ٢ / ٢١٤، ٢٤١ ؛ آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٧ / ٣٣٠ ؛ آبن اياس ، بدائع الزهور ، ١ / ٤٠٥ ؛ احمد عودات وآخرون ، تأريخ المغول والمماليك البحرية من القرن السابع الهجري إلى القرن الثالث عشر الميلادي (دار الكندي – الأردن : ١٩٩٠م) ، ص ٤ ؛
Spuler , the Muslim , part. II , p. ١٧٧.

[٢] على ما يبدو أن السلطان قلاوون قد أحس بخطر الفرق العسكرية الموجودة ومن ابرز الفرق التي ثارت خوفه الفرقة الظاهرية أي الفرقة التي تنتمي إلى السطان الظاهر بيبرس .ينظر :
E. B. " Egypt " , Vol. ٨ , p. ٦٢-٦٣.

[٣] المقريزي ، المواعظ والاعتبار ، ٢ / ١٣ ؛ وينظر : عاشور ، العصر المملوكي ، ص ١٤٢ ؛ مصر والشام ، ص ٢٢٥ .

[٤] عاشور ، العصر المملوكي ، ص ١٤٢ ؛
E. B. " Egypt " , Vol. ٨ , p. ٦٣.

[٥] آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٨ / ٣ ؛ ضومط ، الدولة المملوكية ، ٢٥٤ .

[٦] المقريزي ، المواعظ والاعتبار ، ٢ / ١٣ ؛ عبد السيد ، قيام دولة ، ص ١٣-١٤ ؛ عاشور ، العصر المملوكي ، ص ١٤٣ ، مصر والشام ، ص ٢٢٥ .

طوائف المماليك تجاه المماليك الجراكسة [1] ، وبسبب ذلك دخلت البرجية في دائرة الصراع مع بقية المماليك ، ومما زاد الأمر سوءاً هو مقتل السلطان قلاوون وتولى ابنه السلطنة محمد بن قلاوون سنة (٦٩٣هـ/١٢٩٣م) الذي كان صغير السن [2] .

وبعد أن تولى السلطان الجديد منصب السلطنة التي كانت محط أنظار الكثير من الأمراء الطامعين فيها أصبحت البلاد مسرحاً للنزاعات التي أخذت تنخر في جسم الدولة المملوكية الأولى وتفتت وحدتها ، إذ كانت بداية النزاع بين الأميرين كتبغا (٦٩٤-٦٩٦هـ/١٢٩٤-١٢٩٦م) نائب السلطان وسنجر الشجاعي الذي كان يتولى منصب الوزارة [3] ، من اجل السيطرة على السلطنة وعزل السلطان ومن هنا بدأ الانحلال السياسي داخل الدولة المملوكية الأولى ، فاستعان كتبغا بالمماليك الأتراك ، أما سنجر فاعتمد على المماليك البرجية [4] ، ومن الملاحظ أن سبب وقوف المماليك البرجية إلى جانب سنجر ضد كتبغا هو احساسهم أن كتبغا كانت له يد في مقتل سلطانهم ، وهذا ما أثار حفيظتهم ضده عندئذٍ انتهز سنجر الشجاعي تلك الفرصة وضمهم إليه ليحقق ما كان يصبو إليه ، وعلى ما يبدو ان هذا الانشقاق الداخلي أدى إلى انشطار صفوف المماليك إلى صفين ، الأول : مع نائب السلطان ، والثاني مع الوزير [5] .

---

(1) المقريزي ، السلوك ، ج٢/ ق١ /٨٢١ ؛ عبد السيد ، قيام دولة ، ص ١٤ ؛ عاشور ، العصر المملوكي ، ص ١٤٣ .

(2) آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٨ / ١٩-٢٠ ، ضومط ، الدولة المملوكية ، ص ٣٩-٤٠ .

(3) المقريزي ، السلوك ، ج١ / ق٣ / ٧٩٩-٨٠٠ ؛ آبن تغري بردي ، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، تحقيق : محمد عبد العزيز (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر : ١٩٨٦م) ، ٣ / ٧٨ ؛ عبد السيد ، قيام دولة، ص ١٤ ؛ عاشور ، العصر المملوكي ، ص ١٤٤ .

(4) آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٨/ ٤١-٤٣ ؛ محمد بن شاكر الكتبي ، عيون التواريخ ، تحقيق : نبيلة عبد المنعم وفيصل السامر (دائرة المنشورات الثقافية ، بغداد : ١٩٨٤م) ، ٥ / ٩٩-١٠١ ؛ عاشور ، العصر المملوكي ، ١٤٤ ؛ ضومط ، الدولة المملوكية ، ص ٢٥٦ .

(5) زين الدين عمر بن الوردي ، تتمة المختصر في أخبار البشر (تأريخ آبن الوردي) (المطبعة الحيدرية – النجف : ١٩٦٩م) ، ٢ / ٣٤١ ؛ المقريزي ، السلوك ، ج١ / ق٣ / ٧٩٩ ؛ الحافظ بن كثير ، البداية والنهاية ، ط٢ (مكتبة المعارف ، بيروت : ١٩٧٧م) ، ١٣ / ٣٣٨-٣٣٩ ؛ الكتبي ، عيون التواريخ ، ٥ / ١٠٠ .

ناهيك عن أن السياسة التي كان يتبعها الأمراء من المماليك بصورة عامة هي الخداع والدليل على ذلك بعد أن ازداد عدد المماليك البرجية وبلغ عـددهم خمـسة آلاف وسـبعمئة مملوك وفي الوقت ذاته كان عدد المماليك الأتراك اقل منهم [١] ، لذا شعر كتبغا بضعف موقفه فلجأ إلى طريقة جديدة وهي أغراء الأمراء بالأموال ، فضلاً عن ذلك فانه استطاع أن يقنـع السلطان بان يرسل إلى سنجر الشجاعي طالباً منه الاجتماع من أجل حـل النـزاع بينهمـا والحفاظ على وحدة كيان الدولة من ذلك الانشقاق ، إلا أن نية كتبغا لم تكن صادقة تجاه سنجر الشجاعي ، ومما يؤكد سوء نيته هو رفض الشجاعي الحضور ، وبذلك يكون قد شق عـصا الطاعة للسلطان [٢] ، وهذا ما كان يهدف إليه كتبغا للتخلص من منافسه الذي بدا أمام السلطان إنه يريد أن تستمر وحدة الدولة وان يبرر العمل الذي سوف يقوم به ضد خصمه بأنه شرعي من خلال الحصول على موافقة السلطان وتأييد أغلبية الأمراء له ، فقام بحصار القلعة التـي كان يسكن بها المماليك البرجية في سنة (٦٩٣هـ/١٢٩٣م) ، إلا إنه فوجئ بقـوة المماليك الذين استطاعوا ان يهزموه مع اتباعه [٣] .

وبعد الخسارة التي تعرض لها كتبغا بقي منتظراً الفرصة المناسبة ليحقق ما يـصبو إليه وبالفعل وجدها في متناول يديه حيث استطاع أمراء البرجية من كـشف نوايـا سـنجر الشجاعي ، وانه لا يعمل من أجلهم ، وانما كان يعمل خدمةً لمصالحه الشخـصية ، فقـرروا التخلي عنه ، مما أدى إلى رجحان كفة كتبغا ومقتل سنجر الشجاعي [٤] .

---

[١] عبد السيد ، قيام دولة، ص ١٨٠ .

[٢] المقريزي ، السلوك ، ج١ / ق٣ / ٨٠٠ .

[٣] ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات ، تأريخ آبن الفرات (مطبعة حداد ، البصرة : ١٩٧٦م) ، ٨ / ١٨٠-١٨١ ؛ المقريزي ، السلوك ، ج١ / ق ٣ /٨٠٠،آبن تغري بردي،النجوم الزاهرة،٨/٤٤-٤٥ .

[٤] آبن خلدون ، العبر ، ٥ / ٤٠٧-٤٠٨ ؛ المقريزي ، السلوك ، ج١ / ق ٣ / ٨٠١-٨٠٢ ؛ آبن ايـاس ، بدائع الزهور ، ١ / ١٠٧ . حتى إذ قال الشاعر في وفاة سنجر الشجاعي :

ألم تر أن الليث حقاً تناهتت ... ذناب الفلا منه ذراعاً وساعداً

بعد أن تخلص كتبغا من عدوه الأول بدأ يفكر في التخلص من أنصار سنجر من خلال اتباع سياسة التفرقة من اجل إضعافهم عن طريق تفريقهم وإبقائه مجموعة صغيرة منهم داخل القلعة بشرط أن تكون تحت المراقبة الشديدة (١) ، ولعل هذا الإجراء الذي اتخذه كتبغا ضد البرجية قد أثارهم ضده (٢) فسارع إلى تدارك الموقف لمصلحته فخلع السلطان محمد ونفاه إلى الكرك (٣)، وأعلن نفسه سلطاناً في سنة (٦٩٣هـ/١٢٩٤م) (٤) ، عند ذلك استبد كتبغا بالسلطنة استبداداً لا نظير له ، وحصل للناس في عهده ما لا يوصف من الشر ، فقد اشتد الغلاء المفرط ، ووصل الحال إذ اضطر الناس إلى أكل الجيف ، وأصبح ثمن الإردب (٥) من القمح مئة وسبعين درهماً ، أي ما يعادل ثمانية مثاقيل ونصف مثقال من الذهب ، وبلغ الأمر اوجه حين طرحت الموتى في الطرق نتيجة للوباء الذي حلَّ بهم انذاك . وعلى الرغم من تلك الظروف القاسية التي حلت بالناس في عهده إلا ان همه الأول كان يتمثل بوضع حد لنفوذ المماليك البرجية (٦) ، الذين كانوا يشكلون خطراً مباشراً عليه ، إلا إنه لم يتوقف عند ذلك الحد بل قام بتعيين طائفة جديدة من بني جنسه إلا وهي طائفة المغول الاويراتية (٧) .

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ج١ / ق ٣ / ٨٠٢ ؛ آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٨ / ٤٦ ؛ عبد السيد ، قيام دولة، ص ١٧ ؛ عاشور ، العصر المملوكي ، ص ١٤٤-١٤٥ .

(٢) آبن خلدون ، العبر ، ٥ / ٤٠٨ ؛ عاشور ، العصر المملوكي ، ص ١٤٥ .

(٣) الكرك : قلعة حصينة جداً في اطراف بلاد الشام من نواحي البلقاء . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ٤ / ٤٥٣ .

(٤) آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٨ / ٩-٥٠ ، مفضل بن أبي الفضائل ، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تأريخ آبن العميد (مطبعة باريس - د / م : ١٩٢٨م) ، ٢ / ٤١٨-٤٢١ .

(٥) الإردب : مكيال مصري للحنطة يتألف من ٦ ويبات كل ويبة ٨ اقدام كبيرة أو ١٦ قدماً صغيراً ، وعلى هذا يحسب الاردب بـ (٦٩،٦ كغم) من القمح أو ٥٦ كغم من الشعير على التوالي أو بوصفة مكيالاً حوالي ٩٠ لتراً . ينظر : فالتر هنتس ، المكاييل والاوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري ، ترجمة : كامل العسلي (مطبعة القوات المسلحة الاردنية – عمان : ١٩٧٠م) ، ص٥٨ .

(٦) مبارك ، الخطط التوفيقية ، ١ / ٨٩ .

(٧) هي إحدى الفرق المغولية يطلق عليها اسم (العيراتية) الذين هربوا من بلادهم سنة ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م نتيجة ظلم زعيمهم غازان خان متوجهين إلى مصر طالبين الدخول في الإسلام ، وكانوا بزعامة الأمير طرغاي زوج بنت هولاكو ، وكان عددهم يقدر بحوالي عشرة آلاف . ينظر : المقريزي ، السلوك ، ج١ /

وعلى ما يبدو أن المعاناة التي كان يشعر بها المماليك الجراكسة قد بدأت تزول شيئاً فشيئاً ، فبعد انتهاء عهد السلطان الناصر سنة (٧٤١هـ / ١٣٤٠م) ، تولى من بعده سلاطين لم يتمكنوا من مقاومة تلك الفرقة من المماليك التي أخذ يُحسب لها حسابٌ خاصٌ ، إذ أطلق عليها آسم جديد وهو الجراكسة ، بدلاً من تسمية البرجية . وإن دل هذا الإجراء على شيء فانما يدل على مدى القوة التي كانوا يمتلكونها ومدى خطورتهم في القضاء على دولة المماليك الأولى [١] ، إذ أخذ عددهم بالازدياد مع تنامي قوتهم ، مما كان سبباً في خوف المماليك البحرية ، لذا أعلنوا خوفهم من المماليك الجراكسة على لسان احد أمراء المماليك البحرية قائلاً : ((**انهم سيهلكون العباد والبلاد**)) [٢] .

إن كثرة الاضطرابات والتمردات التي كانت تحصل في الدولة المملوكية الأولى ساعدت على قيام الدولة المملوكية الثانية ، وفي سنة (٧٦٩هـ / ١٣٦٨م) ، استطاع أحد أمراء المماليك الذي يدعى اسندمر الناصري من القضاء على يلبغا العمري ، وتنصيب نفسه سلطاناً [٣] ، لكنه واجه مشكلة المماليك اليلبغاوية [٤] ، إلا إنه تمكن من إلقاء القبض على عدد كبير منهم فسجن جماعة بالإسكندرية ونفى جماعة أخرى إلى منطقة الكرك [٥] ، التي كان

---

(١) آبن خلدون ، العبر ، ٥ / ٤٤٢-٤٤٣ ؛ عبد السيد ، قيام دولة، ص ٢٧ .

(٢) شهاب الدين احمد بن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة (مطبعة المدني – مصر : د / ت) ، ١ / ٥٠٠ .

(٣) آبن خلدون ، العبر ، ٥ / ٤٥٣ ، ٤٥٦ –٤٥٧ ؛ المقريزي ، السلوك ، ج٣ / ق١ / ١٥٥ .

(٤) وهي طائفة تنتسب إلى يلبغا العمري وهو اسم تتري مستحدث والأصل (مل جق) ومعناه بالجركسية (غنام) . ينظر : آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١١ / ٢٢١ .

(٥) المقريزي ، السلوك ، ج٣ / ق١ / ١٥٥ ؛ ج٢ / ق٢ / ٥٥٤ ؛ علي مبارك ، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة لمدنها وبلادها القديمة والشهيرة (مطبعة دار الكتب – مصر : ١٩٦٩م) ، ١ / ١١١ .

إلى المناصب الإدارية في الدولة ، ولم يكن في مقدرة الناصر محمد بن قلاؤون أن يقف موقفاً حاسماً بين الكتلتين وذلك لصغر سنه [1] ، كما أن طموح الأمراء الجراكسة كان كبيراً من اجل تحقيق الهدف ، الذي كانوا يصبون إليه وهو التولى لاعلى المناصب بما فيه منصب السلطان [2] .

وعلى الرغم من ذلك تمكن أحد المماليك البرجية وهو بيبرس الجاشنكير [3] (٧٠٨-٧٠٩هـ/١٣٠٨-١٣٠٩م) من تولي مناصب إدارية في دمشق سنة ٧٠٨هـ/١٤٠٨م [4] ، وفي الوقت ذاته بدأ السلطان الناصر محمد بن قلاؤون باتباع سياسة الحد من صلاحيات زعماء الترك والجراكسة ، فعمل جاهداً من أجل التخلص من الأمراء المنافسين له ، ومن أبرزهم سلار زعيم الترك وبيبرس الجاشنكير زعيم الجراكسة ، إلا أن شعورهما بخطر سياسة السلطان تجاههما ، شجعهم ذلك على توحيد جهودهما ، ممّا أدى إلى فشل خطة السلطان ، ونتيجة فشله في التخلص من الأميرين اضطر السلطان الناصر محمد بن قلاوؤن إلى التنحي عن السلطنة [5] ، في سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م ، وهذا ما فتح الباب على مصراعيه أمام البرجية فاعتلى كبير أمرائهم الجاشنكير دست السلطنة في السنة ذاتها ، ممّا أثار ذلك غيظ الترك ، فضلاً عن ان كثيراً من نواب الشام وأمرائهِ رفضوا الاعتراف بالسلطان الجديد

---

[1] المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق : محمد مصطفى زيادة (لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة : ١٩٤١ م) ، ج٢ / ق١ / ٤٣ ؛ عبد السيد ، قيام دولة ، ص ٢٢ .

[2] المقريزي ، السلوك ، ج٢ / ق١ / ٤٣ .

[3] بيبرس الجاشنكير : من مماليك السلطان المنصور قلاوؤن ، تدرج في المناصب حتى أصبح أتابكاً ، فلما خلع الناصر نفسه عن السلطنة تم اختيار بيبرس الجاشنكير من لدن الأمراء الآخرين . للمزيد من التفاصيل ينظر : محمود رزق سليم ، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والادبي ، ط٢ (المطبعة النموذجية – مصر : ١٩٦٢م) ، ١ / ٣٣ . والجاشنكير هو المسؤول عن الموائد السلطانية .ينظر : نفسه ، ١ / ٨٧ .

[4] المقريزي ، السلوك ، ج٢ / ق١ / ٤٥ ؛ آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٨ / ٢٣٦ ؛ المنهل الصافي، ٢ / ١٣٧.

[5] آبن خلدون ، العبر ، ٥ / ٤٠٦ ؛ المقريزي ، السلوك ، ج٢ / ق١ / ٣٣ ؛ آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٨ / ٣٤ ؛ عاشور ، العصر المملوكي ، ص ١٤٨ .

(١) ، حتى قال بعضهم : ((**إن هؤلاء الجراكسة متى تمكنوا منا أهلكونا وراحت أرواحنا معهم فقوموا بنا نعمل شيئاً قبل أن يعملوا بنا**)) (٢) ، فبذلك بدأت المعارضة الشعبية للسلطان الجديد بحجة اتخاذه بعضاً من الإجراءات (٣) غير المناسبة لدولتهم ، فاستمرت تلك التمردات التي كانت نتيجتها عدم بقاء السلطان لفترة طويلة في السلطنة ، مما جعله يتخذ قراراً بخلع السلطنة عن نفسه (٤) .

بعد أن تولى السلطان الناصر محمد للسلطنة مرة ثانية وذلك في سنة (٧٠٩-٧٤١هـ / ١٣٠٩-١٣٤٠م) ، أرادَ أن يتخلص من الجراكسة بشكل نهائي ، بعد أن اخذوا يشكلون خطراً على الدولة المملوكية الأولى ، إلا انهم لم يجدوا الشخصية القوية التي توحد صفوفهم وقيادتهم ، لذلك انتهز السلطان ذلك الموقف فقتل الكثير منهم (٥) ، ولكن ذلك الإجراء لم يقلل

من عزم الجراكسة ، فقاموا بتنظيم المؤامرات ضد السلطان (٦) لشعورهم بالظلم من جراء السياسة التي انتهجها ضدهم .

---

(١) ابن خلدون ، العبر ، ٥ / ٤١٢ ، ٤٢١ ؛ ضومط ، الدولة المملوكية ، ص ٤٠ ، ٢٦٠ ؛ عاشور ، العصر المملوكي ، ص ١٤٨ .

(٢) ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ، ١ / ٣٥٩ ؛ عاشور ، العصر المملوكي ، ص ١٤٨ .

(٣) من ابرز التعليمات التي أصدرها بيبرس الجاشنكير هي إلزام النصارى بلبس العمائم الزرق واليهود بلبس العمائم الصفر ، وكذلك إلغاء عيد الشهيد في سنة ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م . للمزيد ينظر : ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٨ / ٢٦٣-٢٦٤ ؛ مبارك ، الخطط التوفيقية ، ١ / ٨٩ .

(٤) ابن خلدون ، العبر ، ٥ / ٤٢٢ ؛ عاشور ، العصر المملوكي ، ص ١٤٨ .

(٥) نتيجة لتلك السياسة هرب كثيرٌ من أمراء الجراكسة من أبرزهم قرا سنقر وجمال الدين اقوش الاقرم والزردكاش ، ووصلوا إلى خربند ايلخان التتار . للمزيد من التفاصيل ينظر : ابن خلدون ، العبر ، ٥ / ٤٢٢-٤٢٤ ؛ المقريزي ، السلوك ، ج٢ / ق١ / ٧٢ وما بعدها .

(٦) ففي تلك السنة قام الأمير بتخاص الجركسي بتحريض مماليك بيبرس الجاشنكير على قتل أمراء الترك . ينظر : ابن خلدون ، العبر ، ٥ /٤٢٣.

وعلى الرغم من كل الجهود التي بذلها الأمير كتبغا من أجل إضعاف شأن المماليك البرجية ، إلا أن النتائج كانت عكسية فأدت إلى بروز نوع من التفرقة العنصرية في صفوف المماليك ، فكان مردود تلك السياسة سلبياً على الأمير كتبغا الذي تعرض إلى محاولة اغتيال من لدن الأمير لاجين في سنة (٦٩٥هـ/١٢٩٥م) [١] ، وبعد أن ضعف موقف كتبغا واصبح شخصاً مهدداً أخذ يبحث عن منطقة اكثر أمنا ليقضي بقية حياته بها فتوجه [٢] إلى صرخد [٣] .

وفي سنة (٦٩٨هـ/١٢٩٨م) اصبح المماليك فرقة لا يستهان بها ، فضلاً عن ازدياد عددهم ، مما أدى ذلك إلى توليهم بعض المناصب الإدارية المهمة ، فاصبح بعضهم نواباً في بلاد الشام ومصر ، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل صاروا من العناصر الهامة في الجيش المملوكي ، لتمتعهم بشجاعة قتالية عالية [٤] .

وبعد التقدم الذي أحرزته فرقة المماليك البرجية على الصعيدين العسكري والإداري صَعّدَ الحافز لديهم بتغيير سياستهم تجاه البيت القلاوُوني ، فانقلبوا من متعصبين إلى طامعين في السلطنة بشكل كامل [٥] ، بدليل أن أطماع البرجية لم تقف عند حد معين بل دفعهم التعصب العنصري في سنة (٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م) إلى منافسة المماليك الأتراك في الوصول

ق٣ / ٨١٢-٨١٣ ؛ آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٨ / ٦٠ ، ٢٨٥ ؛ مبارك ، الخطط التوفيقية، ٨٩/١.

[١] للمزيد من التفاصيل ينظر : المقريزي ، السلوك ، ج١ / ق٣ / ٨١٩ ؛ آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٨ / ٦٤ ، ٨٥ ؛ عبد السيد ، قيام دولة ، ص ١٩-٢٠ ؛ ضومط ، الدولة المملوكية ، ص ٢٥٨ .

[٢] آبن الوردي ، تتمة المختصر ، ٢ / ٣٤٣ ؛ المقريزي ، السلوك ، ج١ / ق٣ / ٨١٩ ، ٨٢٦ ؛ آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٨ / ٦٧-٦٨ .

[٣] صرخد : قلعة حصينة من أعمال دمشق . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ٣ / ٤٠١ .

[٤] عن المشاركة القتالية للجيش المملوكي ضد جيوش غازان المغولي . ينظر : آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٨ / ١٦٠-١٦١ ١٦٤ ؛ عبد السيد ، قيام دولة ، ص ٢٠-٢١ .

[٥] للمزيد من التفاصيل عن النوايا البرجية في السلطنة . ينظر : عبد السيد ، قيام دولة، ص ٢١-٢٢ .

فيها عدد من الجراكسة ومن أبرزهم برقوق [1] ، ومعنى هذا إن صراع الجراكسة في هذه

المرة لم يتخذ صورته العنصرية ، كما حدث من قبل بل اتخذ شكلاً آخر ، وتمثل بالتكتل الجماعي ، ويعود ذلك إلى قلة عدد المماليك الجراكسة بسبب استخدام سياسة الاضطهاد ضدهم منذ أواخر عهد السلطان الناصر محمد وذلك ما دفعهم لتناسي عصبيتهم[2]□.

---

(1) يعد برقوق مؤسس دولة المماليك الجراكسة سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٣م الذي جلب من بلاد الجركس وبيع ببلاد القرم ومن ثم إلى القاهرة ، فاشتراه الأمير يلبغا الخاصكي ، واعتقه وجعله من مماليكه ، وعرف ببرقوق العثماني نسبة إلى بائعه فخر الدين عثمان بن مسافر ، وقد سمي برقوق لجحوظ في عينيه . للمزيد من التفاصيل عن حياته ينظر : المقريزي ، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق : محمد مصطفى زيادة وآخرون (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة : ١٩٥٧م) ، ص ١٤٢ ، احمد بن محمد بن عبدالله بن عرب شاه ، عجائب المقدور في أخبار تيمور (المطبعة العامرة العثمانية – مصر : ١٩٠٥م) ، ص ٧١ ؛ علي بن داود الصيرفي ، نزهة النفوس والابدان ، تحقيق : حسن حبشي (مطبعة دار الكتب – القاهرة : ١٩٧٠م) ، ٢ / ٤٩٧-٥٠٤ ؛ شمس الدين محمد السخاوي ، الضوء اللامع لاهل القرن التاسع (دار مكتبة الحياة – بيروت : د/ت) ، ٣ / ١٠-١١ ؛ احمد بن يوسف القرماني ، اخبار الدول واثار الأول في التاريخ (عالم الكتب – بيروت : د / ت) ، ص ٢٠٦ ؛ عبدالله الشرقاوي ، تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ، موجود بهامش كتاب أخبار الأول فيمن تصرف من ارباب الدول ، للاسحاقي (المطبعة الأزهرية – مصر : ١٨٩٣م) ، ص١٤٠-١٤١ .

Hitti , History , P. ٥٦٧, ٦٧٧, ٦٨٢, ٦٩٧, ٦٩٤.

تعد سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٣م هي بداية الحكم الجركسي لمصر ، وبرقوق هو السلطان الأول الذي استمر حكمه ست عشرة سنة ، وكانت على مرحلتين الاولى كانت ست سنوات بعد سجنه في الكرك أي من سنة (٧٨٤-٧٩١هـ/ ١٣٨٣-١٣٨٩م) ، أما المرحلة الثانية فكانت تسع سنوات بعد مجيئه من المنفى التي بدأت مدة حكمه من سنة ٧٩٢هـ / ١٣٨٩م ، فاستمر حتى وفاته (٨٠١هـ/١٣٩٨م) . ينظر : جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، حسن المحاضرة في تأريخ مصر والقاهرة ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم (دار إحياء الكتب – القاهرة : ١٩٦٨م) : ٢ / ١٢٠ ؛ عبد الرحمن بن محمد العليمي ، الأنس الجليل بتأريخ القدس والخليل ، تحقيق : محمد بحر العلوم (المطبعة الحيدرية ، النجف : ١٩٨٦م) ، ٢ / ٩٤ ؛ صالح بن يحيى ، تأريخ بيروت ، تحقيق : لويس شيخو اليسوعي (المطبعة الكاثوليكية – بيروت : ١٨٩٨م) ، ص ٢٤٦ ؛ اسطفانوس الدويهي ، تأريخ الأزمنة ، ترجمة : فردينان نوئل اليسوعي (المطبعة الكاثوليكية – بيروت : ١٩٥١م) ، ص ١٩٣ .

(2) ابن خلدون ، العبر ، ٥ / ٤٦١-٤٦٢ .

إن الخطأ الكبير الذي وقع فيه السلطان هو إبقاؤه لعدد من المماليك اليلبغاوية في داخل القلعة من الذين وثق بهم [١] غير ان إبقاءه لهؤلاء المماليك شجعهم على القيام بمد يد العون والمساعدة لإخوانهم المنفيين من اجل العودة إلى مصر وبلاد الشام ، عندها أشار الأمير منكلي بغا على السلطان في ضرورة إرجاع هؤلاء بقوله : ((**وإن في إتلافهم قص جناح الدولة وانهم ناشئة من الجند يحتاج الملك لمثلهم**)) [٢] ، غير أن التردد الواضح في سياسة السلطان تجاه المماليك اليلبغاوية ، فضلاً عن عودة اليلبغاوية إلى القلعة والظروف الطبيعية التي أدت إلى القحط والوباء وكل ذلك أدى إلى اضعاف السلطنة المملوكية واقترابها من حافة الهاوية ، ناهيك عن التعاون الذي حدث بين المماليك العائدين من المنفى والموجودين في مصر ، وهذا بدوره اهم عامل أدى إلى الاضطراب ، وحفز الناس إلى المطالبة بالتخلص من حكم بيت قلاوؤن ، ومهد الطريق أمام العناصر الجركسية في إعلان سلطنتهم الجديدة [٣] .

ونتيجة للظروف التي عاشتها الدولة المملوكية الأولى في أواخر أيامها من صراعات داخلية كان أمرا متوقعاً من وصول الجراكسة إلى الحكم ، على الرغم من ان البداية كانت بشكل تكتل سياسي ، إذ عملوا مع غيرهم من عناصر المماليك الأولى على التخلص من الحكم القلاؤوني ، واقامة دولة الجراكسة ، ذلك الطموح الذي كان يراود الكثير من أمرائهم [٤] .

ظلت فكرة القضاء على الدولة المملوكية الأولى والسيطرة على السلطة عالقة بأذهان المماليك اليلبغاوية ، الذين عادوا إلى القاهرة ، لذا فقد برز من بينهم برقوق الذي كان له طموح شخصي في إنشاء دولة تحمل اسمهم [٥] ، ونظراً لما رآه الأمير يلبغا العمري من امتلاك برقوق ذلك الطموح ، لذا جعله من الكتاب المقربين منه [٦] ، واخلص برقوق

---

[١] من ابرز هؤلاء الذين بقوا داخل مصر الأمير منكلي بغا الذي عينه اتابكاً للعسكر وزوجه آبنته . ينظر : عبد السيد ، قيام دولة، ص ٣٥ .

[٢] آبن خلدون ، العبر ، ٥ / ٤٦١-٤٦٢ .

[٣] *E. B. " Egypt ", Vol. ٨, p. ٦٣.*

[٤] عبد السيد ، قيام دولة ، ص ٣٩ .

[٥] مصطفى مراد الدباغ ، الموجز في تأريخ الدول الإسلامية وعهودنا في بلادنا فلسطين (دار الطليعة – بيروت : ١٩٨١م) ، ص ١١٧ .

[٦] العسقلاني ، أنباء الغمر بأبناء العمر ، تحقيق : حسن حبشي (مطابع الأهرام التجارية ، القاهرة : ١٩٧٢ م) ، ١ / ٤٧٥ .

لسيده اشد الإخلاص ، فضلاً عن اشتراكه في التمردات كافة التي قام بها المماليك اليلبغاوية ، وأدى ذلك بالتالي إلى نفيه من لدن السلطان إلى الكرك [1] ، إلا أن عملية الوساطة التي قام بها المماليك اليلبغاوية المقربون من السلطان طالبين الإفراج عـن برقـوق وسـائر المماليـك المحجوزين معه ، وبالفعل نجحت الوساطة في مسعاها في سنة (٧٧٣هـ/١٣٧١م) بشرط أن لا يسـمح لهم بالعودة إلى القاهرة ، فانتقل برقوق إلى دمشق ، فعمل نائباً للأمير منجـك اليوسـفي [2] .

بعد أن استقر برقوق في موقعه أخذ يراقب الأحداث من اجل العودة إلـى القـاهرة ، وإقامة دولة مملوكية من العنصر الجركسي ، وهو ينظر من بعد انهيار دولة المماليك البحرية شيئاً فشيئاً ، ويرى أيضاً أمامَهُ ازدياد مؤيديه واتباعه ، وهذا ما دفعه إلى العودة إلى مـصر في سنة (٧٧٥هـ/١٣٧٣م) ومعه عدد من اليلبغاوية ، فتم تعينه في منصب أمير عشرة [3] في مصر [4] .

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن لماذا اعطي برقوق كل ذلك الاهتمام من دون غيـره من المماليك الجراكسة ؟ هل لكونه يمتلك الشجاعة والذكاء ؟ ام لكون الظروف التـي كانـت تعيشها الدولة المملوكية الأولى في حالة اضطراب مستمر ؟ وعلى ما يبدو ان برقـوق كـان يمتلك شخصية قوية ، فضلاً عن مقدرته السياسية في إمتلاكه القدرة على إقناع من حوله من الأمراء أم من المماليك ولا ننسى طموحه الشخصي في اقامة دولة جركسية .

وبعد ان تولى برقوق منصبه الجديد اخذ يفكر في قرارة نفسه بخطة يـستطيع مـن خلالها الوصول إلى السلطنة في الوقت الذي كانت فيه الدولة المملوكية الأولى تلفظ أنفاسـها الأخيرة ، إذ كان السلاطين آنذاك منشغلين في اللهو والصيد بدلاً من أمور الحكم ، فضلاً عن وجود بعض السلاطين غير المؤهلين للحكم ، هذا ما جعل خطته مبنية على أمرين : الأول : العمل سراً للقضاء على كبار الأمراء لكي يتسنى له ارتقـاء أعلـى المناصـب وخـصوصاً السيطرة على رياسة الجيش الذي يعد العمود الفقري للدولة ، أما الأمر الثاني : فيتمثـل فـي

---

[1] آبن خلدون ، العبر ، ٥ / ٤٦١ -٤٦٢ .

[2] آبن خلدون ، العبر ، ٥ / ٤٦٢ .

[3] منصب عسكري يتألف من عشرة إلى عشرين فارساً . ينظر : القلقشندي ، صبح الاعشى ، ٤ / ١٥ .

[4] المقريزي ، المواعظ والاعتبار ، ١ / ٢٤١ .

اتباعه أسلوب السياسة المفتوحة في توحيد كل قوى المعارضة ضد الدولة المملوكية الأولى [1] .

لقد بدأ برقوق بالعمل على تنفيذ خطته من أجل الحصول على مركز السلطة والقضاء على المماليك الأتراك بشكل نهائي والسلطان شعبان (٧٦٤-٧٧٨هـ/١٣٦٢-١٣٧٦م) بشكل خاص الذي تعرض لعملية اغتيال أثناء ذهابه لاداء فريضة الحج إلا انه استطاع الهرب لفترة قصيرة ، ثم القي القبض عليه في سنة (٧٧٨هـ/١٣٧٦م) وهو متنكرٌ في زي امرأة ، وبهذا لقي عمل اليلبغاوية تأييداً من لدن الخليفة المتوكل والقضاة الذين اقروا شرعية عملهم [2] ، ويمكن القول ان الأمير برقوق قد نجح في تهيئة الفرصة المناسبة لليلبغاوية من اجل السيطرة على اجهزة الدولة منذ نهاية سنة (٧٧٨هـ/١٣٧٦م) ، كما ان انتقال الأمير برقوق مع جماعة الجراكسة إلى العمل في خدمة الأمير اينبك البدري [3] ،إذ وصفه ابن خلدون قائلاً : ((**شيطان من المتمردين ، وقد اوحى إلى قرطاي بانه يكون صاحب الدولة بمصر**)) [4] والذي كان يعد العدة للقضاء على سلطنة قلاوون واعلان نفسه سلطاناً ، وكان برقوق من اقرب المقربين له إذ عينه مسؤولاً عن امرة الطبلخانة [5] بدلاً من امير عشرة في سنة (٧٧٩هـ/١٣٧٧م) [6] .

وبعدها واجه الأمير اينبك البدري مشاكل كان من ابرزها قيام يلبلغا الناصري وبركة الجوباني بتمرد ضده في سنة (٧٧٩هـ/١٣٧٧م) [7] ونجحا في التخلص منه وقاما بترشيح احدهما اميراً لليلبغاوية ، فاصبح يلبغا الناصري أميراً ، وكان مقره في دمشق أي ان ذلك

---

[1] ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١١/٢٢٣.

[2] ابن خلدون ، العبر ، ٥ / ٤٦٣ .

[3] السخاوي ، الضوء اللامع ، ٣ / ١١ .

[4] العبر ، ٥ / ٤٦٤ .

[5] الطبلخانة : هو المسؤول عن الالات الخاصة بالملوك ، وهي عبارة عن طبول متعددة معها ابواق وزمر ، وتختلف اصواتها على اتباع مخصوص ، وتدق في كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب . ينظر : القلقشندي، صبح الاعشى ، ٤ / ٧-٨ .

[6] المقريزي ، السلوك ، ج ٣ / ق١ / ٣٠٨ ، ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ، ١ / ٣١٦ .

[7] طرخان ، مصر في عصر ، ص ٣ ، ص ٤٤ .

الترشيح كان متفق عليه من قبل برقوق والجوباني [١] اللذين ارادا التخلص من يلبغا من اجل ان تخلى الساحة امامهما للسيطرة على الوضع إذ كانا ابرز شخصيتين على حد قول ابن خلدون ((**ابصر القوم بالسياسة وطرق التدبير**)) [٢] ، والدليل على ذلك أصبحت لبرقوق المكانة الخاصة نتيجة لسياسته الحكيمة التي كان يمتلكها والتي مكنته من التخلص من الأمراء كافة وبطرق لا تثير الشكوك حوله واظهر نفسه أمام عامة الناس انه يعمل لخدمة المماليك الجراكسة [٣] .

ومن الجدير بالذكر ان المكانة التي حصل عليها برقوق وبركة الجوباني أغاظت انصار طشتمر ، فحاولوا اثارة المشاكل على الرغم من اعتزال قائدهم للمشاركة معهم لكن برقوق تمكن من السيطرة على الموقف والقاء القبض على طشتمر [٤] وبعد ذلك تولى منصب الاتابكية [٥] فقام بدوره بتعيين ابناء جنسه في مناصب الدولة [٦] .

ومن الواضح ان الأمور اخذت تتطور بسرعة واوشكت الدولة المملوكية الاولى على السقوط وعبر الناس عن ذلك الموقف بقولهم ((**برقوق وبركة نصبا على الدنيا شبكة**)) [٧] ،

---

[١] اصبح برقوق امير الماخورية اما بركة الجوباني فتولى منصب امير مجلس . ينظر : آبن خلدون ، العبر ، ٥ / ٤٦٧ .

[٢] العبر ، ٥ / ٣٦٧ ؛ طرخان ، مصر في عصر ، ص ٣ ؛ عبد السيد ، قيام دولة، ص ٤٤ .

[٣]من السياسة الحكيمة التي كان يتبعها برقوق ، أنه تمكن من إقناع يلبغا الناصري بترك المكان ، وهو مقر السلاح ، وان يقيم هو به هذا من جانب ، أما الجانب الآخر فإن برقوق وبركة أرادا التخلص من طشتمر الذي بدأت له الشكوك سنة ٧٧٩هـ/١٣٧٧م ، فبدأ الخلاف بينهما إذ طلبا منه نقل أنصاره إلى وظائف النيابة في بلاد الشام ، أو عزلهما وتولية أصحابهما مكانهم . للمزيد من التفاصيل ينظر : المقريزي ، السلوك ، ج ٣ / ق١ / ٣٢٤-٣٢٥ .

[٤]آبن خلدون ، العبر ، ٥ / ٤٦٨ ؛ المقريزي ، السلوك ، ج ٣ / ق١ / ٣٢٢-٣٢٣ ؛ آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١١/١٦٢-١٦٣.

[٥] الاتابكية : وتعُدُّ من المناصب المهمة في الدولة ، واول من لقب بذلك نظام الدولة وزير ملكشاه بن الب ارسلان السلجوقي ، والأتابكية معناها ابو الأمراء . ينظر : عمر بن أحمد بن هبة الله آبن العديم ، زبدة الحلب في تأريخ حلب ، تحقيق : سامي دهان (المطبعة الكاثوليكية – بيروت : ١٩٥٤م) ، ١/٦٠٥ ؛ القلقشندي ، صبح الاعشى ، ٤ / ١٨ .

[٦]عبد السيد ، قيام دولة، ص ٤٦ .

[٧]آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١١ / ١٦٣ .

إلا ان تلك العلاقة الودية بين برقوق وبركة لم تدم طويلاً فضلاً عن الظروف التي خدمت برقوق [1]، وانتهى ذلك النزاع سنة (٧٨٢هـ/١٣٨٠م) بعد ان تمكن من هزيمة خصمه وتفريق اتباعه وسيطرته على أمواله كافة [2] .

ومن المؤكد أن انتصار برقوق قد أدّى إلى ارتفاع شأن الجراكسة ، إذ وجهت الأنظار إلى برقوق واخذ الشعراء [3] يمدحونه ويقدمون آسمه على آسم السلطان ، وبهذا الموقع الذي حصل عليه برقوق ، ازدادت أهمية الجراكسة بزيادة أعدادهم ووفرة الأموال اللازمة لتجارة الرقيق من اجل جلب اكبر عدد ممكن من المماليك الجراكسة [4] .

ففي سنة (٧٨٣هـ/١٣٨١م) توفي السلطان علي بن شعبان بعد حكم دام خمس سنوات ، ولم يكن له سوى الاسم من السلطنة ، وعلى الرغم من أن الأمير برقوق بلغ من القوة والسيطرة ، وكان باستطاعته أن يلي عرش السلطنة بعد وفاة السلطان مباشرة ، إلا إنه كان يدرك أن الأمور لم يتم نضجها ، وان الظروف غير مناسبة لوجود معارضين من كبار الأمراء الذين عبروا عن رأيهم بقولهم : ((**لا نرضى أن يتسلطن علينا مملوك يلبغا**)) [5] ، ولهذا أراد برقوق ان تكون الأمور اكثر هدوءاً ووجد ان من الحكمة انتظار الوقت المناسب لاعلان دولته ، فقام بجمع كبار الأمراء والخليفة والقضاة وتحدث معهم فيما يتصوروه بتعيين سلطانٍ مناسبٍ من ابناء السلطان شعبان فاتفق الجميع على الأمير حاجي (٧٨٣-٧٨٤هـ/١٣٨١-١٣٨٢م) الذي يبلغ من العمر تسع سنوات ، فصادقوا على تعينه في سنة

---

[1] من الأمور التي ساعدت برقوق ضد خصمه بركة الجوباني هي كراهية الناس له بسبب قسوته حتى إن العلماء تذمروا منه حين انتزع منهم جميع الأوقاف الشافعية وأوقاف جامع آبن طولون . ينظر : المقريزي ، السلوك ، ج ٣/ ق١ / ٢٣٦ .

[2] للمزيد من التفاصيل حول العلاقة بين الاميرين . ينظر : المقريزي ، السلوك ، ج٣ / ق ١ / ٢٣٧ .

[3] ومن هؤلاء الشعراء القيم خلف الغباري بقوله :

مصر صارت بعد انقباض في انشراح	**وقلعها مزخرف والقصور**
يا إلهي احفظ لنا برقوق	**واحرس الجند وأنصر المنصور**

ينظر : آبن اياس ، بدائع الزهور ، ١ / ٢٤٨ .

[4] آبن خلدون ، العبر ، ٥ / ٤٦٩-٤٧٠ .

[5] آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١١ / ٢٠٧.

(٧٨٣هـ/١٣٨١م) ولقبوه بالملك الصالح [١] ، وفي المقابل أعطيت لبرقوق صلاحيات واسعة في الدولة ، وذلك للاهمية التي حظي بها [٢] .

ومع توافر ذلك النفوذ الشديد إبتدأ برقوق ممارسة نهج جديد عندما عَيَّنَ عدداً كبيـراً من اليلبغاوية في الوظائف الرئيسة ، كما اهتم بتنظيم الأمور الداخلية واتبع سياسـة شـعبية أساسها العمل من أجل مصلحة الشعب [٣] ، أما سياسته الخارجية فانه انتهز الفرصة لإظهـار قوته عندما هاجمت امارة ذو الغادر التركمانية[٤] مدينة حلب سنة (٧٨٣هـ/١٣٨١م) فتمكن من إلحـاق الهزيمة بهم [٥] .

لقد باتت الأمور مهيأة لبرقوق لإعلان نفسه سلطاناً على مصر فالتمس لنفسه العـذر الذي سبق أن احتج به الطامعون في الحكم ، وهو صغر سن السلطان وحاجة البلاد إلى رجل يستطيع السيطرة على الأوضاع كافة سواء أكانت داخلية أم خارجية [٦] ، لذلك عقد اجتماعـاً في القلعة سنة (٧٨٤هـ/١٣٨٤م) حضر فيه الخليفة والقضاة والأمراء [٧] ، إذ وجه كاتـب سر القاضي بدر الدين عن إعلانه أن الوقت قد اصبح صعباً وأنهم محتاجون إلـى سـلطان تجتمع فيه الكلمة ، وتستقر فيه الدولة ويحفظ البلاد ، والارتقاء بها نحو الأفضل ونتيجة ذلـك

---

[١] آبن خلدون ، العبر : ٥ / ٤٧٣ ؛ المقريزي ، السلوك ، ج ٣ / ق١ / ٣٧٥ .

[٢] *G. Wiet, " Barkuk " The Encyclopaedia of Islam (Brill – Leiden : ١٩٦٩) , Vol. ١, p. ١٠٥٠.*

[٣] المقريزي ، السلوك ، ج٣ / ق١ / ٣٥٣ ؛ آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١١ / ٢١٤.

[٤] امارة ذو الغادر : امار تركمانية اسسها طائفة من التركمان اثر هجرتها نحو الاناضول بعد الغزو المغولي بقيادة اميرها (ذو الغادر) الذي انتسبت إليه . للمزيد عن هذه الامارة ينظـر : الزهيـري ، العلاقـات السياسية الملوكية التركمانية خلال عهد دولة المماليك الجراكسة (٧٨٤هـ/٩٢٣م) (رسـالة ماجـستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب – جامعة الموصل : ١٩٩١م) ، ص ٣٣ وما بعدها .

[٥] المقريزي ، السلوك ، ج ٣ / ق١ / ٤٠٤ ؛ سوبر نهايم ، دائرة المعارف الإسـلامية ، ترجمـة احمـد الشنتاوي واخرون (دار الشعب – القاهرة : ١٩٦٩م) ، مادة (برقوق) ، ٧ / ٨٥ .

[٦] المقريزي ، السلوك ، ج ٣ /ق١ /٤٠٥ ؛ آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١١ / ٢٢٣؛ عاشـور ، العصر المملوكي ، ص ٢٢٨ ؛ عودات ، تأريخ المغول ، ص ١١٧ .

[٧] تميزت الدولة الجركسية في تنصيب السلطان بأن يكون عن طريق الانتخاب من لدن رجال الدولة.ينظر : *E. B. " Egypt " , Vol. ٨, p. ٦٣.*

التصريح اجمع الحضور على خلع السلطان حاجي بعد حكم دام سنة ونصف وتولية برقوق سلطاناً [1]

ولقبوه بالظاهر [2] ، وبعد عملية التنصيب وصلت الأخبار إلى دمشق فنظم أحد الشعراء قصيدة قال في مطلعها :

الحمد لله راح الهم والفكر	**وردّ كل سرور كان ينتظر**
عاد الإمام إلى معهود صحته	**فعاد البشر والأفراح واليسرُ**
وكانت الأرض أيام غيبته	**غبراء فانزاح عنها ذلك الغبرُ**
فانظر إليها تجدها حينما نظرت	**عيناك روضاً ابتغا جادة مصرُ** [3]

وبذلك أعلن عن قيام دولة المماليك الثانية [4] ، والتي وقع عليها مسؤولية الحفاظ على مقر الخلافة الإسلامية ، فضلاً عن إكمال مسيرة الجهاد ضد الغزاة الصليبيين والمغول ، وقد تمكنت تلك الدولة من مد نفوذها إلى بلاد الشام والحجاز واليمن [5] ، وكذلك اتباعها سياسة الدول التي سبقتها أحيانا لأجل إدامة استقلال البلاد [6] ، ضد الأزمات الداخلية السياسية [1] .

---

[1] للمزيد عن اسماء السلاطين الجراكسة سنوات حكمهم ينظر : الملحق رقم (١) .

[2] آبن تغري بردي ، المنهل الصافي ، ٣ / ٢٨٧-٢٨٨ ؛ آبن خلدون ، العبر ، ٥ / ٤٧٠ ، ٤٧٢-٤٧٤ ؛ عبد الحي آبن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في اخبار من ذهب (المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت : د / ت) ، ٦ / ٢٨٢ ؛ عاشور ، العصر المملوكي ، ص ٢٢٨ ؛ علي إبراهيم حسن، مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح العثماني (مطبعة السعادة ، مصر : ١٩٦٤م) ، ص ٢٢٩ ؛ الخربوطلي ؛ مصر العربية ، ص ٣١٥ ؛ توفيق حمد عبد الجواد ، تاريخ العمارة والفنون الاسلامية (دار وهدان للطباعة والنشر - د / م : ١٩٧٠م) ، ص ١٢٧ .

[3] محمد بن محمد بن صصري ، الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية ، تحقيق : وليم م. بريز (د. م. ، لندن : ١٩٦٣م) ، ٢ / ٦٠ .

[4] عن خصائص دولة الجراكسة . ينظر : محمد عبد المعطي أبو الفتح الاسحاقي ، اخبار الأول فيمن تصرف في مصر من ارباب الدول (المطبعة الازهرية - مصر : ١٨٩٣م) ، ص ١٣٩ ؛ حتي ، تأريخ العرب ، ٢/٧٩٥ ؛ عبد الرحمن زكي ، تراث مصر في الحضارة الإسلامية (دار النيل ، مصر : ١٩٥١م) ، ص ٧ .

[5] عن حدود الدولة الجركسية . ينظر : الشكل رقم (١-٢) .

[6] سليم ، عصر سلاطين المماليك ونتائجه العلمي والأدبي (دار المحامي ، القاهرة : ١٩٦٥م) : ٧ / ١٧٩؛ محمد فريد بك ، تأريخ الدولة العلية العثمانية (دار الجيل ، بيروت : ١٩٧٧م) ، ص ١٨٠ .

وبتلك الجهود الكبيرة التي بذلها السلطان برقوق [٢] استطاع ان يثبت اركان دولته فاتخذ الخطة الأولى مُبتدءاً بعملية الاكثار من شراء المماليك الجراكسة واسكانهم في القاهرة،وكذلك السماح لهم بالتزوج من بنات أهل المدينة ، وبالفعل تَمَّ لهم ذلك فاخلدوا إلى البطالة ، وبهذا تغيرت احوال الدولة وعوائدها . وبعدها رفع نواب البلاد الشامية لواء العصيان ، ووقع بينهم وبين عساكر مصر وقائع سفك فيها كثير من الدماء ، ودام الاضطراب حتى حضر يلبغا الناصري بعساكره إلى الشام فحارب عساكر السلطان برقوق ، وعلى اثر ذلك الهجوم انهزمت عساكر السلطان واختفى برقوق ، واستولى يلبغا على القلعة ، وقبض على الكثير من الأمراء فيها ، وامتدت ايدي عساكره إلى السلب والنهب ، وهذا ما اثار غضب الشعب ، فاضطر يلبغا الناصري إلى اصدار أوامره بايقاف تلك الاعمال التخريبية ، لكنه بقي يطارد السلطان برقوق واتباعه حتى عثر به وقبض عليه ، وارسله مسجوناً إلى الكرك ، إلا ان العداوة التي حدثت بين الأمير منطاش وبين الاتابك يلبغا آلت إلى ان صار الحل والعقد بيد منطاش الذي قام بدوره بالعزل والتولية والتصرف كما يشاء ، كل تلك الامور ادت بدورها إلى ان تمكن الملك الظاهر برقوق من الخروج من الكرك ، وعندها انضم إليه مماليكه وكثير من العرب ، وحصل له مع ولاة الشام وخاصة الملك المنصور وقعات عديدة ، انتهت برجوعه إلى السلطنة ثانياً [٣] .

---

[١] *P. M. Holt , Egypt and Ferrile Crescent (١٥١٦-١٩٢٢) (Great Britain , London : ١٩٦٦), p. ١٨.*

[٢] عن أعمال برقوق سواء على الصعيد السياسي أم العسكري أم الاقتصادي أم الاجتماعي . ينظر : م. م. الرمزي ، تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزل وبلغار وملوك التتار (المطبعة الكريمية الحسينية ، اونيدرغ : ١٩٧٩م) ، ٢/١٥٠ ؛ ضومط ، الدولة المملوكية ، ص ٨٣-١٥٣ ؛ احمد صادق سعد ، تأريخ مصر الاجتماعي و الاقتصادي (دار الغد – بيروت : ١٩٧٩م) ص٤٢٧ .

[٣] مبارك ، الخطط التوفيقية ، ١ / ١١٢ ؛ واستمر السلطان برقوق في الملك إلى ان مات عن عمر يناهز ثلاثاً وستين سنة ، وخلف من الاولاد وكذلك خلف في الخزائن الكثير من المال ، والكثير من الجمال والخيول والبغال ، وقيل : انه كان كثير البر والصدقات ، فكان يفرق كل سنة سبعة الاف اردب على الزوايا والمزارات حتى وصل الأمر إلى ان خطب باسمه في اماكن لم يخطب فيها لاحد من قبله ، فخطب باسمه في توريز من بلاد العجم ، وفي الموصل ، وفي ماردين ، وفي سنجار . ينظر: مبارك ، الخطط التوفيقية ، ١ / ١١٣ .

وبهذا الاجراء قامت دولة المماليك الجراكسة التي استمرت (١٣٨) سـنة ، شـهدت خلال هذه الحقبة الكثير من الأحداث السياسية والاقتصادية ، وعلى الرغم من ذلك حافظـت على كيانها السياسي ، ممّا جعل لها مكانة بين القوى المجاورة التي اخذت تحسب لها حـساباً كبيراً ، ولكن ما ان آلت تلك الدولة إلى الانهيار التدريجي ومن ثم سقوطها [١] ، قامت دولـة جديدة تدعى بالدولة العثمانية التي بدأ حكمها بمصر في سنة (٩٢٢هـ/١٥١٦م) [٢] .

[١] سنتطرق إلى أسباب انهيار وسقوط الدولة المملوكية الأولى في الفصل الرابع من الأطروحة .

[٢] *E. B. , " Egypt ", Vol. ٨, p. ٦٢.*

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

أولاً : نطاق البحث

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه اجمعين .

تُعَّد دولة المماليك الجراكسة من ابرز القوى الإسلامية بعد القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي والتي دام حكمها لمدة تزيد عن (١٣٤) سنة ، وتعاقب على حكمها ٢٣ سلطاناً ، وشغلت مكانة سياسية واقتصادية وثقافية وعلمية ، فعلى الصعيد السياسي والعسكري ، فقد تمكنت من التصدي للغزو المغولي (الغزو التيموري) والغزو البرتغالي ، اللذين هددا تجارتها ، فضلاً عن علاقتها مع الدولة العثمانية تباينت بين الودية تارةً والعدائية تارةً أخرى ، أما على الصعيد الاقتصادي فقد شهد تطوراً ملموساً ، وخاصة فيما يتعلق بعلاقاتها التجارية مع القوى المعاصرة ، ولاسيما ان التجارة كانت الأساس الذي قامت عليه منذ تأسيسها .

فمن المعروف ان طبيعة العلاقات بين الشرق والغرب قديمة منذ زمن بعيد ، ويظهر انها كانت متباينة بين العداء تارةً والسلم تارةً اخرى ، وبحسب ما تقتضيه الظروف سواء أكانت سياسية ام اقتصادية ام جغرافية ، لذا فقد كان لتلك العلاقات دورٌ كبيرٌ في اغناء الحضارة والتراث وتطورهما في مختلف العصور التأريخية .

لقد كان الهدف من الدراسة تسليط الضوء على حقبة مهمة من حقب التاريخ الإسلامي، التي تعد من الحقب الحرجة في نهاية العصور الوسطى وبداية العصر الحيث ، ولذلك فقد استلزم اختيار البحث منا وقتاً ليس بالقليل إلى ان تم التوصل إلى عنوان البحث باقتراح من استاذي المشرف الدكتور عبد المنعم رشاد ، وبفضل الله تعالى وما ابداه استاذي المشرف من ارشادات علمية واشارات سديدة تم تسجيل الاطروحة بعنوان (العلاقات

المصرية الأوربية في عصر المماليك الجراكسة ٧٨٤-٩٢٢هـ/١٣٨٢-١٥١٦م) دراسة سياسية اقتصادية .

وبعد حصر جوانب الموضوع والقراءة عنه تبين ان الموضوع لم يبحث في دراسة مستقلة اعتمد عليها ، علماً ان هناك دراسات عامة تتناول بعض جوانبه ، لكون الدراسة تناولت علاقات مصر مع القوى الاروبية في كل من عهد السلاطين الجراكسة، ومن جميع جوانبها السياسية والاقتصادية في آن واحد . ومما هو جدير بالذكر ان تحديد سنة (٩٢٢هـ/١٥١٦م) كان لاسباب منها انه كان التأريخ الفعلي لانهيار دولة المماليك الجراكسة بدلاً من سنة (٩٢٣هـ/ ١٥١٧م) ، وذلك لمشاركة السلطان قانصوة الغوري بنفسه في معركة مرج دابق التي حدثت في سنة (٩٢٢هـ/١٥١٦م) مع الدولة العثمانية ، وبذلك فقد زج السلطان الجركسي جميع قواته لمحاربة القوات العثمانية المتجهة إلى حلب ، إلا ان نتائج المعركة كانت عكسية على الدولة الجركسية ، ايجابة للدولة العثمانية ، إذ تمخض عنها مقتل السلطان قانصوة الغوري ، وتشتيت جميع قواته ، وبالمقابل سيطرة القوات العثمانية الكاملة على بلاد الشام متجهة نحو مصر للسيطرة على قلب الدولة المملوكية وهي مدينة القاهرة ، التي مثلت مركز الخلافة العباسية ، وبهذا أصبحت سنة (٩٢٢هـ/١٥١٦م) الحد الفاصل لسقوط الدولة الجركسية ، في حين كانت سنة (٩٢٣هـ/١٥١٧م) كانت سنة تصفية لجيوب المقومة الجركسية للاحتلال العثماني للبلاد .

ولابد من الاشارة إلى ان اعتماد الدراسة على المراجع الحديثة بشكل كبير فاق المصادر الاولية ، كان بسبب قلة المصادر التي تناولت الموضوع تفصيلياً ، ولم تدخل بشكل معمق في ادق التفاصيل للجوانب المهمة لها كالجانب التجاري مثلاً ، ناهيك عن عدم توفر المراجع الاجنبية المهمة بين أيدينا ، والتي تحتاجها الدراسة .

ولذلك بدأت عملية البحث وجمع ما تناثر من شذرات عن هذا الموضوع في كتب التاريخ فتحصل لدينا مادة جيدة ارتأينا توزيعها على تمهيد واربعة فصول : تضمن التمهيد : تبيين أهمية الموقع الجغرافي لمصر وتسميتها ، والكيفية التي أدَّت إلى مجيء المماليك الجراكسة إلى مصر وصولا إلى عهد السلطان برقوق مؤسس الدولة الجركسية .

أما الفصل الأول : فقد تناول العلاقات المصرية الصليبية في جزر حوض البحر المتوسط المتمثلة بجزرتي قبرص ورودس اللتين كانتا بحكم موقعهما الجغرافي التجاري يشكلان خطراً مباشراً على كيان الدولة الجركسية ، واختص الفصل الثاني : بالعلاقات المصرية مع القوى الأوربية المتمثلة بالممالك الاسبانية والايطالية ، فضلاً عن العلاقات المصرية الفرنسية آنذاك .

في حين تناول الثالث : العلاقات الاقتصادية المصرية الأوربية ، وعوامل ازدهار تجارة مصر الخارجية ، أما الفصل الرابع : فقد ركّزَ في دراسة أهم العوامل التي أدت إلى انهيار صرح الدولة المملوكية الجركسية التي دام حكمها زهاء القرن وربع القرن .

ثانياً : تحليل المصادر والمراجع

أ.المصادر الاولية

لقد كان الهدف من وراء هذه الدراسة هو إعطاء صورة حية للعلاقات المصرية الأوربية في عصر المماليك الجراكسة ابتداءاً من الربع الاخير من القرن الثامن الهجري إلى الربع الأول من القرن العاشر للهجرة / الربع الأخير من القرن الرابع عشر ــ مطلع القرن السادس عشر الميلادي ، وذلك ما دفعنا إلى الاعتماد على مجموعة مختلفة من المصادر اشتملت على كتب الجغرافية وكتب التراجم والسير والحوليات محاولين تسليط الضوء على اقرب الكتب وابعدها عن مسرح الأحداث على النحو الآتي :

١ــ كتب الجغرافيا

لقد افادت الدراسة مجموعة من كتب الجغرافية ، التي قدمت وصفاً للمواقع الجغرافية التي ورد ذكرها أثناء الدراسة ومن أهمها :

ــ المسالك والممالك : للاصطخري (ت:٣٥٠ هـ/ ٩٦١م) فقد قدم معلومات قيمة عن الموقع الجغرافي لمصر وحدودها وذكر مختلف المعلومات بما يخص المنطقة بمدنها وقُراها .

ـ صورة الارض : لآبن حوقل النصيبي (ت: ٣٦٧هـ/٩٧٧م) كتاب جغرافي ايـضاً ولا يقل أهمية عن كتاب المسالك والممالك من حيث بيان المعلومات الجغرافيـة العامـة عـن البلدان ولاسيما ما يخص مصر واقاليمها .

ـ معجم البلدان : لياقوت الحموي (ت : ٦٢٦هـ/١٢٢٩م) وكانت الفائدة منه تكمـن فـي قيمة التعاريف بمدن مصر وقراها وما حولها .

ـ نخبة الدهر في عجائب البر والبحر : لشمس الدين الانصاري (ت : ٧٢٨هـ/١٣٢٧م) وتكمن اهميته في كونه مصدراً اساسياً من مصادر التاريخ وجغرافية المنطقة .

ـ تقويم البلدان : للملك المؤيد المعروف بابي الفداء (ت : ٧٣٢هـ/١٣٣١م) فقد افدت منه في تحديد حدود مصر ومدنها وقراها من حيث انه يحدد المدينة أو القرية ، التي يذكرها ، ويورد كل المعلومات التي تخصها ، إلا انه لا يضيف جديداً لكونه مستقى مـن مـصادر جغرافية لعصره .

٢ـ المصنفات الادارية (الموسوعات والنظم)

ـ صُبح الاعشى في صناعة الانشا : لشهاب الدين القلقـشندي (ت : ٨٢١هـ/ ١٤١٨م) يفرد عدداً من أجزاء الكتاب ليبينَ أنماط الصيغ الرسمية ، وقرارات التعيين بحيث يعرض نماذج من الوثائق الأصلية ، ممّا يجعل الكتاب مصدراً اساسياً للتأريخ والادارة في العـالم الإسلامي ، وهذا ما افادني من حيث إعطاني معرفة عامة بالمناصب الادارية التي تولاهـا الأمراء الجراكسة .

ـ زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمـسالك : لغـرس الـدين بـن شـاهين الظـاهري (ت:٨٧٣هـ/١٤٦٨م) ، ومما هو معلوم ان ابن شاهين كان له اتصال بالسلطان الجركسي برسباي من جهة النسب ، فقد كان حموه السلطان ، ولقد افادت الدراسة من هذا الكتـاب ، ولاسيما المعلومات المتعلقة بفتح جزيرة قبرص في عهد السلطان برسباي ، وقد افادني في هذه المعلومات وصـحتها ، لكونه قد عاصرها ، ولقربه بالسلطان برسباي ومعرفته به كما اسلفنا .

ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار المعروف بالخطط المقريزية : لتقي الدين احمد بن علي المقريزي(ت : ٨٤٥هـ/١٤٤١م) ، وقد عُنيَ الكتاب عناية خاصة في الحديث عن نشأة المماليك الجراكسة ، وكذلك سيرة حياة السلاطين الجراكسة وفترة حكمهم وعلاقاتهم بالدول الأخرى .

٣ـ معاجم التراجم

ـ الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة : لآبن حجر العسقلاني (ت : ٨٥٣هـ/١٤٤٩م) تكلم صاحب الكتاب عن سير الأمراء والسلاطين وتراجمهم ، وتحتوي تراجمه على معلومات قيمة ولاسيما عن سلاطين الجراكسة .

ـ المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي : لآبن تغري بردي (ت : ٨٧٤هـ/١٤٧٠م) ، وهو تتمة لكتاب " الوافي بالوفيات " للصفدي ، وحفل هذا الكتاب بتراجم الاعيان من اعيان الدولة المملوكية الجركسية ، وتكمن أهمية المصدر لكون مؤلفه قريباً من دائرة الأحداث المعاصرة ، متصلاً احياناً بالحكام، وهذا ما جعله قريباً من اسرارهم وأخبارهم وخفايا الأحداث ، لذا فان أهمية مادته عن احداث تلك الحقبة التي عاشها بالذات عن السلاطين الجراكسة ، كانت دقيقة وذات قيمة افادت الدراسة .

٤ـ كتب السير والحوليات

ـ تأريخ بيروت : لصالح بن يحيى (ت : ٨٤٠هـ/١٤٣٦م) وهو من المؤرخين المعاصرين لسير الأحداث ، وكانت الافادة من هذا المصدر اعطائي معرفة بالاحداث السياسية للدولة الجركسية ، وخاصة في عهد السلطان برسباي وحملاته على جزيرة قبرص ، وكذلك اطلاعي على اعمال القرصنة التي كان يقوم بها القراصنة من القبارصة والكتلان على الموانئ الشامية والمصيرية .

ـ السلوك لمعرفة دول الملوك : لتقي الدين المقريزي (ت٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) وهو تأريخ للدولتين الايوبية والمملوكية ، لذا اتبع في هذا الكتاب طريقة الحوليات المدون كل عام في فصل مستقل تحت عنوان بآسم ذلك العام وفي نهاية الفصل يذكر الوفيات والترجمة

لاصحابها بشكل مختصر ، وعادة يفتتح السنة بذكر الوظائف الكبرى ومن عليها ، ويعد كتابه من اهم المصادر المهمة لعصر سلاطين المماليك الجراكسة من حيث رفدنا بالمعلومات القيمة والمتنوعة ، بما يخص الجانبين السياسي والاقتصادي .

ـ انباء الغمر بابناء العمر : لآبن حجر العسقلاني (ت : ٨٥٣هـ/١٤٤٩م) وهو ذيل لكتاب البداية والنهاية لآبن كثير ، وقد جمع المؤلف الحوادث من سنة (٧٧٣هـ/١٣٧١م) حتى سنة وفاته ذاكراً أبرز الحوادث التأريخية ، وقد افادني بمعلومات قيمة عن علاقات الدولة الجركسية بالدول الأوربية ، سواءً عدائية أكانت أم سلمية ، فضلاً عن تزويدي بمعلومات عن سير الأحداث في جزيرتي قبرص ورودس وعن الحملات التي ارسلها السلطان جقمق إلى جزيرة رودس ، ناهيك عن الاطلاع على طبيعة الجانب التجاري لمصر .

ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : لآبن تغري بردي (ت : ٨٧٤هـ/١٤٦٩م) الذي عاش احدى وستين سنة عاصر خلالها ستةَ عشرَ سلطاناً من سلاطين دولة المماليك الجراكسة ، لذلك توصف مادته بالغزارة لكونها مشتملة على موضوعات مختلفة منها ماهو سياسي ومنها ما هو اقتصادي ، وقد افادني هذا المصدر بمعلومات قيمة عززت جوانب كثيرة من البحث .

ـ نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الأزمان : للصيرفي (ت : ٩٠٠هـ/١٤٩٤م) ، وقد أشار هذا الكتاب إلى ما أشار إلى إليه كتاب النجوم الزاهرة ، فهو لا يقل أهمية عنه من حيث تزويدي بمعلومات غنية تخدم البحث ، وأعطائي المعلومات الوافية عن سير الأحداث للدولة الجركسية .

ـ التبر المسبوك في ذيل السلوك : للسخاوي (ت: ٩٠٢ هـ/١٤٩٧ م) والكتاب كما يظهر من أسمهِ تتمة لكتاب السلوك للمقريزي يبدأ بحوادث سنة (٨٤٥هـ/١٤٤١م) ، وينتهي بحوادث سنة (٨٥٧هـ/١٤٥٣م) ، وهو لا يقل اهميةً عن المصادر السابقة ، فقد ارفدني بمعلومات قيمة عن الجانب السياسي وأبرز الاحداث التي شهدتها تلك الحقبة .

ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور : لآبن اياس (ت : ٩٣٠هـ/١٥٢٤م) وهو سليل من اسرة من الجراكسة تولت العديد من مراكز القيادة ، يختلف هذا الكتاب عن الكتب الأخرى للتراجم في كونه قد قَسَّمَهُ على عهود مستقلة أي اورد تراجمه بايجاز عند وقوعها ، مخالفاً

أبن تغري بردي الذي جعل لها ترتيباً زمنياً مفصلاً ، والمقريزي الذي دونها عند اواخر السنين ، وتكمن أهمية هذا الكتاب في ان المؤلف يعد من المؤرخين الاولين الذين دونوا اخبار الفتح العثماني ، وآخر مؤرخ لمصر المملوكية ، وكانت افادتي من هذا الكتاب في إعطائي معلومات عن كيفية جمع الاموال التي تمتع بها السلاطين الجراكسة وصولاً إلى اتباع سياسة الاحتكار من لدن السلاطين لعدد من البضائع امثال التوابل والبخور ، فضلاً عن ذلك فانه اعطانا فكرة عن طبيعة العلاقات المتأزمة بين الجراكسة والعثمانيين ، التي كان حصيلتها انهيار الدولة الجركسية .

ب ـ المراجع العربية والمعربة

كما أفادت الدراسة من العديد من المراجع الحديثة منها ما هو عربي ومنها ما هو معرب ومن ابرز هذه المراجع ، كتاب (مصر في عصر المماليك الجراكسة) لابراهيم علي طرخان ، وكتاب (قيام دولة المماليك الثانية) لحكيم أمين عبد السيد ، ، وكتاب (الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري) لانطوان خليل ضومط ، وكتاب (المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري) لاحمد دراج ، فضلاً عن كتاب (طرق التجارة ومحطاتها بين الشرق والغرب) لنعيم زكي فهمي .

أما فيما يتعلق بالمراجع الاجنبية الحديثة ، فقد اعتمدت الدراسة على كتاب ***(Egypt in the Middle Agest)*** لـ ***Lane -Pool*** ، فضلا عن ذلك فقد اعتمد الباحث على عدد من الاطاريح الجامعية والبحوث والموسوعات العربية والاجنبية .

وفي الختام اتقدم بالشكر الجزيل والتقدير لأستاذي الفاضل الدكتور عبد المنعم رشاد على ادارة دراستي والمشرف على اعدادها ، لما أبداهُ من عناية حاذقة في كتاباتي الاولية ، وتوجيه مسار منهجي العام وارشادي إلى افضل الطرق سواء في تنظيم المتن أم في ترتيب الافكار ، كما اني اقدم من صميم قلبي الدعوات بالرحمة والغفران لأستاذي المشرف الأول الاستاذ الدكتور توفيق سلطان اليوزبكي الذي ، كان له دورٌ في إرشادي ومساعدتي في اختيار الموضوع جزاه الله عني خير جزاء وأسكنه فسيح جناته .

ولا يفوتني تقديم الشكر الجزيل لمنتسبي مكتبة الآداب والمكتبة المركزية في جامعة الموصل والمتحف والأوقاف والمكتبة العامة في محافظة نينوى لتسهيلهم توفير المصادر والمراجع والدراسات المعتمدة في الأطروحة ، ولمنتسبي شعبة الدراسات العليا في كلية الآداب لما بذلوه من جهد طوال مدة الدراسة ، وأخيراً فان الدراسة جهد أردت به ان ارفد المكتبة بعمل شخصي يخدم الحركة العلمية في بلدنا العزيز ، فان أحسنت فالحمد لله ، وان بانت هفواتي فلي فضل المحاولة ، ولله الحمد اولاً واخراً .

الباحث

فائز علي بخيت

الموصل في / /

التمهيد : الأوضاع السياسية في مصر وقيام دولة المماليك الجراكسة

الفصل الأول : علاقة مصر مع الصليبيين في جزر البحر المتوسط

أولاً : العلاقات المصرية ــ القبرصية (٧٨٥-٩٢٢هــ / ١٣٨٣-١٥١٦م)

ثانياً : العلاقات المصرية ــ الرودسية (٨٠٦ــ٩٢١هــ/١٤٠٣ــ١٥١٥م)

الفصل الثاني : العلاقات المصرية الأوربية

أولاً : علاقة مصر مع الممالك الاسبانية

١. العلاقات المصرية ــ الارغوانية (٨٢٨-٩٢٠هــ/١٤٢٤- ١٥١٤م)

٢.العلاقات المصرية ــ الكتالونية (٨١٨-٩٢٢هــ/١٤١٥-١٥١٦م)

٣.العلاقات المصرية ــ القشتالية

ثانياً : علاقة مصر مع الممالك الإيطالية

١.العلاقات المصرية ــ الجنوية (٧٨٥-٨٦١هــ/١٣٨٣-١٤٥٧م)

٢.العلاقات المصرية ــ البندقية (٨١٨- ٩٢٢هــ/١٤١٥-١٥١٦م)

ثالثاً : العلاقات المصرية ــ الفرنسية (٨٢٥-٩٢٢هــ/١٤٢١-١٥١٦م)

الفصل الثالث : العلاقات الاقتصادية المصرية الأوربية

أولاً : عوامل ازدهار تجارة مصر الخارجية في عصر المماليك الجراكسة

أ . الموقع الجغرافي

ب. سياسة الدولة

ج. المعاهدات والاتفاقيات التجارية

د. حماية الطرق التجارية

هــ. طرق التجارة بين الشرق والغرب

و . المراكز التجارية (الموانئ)

ثانياً العلاقات المصرية ــ الإيطالية (٧٨٧-٩٢٢هــ/ ١٣٨٦-١٥١٦م) .

أ: العلاقات المصرية ــ البندقية (٧٨٨-٩٢٢هـ/١٣٨٦-١٥١٦م)
ب : العلاقات المصرية ــ الجنوية (٧٨٧-٩٠١هـ/١٣٨٥-١٤٩٥م)
ج : العلاقات المصرية ــ الفلورنسية (٨٢٦-٩١٥هـ/١٤٢٢-١٥٠٩م)
ثالثاً : العلاقات المصرية ــ الكتالونية (٨٣٦-٩٠٨هـ/ ١٤٣٢-١٥٠٩م)
رابعاً : العلاقات المصرية ــ الفرنسية (٨٦١-٨٧٧هـ/١٤٥٦-١٤٧٢م)

الفصل الرابع : عوامل انهيار دولة المماليك الجراكسة
أولاً : ظهور البرتغاليين
ثانياً : قيام الدولة العثمانية وسياستها التوسعية
رابعاً : سياسة الدولة الاحتكارية

الفصل الأول : العلاقات السياسية المصرية مع الصليبيين في جزر البحر المتوسط

أولاً :العلاقات المصرية ــ القبرصية(٧٨٥-٩٢٢هـ/١٣٨٣-١٥١٦م)

ثانياً:العلاقات المصرية ــ الرودسية(٨٠٦ــ٩٢١هـ/١٤٠٣ــ١٥١٥م)

العلاقات السياسية المصرية مع الصليبيين في جزر البحر المتوسط

تعود بدايات الصراع بين المماليك والصليبيين في البلاد العربية إلى الحقبة الأخيرة من عصر الحروب الصليبية [١] التي سعت فيها القوى الغربية جاهدة للسيطرة عليها والاستحواذ على خيرات البلاد العربية عن طريق موانئ البحر المتوسط وموانئ بلاد الشام أو موانئ البحر الأحمر على الساحل المصري ، وقد ساعد ذلك الغزو عدة عوامل مختلفة منها اقتصادية ودينية وسياسية [٢] لذا فقد تعددت العلاقات المملوكية الأوربية ، بين ما هو سياسي ومنها ما هو تجاري لاسيما في حوض البحر المتوسط ، فلقد كانت دولة المماليك الجراكسة في تلك الحقبة من اكبر القوى والتي كان لها دورٌ كبيرٌ في السيطرة على أهم طرق التجارة بين الشرق والغرب ، فضلاً عن ذلك فقد كانت تشكل الدور الأساس في إنهاء الوجود الصليبي بالمنطقة في أواخر العصور الوسطى [٣] وعلى الرغم من ذلك فقد حرصت دولة المماليك الجراكسة على إبقاء علاقاتها مع القوى الأوربية ذات المصالح التجارية والسياسية في حوض البحر المتوسط .

وعلى الرغم من استمرار العلاقات العدائية بين دولة المماليك الجراكسة وجزر البحر المتوسط ، إلا أنها شهدت فترة من الهدوء والاستقرار النسبي وقد يعود ذلك إلى أسباب داخلية لكلا الجانبين وتولي سلاطين ضعفاء لا يمتلكون القدرة للقيام بأعمال عسكرية للحد من انتهاكات أعمال القرصنة ، لذلك تم التركيز في هذا الفصل على ابرز الجزر التي لها صلة وعلاقة مع دولة المماليك الجراكسة .

---

(١) لقد اتخذت الحروب الصليبية مسارين من حيث الامتداد الزمني ، الأول : شمل ما سبق القرن الحادي عشر الميلادي من أحداث وما تلى تحرير عكا سنة (٦٩٠هـ / ١٢٦١م) مّما أطلق على ذلك تسمية الحروب الصليبية المتأخرة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، والثاني : ينبع من ازدياد الاهتمام في الآونة الأخيرة بالمظاهر الحضارية لما لها من تأثير في توجيه الحملات الصليبية . للمزيد ينظر ، رينه كروسيه ، الحروب الصليبية صراع بين الشرق والغرب ، ترجمة : احمد أيبش (دار قتيبة _ دمشق : ٢٠٠٢م) ، ص ٧ .

(٢) للمزيد من التفاصيل عن تلك العوامل ينظر : كلود كاهن ، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ، ترجمة : احمد الشيخ (د. م ـــ القاهرة : ١٩٩٥م) ، ص ٣٦-٣٧.

(٣) عاشور،مصر والشام،ص٣٧٣-٣٧٤؛الحركة الصليبية(سجل العرب ــ القاهرة : ١٩٧١م) ، ١٠٥٥/٢ .

أولاً : العلاقات المصرية ـ القبرصية [1](٧٨٥-٩٢٢هـ / ١٣٨٣-١٥١٦م)

ومما هو معلوم ان حوض البحر المتوسط اشتمل على ثلاثة أقسام ، الأول منها جزر البحر المتوسط الشرقي ويشمل قبرص ورودس ، أما القسم الثاني فيسمى بالأوسط ويشمل صقلية وقوصرة ومالطة ، والقسم الأخير المعروف بالحوض الغربي يتكون من جزر البليار وسردينيا وقورسيقة [2] وعلى وَفْقِ التقسيم الثلاثي فأن القسم الأول سيكون موضوع بحثنا ولاسيما جزيرتا قبرص ورودس ، اللتان كانتا تشكلان ملجأً آمناً لبقاء الوجود الصليبي .

ان دراسة موقع جزيرة قبرص [3] يشغل مكانة هامة كونه يحدد مكان الجزيرة أستراتيجياً في تلك الحقبة ، ويعد الموقع من العوامل الطبيعية التي تؤثر في أهمية المنطقة ، وما يترتب على ذلك الموقع من نتائج سياسية واقتصادية وعسكرية ، وعلى الرغم من ان الموقع الجغرافي لأي مدينة ثابت لا يتبدل ، إلا ان الأهمية السياسية والاستراتيجية عرضة للتغير [4] وعلى هذا فان جزيرة قبرص تقع في الركن الشمالي من البحر المتوسط وهي لا تبعد كثيراً عن سواحل بلاد الشام ، وتعد ثالث جزيرة من حيث المساحة بعد جزيرتي صقلية

---

(١) تعد جزيرة قبرص من الجزر المهمة التي قام بفتحها العرب المسلمين في أوائل القرن الأول الهجري / السابع الميلادي في عهد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ الذي أرسل حملة بقيادة معاوية بن أبي سفيان إلى الجزيرة فتم فتحها . للمزيد ينظر : عز الدين أبو الحسن آبن الأثير ، الكامل في التأريخ (دار صادر ـ بيروت : ١٩٦٥م) ، ٣ / ٧٤ .

(٢) طرخان ، المسلمون في أوربا العصور الوسطى (سجل العرب ـ القاهرة : ١٩٦٦م) ، ص ٧٩ .

(٣) لقد كانت جزيرة قبرص محطة بحرية على طرق التجارة بين شرق البحر المتوسط وغربه ، فضلاً عن كونها ملجأً للتجار الذين قد يتعرضون إلى خطر مملوكي أو عثماني ، فضلاً عن ذلك كانت سوقاً لتجمع البضائع الشرقية التي تنقل إلى أوربا ، ومن ابرز موانئها ميناء فاماجوستا . ينظر : علية عبد السميع الجنزوري ، الحروب الصليبية(المقدسات السياسية) (الهيئة المصرية العامة للكتاب _ مصر : ١٩٩٩م) ،ص ٢٦٧ .

(٤) سعدي محمد علي كصبان ، العلاقات العربية البيزنطية في جزر شرق البحر المتوسط للفترة (٢٨-٣٥٥هـ / ٦٤٨-٩٦٥م) ، (رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب ـ جامعة الموصل : ٢٠٠٣) ، ص ١٢ .

وسردينيا [1] وتساوى جزيرة اقريطش من حيث المساحة [2] وبذلك الموقع فقد اكسبها أهمية سياسية وتجارية [3] ونظراً لتلك الأهمية فقد تنازعت عليها بالتناوب الدولة العربية الإسلامية تارة والدولة البيزنطية تارة أخرى [4] واستمر ذلك الأمر إلى ان نشأت الدولة الجركسية ، التي وقع على عاتقها تحرير الجزيرة بعد صراع طويل [5] .

قبل تناول العلاقات سواء كانت سلمية ام عدائية بين الجراكسة والصليبيين في جزيرة قبرص ، لابد من معرفة بدايات الاستيطان الصليبي في الجزيرة ، الذي يعود إلى زمن الحملة الصليبية الثالثة التي تم السيطرة فيها على الجزيرة بقيادة ريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا سنة (٥٨٧هـ / ١١٩١م) [6] لتصبح قاعدة للمد الصليبي من أجل السيطرة على الشرق [7] وبعد نجاح المماليك البحرية في عهد السلطان الاشرف خليل (٦٨٩-٦٩٣هـ/١٢٩٠-١٢٩٣م) من طرد الصليبيين من بلاد الشام وتدمير آخر معقل لهم في عكا سنة

---

[1] المسعودي ، مروج الذهب ، ١٣٥/٣ ؛ آبن حوقل ، صورة الارض ، ص ١٨٤ ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ٥ / ٣٠٥ .

[2] الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ٧١ .

[3] طه خضر عبيد ، قبرص بين العرب والبيزنطيين (٢٨-٣٥٥هـ / ٦٤٨-٩٦٥م) (مجلة اداب الرافدين ـ الموصل : ١٩٩٩م) ، ع ٣٢ ، ص ٧٦ .

[4] طرخان ، المسلمون في أوربا ، ص ٧٩-٨١ .

[5] عاشور ، الحركة الصليبية ، ١ / ٤٣٥ .

[6] لقد كانت جزيرة قبرص تحت السيطرة البيزنطية قبل دخول الصليبيين إليها . للمزيد ينظر : هانز ايرهارد ماير ، تأريخ الحروب الصليبية ، تحقيق : عماد الدين غانم (مطبعة ادنيار ـ ليبيا : ١٩٩٠م) ، ص ٣٤٥ .

[7] الخربووطلي ، الإسلام في حوض البحر المتوسط (دار العلم للملايين ـ بيروت : ١٩٧٠م) ، ص ١٥٠؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢ / ١٢٢٣ ؛ شلبي ، الموسوعة الاسلامية ، ٥ / ٢٠٨ ، ٢٠٩ ؛ حتى ، تأريخ العرب ، ٣ / ٨٢٤ ؛

Lane Pool , Egypt , p. ٢١٧.

(٦٩٠هـ / ١٢٩١م) [١] ونتيجة لما حصل لهم اتجهوا إلى ثلاث مناطق هي قليلقيا الواقعة في جنوب شرق الأناضول ، التي عرفت بمملكة أرمينية الصغرى آنذاك [٢] والى جزيرة قبرص اتجه آل لوزنيان ، أما إلى جزيرة رودس فقد اتجه إليها فرسان الاسبتارية [٣] ومكثوا فيها حتى منتصف القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، هذا بدوره شكّلَ خطراً مستمراً على الدولة الجركسية من الناحتين السياسية والاقتصادية [٤] وخاصة الجانب التجاري الذي يعد المورد الرئيس لدولتهم [٥] .

لم يكن تحرير عكا نهاية الوجود الصليبي في الأراضي العربية الإسلامية في أواخر القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، بل أخذ شكلاً آخراً من رموز المقاومة التي استمرت قرنين من الزمن الثامن والتاسع الهجريين / الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين [٦] ومن الجدير بالذكر ان جزيرة قبرص كانت متحالفة مع الصليبيين من اجل

---

[١] عبد العزيز سالم ، تأريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي حتى الفتح العثماني (دار المعارف ـ مصر : ١٩٦١م) ، ص ٧٥ .

[٢] فتحي سالم حميدي ، مملكة أرمينية الصغرى (رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب - جامعة الموصل : ٢٠٠٠م) ، ص ٢٠ .

[٣] هيئة الفرسان الاسبتارية *Kinghts , Hospitallr* : تعد هيئة الفرسان الاسبتارية من أقدم الهيئات الدينية الحربية التي شهد الوجود الصليبي في بلاد الشام قيامها ، ويعود الفضل في تأسيسها إلى مجموعة من تجار امالفي *Amalfi* ، وهي احدى المدن الرئيسة في منطقة غرب البحر المتوسط ، وتقع على بعد حوالي (٣٤كم) إلى جنوب غرب مقاطعة سالرنوه *Salerno* في ايطاليا ، وذلك عندما قامت في سنة ٤٧٣هـ/١٠٨٠م بانشاء مستشفى للعناية بالحجاج النصارى الأوربيين القادمين إلى الأراضي المقدسة . ينظر : محمد مؤنس عوض ، تأريخ الحروب الصليبية التنظيمات الدينية الحربية في مملكة بيت المقدس اللاتينية القرنيين ٦-٧هـ/١٢-١٣م (دار الشروق - عمان : ٢٠٠٥م) ، ص ٣١، ٦٣ ؛ كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ١٠٠ ؛

Stevenson , The Crusaders , p. ١٣٦.

[٤] يوشع براور ، عالم الصليبيين ، ترجمة : قاسم عبده قاسم وآخرون (مطبعة عين ـ الإسكندرية : ١٩٩٩م) ، ص ١٧٩ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢ / ١٢٣٢ .

[٥] *Lane – Pool , Egypt , . P .* ٣٣٦ .

[٦] براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٧٩ .

القضاء على كل مقاومة اسلامية تقف امام مصالحهم [1] ولتحقيق ذلك سعوا إلى محاربة مصر اقتصادياً من اجل قطع الشريان الحيوى المتمثل بالتجارة ، وحرمانها من اعظم مورد مالي كان لها [2] .

وعلى ما يبدو ان عمليات القرصنة التي يقوم بها القراصنة القبارصة ضد الموانئ المصرية لم تكن عمليات منفردة بهم ، بل شاركهم في أغلب الاحيان قوات أوربية أخرى متمثلة بالكتلانيين [3] والجنويين متخذين من جزيرة قبرص قاعدة لهم ، لتنفيذ أعمالهم العدائية بشكل مباشر ضد الموانئ المصرية ، ولذلك أُتهمت الدولة الجركسية القبارصة لقيامهم بالاعتداءات على الموانئ بحكم موقعها الجغرافي القريب من السواحل الشامية والمصرية [4] وهذا ما شجع سلاطين الجراكسة إلى اتخاذ إجراءات لازمة لوضع حد لتلك التجاوزات القبرصية ، التي كانت تثير القلق لدولتهم ، لذلك قررت القضاء عليهم من اجل تأمين مرور المراكب التجارية في البحر المتوسط [5] .

وبعد قيام دولة المماليك الجراكسة وتولي السلطان برقوق عرش السلطة خَيَّمَ الهدوء والاستقرار على العلاقات القبرصية الجركسية ، وتمخض عن ذلك نشاط سياسي مؤداه إرسال

---

[1] محمد كمال الدسوقي ، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية (دار الثقافة ، القاهرة : ١٩٧٦م) ، ص ٧٨ ؛ الجنزوري ، الحروب الصليبية ، ص ٢٦٣ ؛ سليم ، عصر سلاطين ، ٨ / ١٢١ .

[2] عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢ / ١٢٠٦-١٢٠٧ ؛ سالم ، تأريخ الاسكندرية ، ص ٧٥ ، واستناداً إلى القرارات البابوية التي قد حذرت فيها بمنع القبارصة من المتاجرة مع المسلمين ، فضلاً عن ذلك إن ملوك قبرص شجعوا التجارة بين جزيرتهم وموانئ آسيا الصغرى منذ بداية القرن السابع الهجري / الثالث الميلادي من اجل تحويل أنظار التجار الأوربيين عن موانئ مصر وبلاد الشام ، الدويهي ، تأريخ الازمنة ، ص ٢٠٢ .

[3] الكتلانيون : جنس من الفرنج يقتسمون مملكة المرا مع صاحب القسطنطينية ، التي تشمتمل على جزء من ساحل بحر الروم ، وتمتد بمحاذاة خليج القسطنطينية من جهة الغرب ينظر :

E. B. " Catalonia " Vol. ٥, p. ٥٩-٦٠.

[4] عمر عبد السلام تدمري ، تأريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور عصر دوله المماليك (المؤسسة العربية – بيروت : ١٩٨١م) ٢ / ١٦٦ ؛ العبادي ، تأريخ البحرية ، ص ٣٢٩ .

[5] طرخان ، مصر في عصر ، ص ٩٥ ؛ الجنزوري ، الحروب الصليبية ، ص ٢٧٦ .

ملك قبرص الهدايا إلى السلطان الجركسي وتهنئته بتولي السلطة في دولته الجديدة [1] مقابل ذلك رَحَّبَ السلطان الجركسي وأرسل مسؤول الأموال السلطانية محمود الدين بن الاستيادار [2] إلى قبرص لتوطيد العلاقة بين الجانبين ، فأثمر ذلك عن جلب معدن النحاس الأحمر [3] وعلى الرغم من كل ذلك التقارب الودي في العلاقات الجركسية القبرصية إلا ان هذه العلاقات لم يكتب لها ان تستمر ، وذلك لعدائية الاسلوب الذي اتبعه القراصنة القبارصة تجاه الدولة الجركسية ، فتارةً تعتمد الهجوم المباشر عند استقرار الجزيرة داخلياً ، وتارةً أخرى تعتمد اسلوب التهديد والمصادرة في حالة عدم تمكنها من القيام باعمال هجومية ضدهم وهو عندهم اضعف السبل الهجومية ويثبت ذلك تَعرض الدولة الجركسية [4] بعد عام من قيامها (٧٨٥هـ / ١٣٨٣م) لأعمال عدوانية من لدن القوات الصليبية في قبرص على سواحل مصر وبلاد الشام واستمر الحال حتى سنة (٨٢٧هـ / ١٤٢٣م) ، مّما ترتب على ذلك أمر سلبي طال الوضع الداخلي والاقتصادي للدولة الجراكسية [5] فقد استولى القبارصة سنة (٧٩٠هـ / ١٣٨٨م) على مركب تجاري تابع للدولة الجركسية قادم من ميناء طرابلس الشام باتجاه ميناء دمياط ، فكان يحمل عدداً من التجار ، فضلاً عن أخت السلطان برقوق وولده وآبن عمه ، ورداً على ذلك اصدر السلطان أمراً بإلقاء القبض على التجار

---

[1] الصيرفي ، نزهة النفوس ، ٢ / ٦٨ .

[2] الاستيادر : لفظ فارسي معناه وكيل الخراج أو المُؤن ، أما معناه في دولتي المماليك هو وظيفة من وظائف أرباب السيوف ، والاستيادارية وموضوعها التحدث في امر بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب خاناه . ينظر : القلقشندي ، صبح الاعشى ، ٤ / ٢١ .

[3] المقريزي ، إغاثة الامة ، ص ٧١ .

[4] لم تكن الاعتداءات القبرصية هي الأولى على الدولة الجركسية بل سبق ذلك اعتداء على دولة المماليك البحرية ، وتم عقد معاهدة بينهما سنة (٧٧٢هـ / ١٣٧٠م) لكن القبارصة لم يلتزموا بذلك ، للمزيد من التفاصيل ينظر : تدمري ، تأريخ طرابلس ، ٢ / ١٦٦ ؛ احمد دراج ، المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري ــ الخامس عشر الميلادي (دار الفكر العربي ــ القاهرة : ١٩٦١م) ، ص ٢٢ .

[5] المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق : سعيد عبد الفتاح عاشور (مطبعة دار الكتب – مصر : ١٩٧٠م) ، ج٣ ، ق٢ / ٤٨٧–٤٨٨ ، ينظر : الزهيري ، العثمانيون في السياسة ، ص ٧١ .

الأوربيين كافة المتواجدين في الموانئ الجركسية نتيجة لذلك الاعتداء [1] .

لقد اتضح من خلال سير الأحداث بان العلاقة القبرصية الجركسية كانت تتأرجح بين العداء والسلم ، إلاّ أن الطابع الحربي غلب على تلك العلاقة ، ومن الجدير بالـذكر أن تلـك الأعمال العدوانية لم تكن بشكل مستمر بل كانت تتخذ طابع الهدوء حسب التطورات السياسية للدولة الجركسية ، لأنها كانت بحاجة إلى الاستقرار وهي في بداية قيامهـا ، لـذلك كانـت حريصة في علاقتها مع قبرص .

وبعد وفاة السلطان برقوق وتعيين ابنة الناصر فـرج (٨٠١-٨١٥هـ / ١٣٩٨-١٤١٢م) [2] سلطاناً على مصر ، اتخذت العلاقة القبرصية الجركسية طابعاً سلمياً ، ففي سنة (٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) أرسل ملك قبرص حنـا الثـاني آل لوزنيـان (٨٠١-٨٣٦هـ / ١٣٩٨-١٤٣٢م) وزيره إبراهيم كُرّي وملك الماغوصة [3] يحملان رسالة إلـى الـسلطان الجركسي ، مضمونها بان يسمح لهم بتجهيز المراكب لقتال تيمورلنك [4] وتوثيقاً للعلاقة بينهما

---

[1] آبن الفرات ، تأريخ آبن الفرات ، ج٩ ، ق ١ / ٣٣ ؛ آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، تحقيق : جمال محمد محرز واخر (الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر – مصر : ١٩٧١م) ، ١٤ / ٢٦٦ ؛ غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري ، زبده كشف الممالك وبيـان الطـرق والمسالك ، تحقيق: بولس راميس (د . م ــ باريس : ١٨٩٣م) ، ص ١٣٨ .

[2] لقد اتصف عهد السلطان فرج بعدم الاستقرار فقد كانت مدة حكمه منقسمة إلى مـرحلتين الأولـى سـنة (٨٠١-٨٠٨هـ/ ١٣٩٨-١٤٠٥م) خُلِعَ بعدها وعُيِّنَ شقيقه عبد العزيز لمدة شهرين ، أما المرحلة الثانية فكانت سبع سنوات . للمزيد من التفاصيل عن سيرته وسياسته الداخلية ينظر : المقريزي ، السلوك ، ج٣ / ق٣ / ٩٥٩ ؛ آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، تحقيق : فهيم محمد شلتوت (الهيئة المصرية العامة للتاليف والترجمة والنشر – مصر : ١٩٧٠م) ، ١٣ / ٢٠ ، ١٥٤ ؛ الـشرقاوي ، تحفة الناظرين ، ص٤١ ؛ العليمي ، الأنس الجليل ، ص ٩٥ ؛ صامويل برنار ، وصف مـصر الحيـاة الاقتصادية في القرن الثامن عشر الموازين والنقود ، ترجمة : زهير الشايب (مكتبة مدبولي ــ مـصر : ١٩٨٠) ، ص ٦٥-٦٦ .

[3] الماغوصة : آسم أطلقه العرب المسلمون على مدينة فاماجوستا الواقعة على الشاطئ الـشرقي لجزيـرة قبرص . ينظر : المقريزي ، السلوك ، ج٣ / ق٣ / ١٠٣٩ .

[4] المقريزي ، السلوك ، ج٢ / ٣ / ١٠٣٩ ؛ آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٢ / ٢٣٤ .

أقرت السلطة الجركسية السماح للمسيحيين الغربيين بزيارة كنسية القيامة [١] مقابل ذلك ان يدفع حاكم الجزيرة تعويضات كاملة عن كل ما حصل من تدمير للموانئ المصرية والشامية ثم أن تدفعَ مبلغاً من المال سنوياً لها ، واستمر ذلك الاتفاق حتى سنة (٨٠٦هـ / ١٤٠٣م) [٢] علماً ان العلاقة المصرية القبرصية اتخذت مساراً ودياً على الرغم من العداء الذي كان بينهما بسبب الخطر التيموري القادم من الشرق والذي كان يهدد المنطقة ، فضلاً عن ذلك فقد تعرضت جزيرة قبرص لاعتداء خارجي من قبل الجنوبيين واستيلائهم على مدينة الماغوصة ، وهذا ما دعاهم إلى عقد تحالف جركسي قبرصي ضد الغزو التيموري والخطر الجنوي [٣] ، وبناءاً على ما تم الاتفاق عليه من تعويضات وفرض جزية والتحالف الذي بينهما ، إلاّ ان الجانب القبرصي لم ينفذ ذلك الاتفاق بسبب توقف الخطر التيموري وتفكك دولته الأمر الذي أعطى القبارصة فرصة لتجديد الروح العدائية [٤] ضد الدولة الجركسية ، فقاموا بهجوم على الموانئ المصرية سنة (٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) ورداً على ذلك تم حجز التجار والقناصل الاوربيين كافة في ميناء الإسكندرية [٥] ونتيجة لتأزم الموقف بينهما

---

[١] كنيسة القيامة : تُعَدّ من أشهر الكنائس وجوداً ، لقد بنتها الملكة هيلانة أُم الإمبراطور قسطنطين ، ويعد أول إمبراطور أمر بنشر المسيحية وجعلها ديناً رسمياً لبلاده . للمزيد ينظر : آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٧ / ١٦٢ .

[٢] *Lane – Pool , Egypt , . P . ٣٣٦ .*

[٣] آبن يحيى ، تأريخ بيروت ، ص ٥٥ ؛

Wlter Fischel , J . , Ibn Khaldon In Egypt (United States Of America – California : ١٩٦٧), part. I , p. ٤٣-٤٤ .

[٤] لقد قام القبارصة بالاعتداء على الموانئ المصرية سنة (٦٩٢هـ / ١٢٩٢م) حيث اشترك معهم مجموعة من الروادسة والأوربيين بقيادة هنري الثاني ملك قبرص ، وفي سنة (٧٦٧هـ / ١٣٦٥م) تعرض ميناء الإسكندرية إلى اعتداء آخر من قبلهم أسفر عن تدميره وإحراقه . للمزيد من التفاصيل ينظر : المقريزي ، السلوك ، ج٣ / ق١ / ٤١٣-٤٣٢ .

[٥] المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق١ / ٣٢٥ ، ج٤ / ق٢ / ٦١٧ ؛ تدمري ، تأريخ طرابلس ، ٢ / ١٦٦ .

فقد شجع ذلك القبارصة عن طلب المساعدة من الحبشة [١] والقوى الأوربية بهدف توحيد الجهود والقضاء على الدولة الجركسية [٢] . وعلى ما يبدو ان طلبهم لم يقبل فبقيت العلاقة متباينة بين العدائية تارة والسلمية تارة أخرى .

وبعد التوتر الساخن في العلاقات المصرية القبرصية في عهد السلطان الناصر فرج إلا ان عهد السلطان الشيخ المحمودي (٨١٥-٨٢٤هـ / ١٤١٢-١٤٢١م) [٣] اتسمت العلاقات بالودية متمثلة بالتبادل الدبلوماسي بينهما ، فقد أرسل السلطان الجركسي مبعوثه اقبغا النظامي سنة (٨١٨هـ / ١٤١٥م) إلى حاكم جزيرة قبرص للتفاوض معه في مسألة إطلاق سراح عدد من المسلمين الذين تم أسرهم في الغزوات القبرصية السابقة ، واستمراراً للتفاوض وما تم الاتفاق عليه فقد أرسل المبعوث الجركسي إلى سلطان مصر يعلمه بما نتج عن المفاوضات ، فيذكر ابن حجر العسقلاني قائلاً ((**فانه وجد هنالك (المبعوث) خمسمائة أسير فافتداهم بثلاثة عشر ألف دينار ، وانه أوصل للفرنج المبلغ الذي كان جهز معه وهو عشرة آلاف دينار ، وسمح له متملك قبرص بالباقي ، وحمل منهم (الأسرى) إلى جهة مصر مائتي أسير وفرّق الباقي في سواحل الشام**)) [٤] وتعزيزاً للعلاقات الودية حاولت الدولة الجركسية ان تدعم تلك المفاوضات ببعض المقترحات لتضمن السلامة لموانئها من الخطر القبرصي ، لكونها لا تملك القوة البحرية الكافية للتصدي لأي اعتداء من قبلهم ، لذلك

---

[١] تعود بدايات العلاقة المصرية الحبشية إلى بداية العصور الوسطى وكانت ذات طابع ديني بعد أن تأكدت الكنيسة الحبشية بتبعيتها للكنسية المصرية ، وقد استمر في العلاقة الودية حتى عهد الدولة الجركسية . للمزيد من التفاصيل ينظر : عاشور ، قبرص والحروب الصليبية (مكتبة النهضة المصرية -القاهرة : ١٩٥٧م) ص ٣٥٢-٣٥٨ .

[٢] عاشور ، بحوث ودراسات في تأريخ العصور الوسطى (دار الأحد ــ بيروت : ١٩٧٥م) ، ص ٣١٤ .

[٣] أبو النصر الشيخ المحمودي ، يعد السلطان الثامن والعشرين من ملوك الترك ، والرابع من ملوك الجراكسة ، اصله من طائفة يقال (لا ملوك) من أشراف الجراكسة ، حيث جلب إلى مصر واصبح مملوكاً عند السلطان برقوف ، للمزيد ينظر : المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق١ / ٢٤٥-٢٥٥ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٤ / ١ ؛ الصيرفي ، نزهة النفوس ، ٢ / ٨٨ ؛ الدباغ ، الموجز في تاريخ ، ص ١٢٧-١٢٩ .

[٤] أنباء الغمر ، ٣ / ٥٣ .

فقد اقترحت بان تتعهد قبرص بعدم السماح للقراصنة من سائر الدول الذين يكيدون العداء للدولة الجركسية في الدخول إلى جزيرتهم أو تقديم أية مساعدة عسكرية للقوى الأوربية الأخرى لغرض القيام بالاعمال ذاتها ، وان تمنع رعاياها من شراء البضائع من القراصنة ، وعدم الاستيلاء على المراكب التجارية المتوجهة إلى الموانئ المصرية والشامية أثناء تجارتها في البحر المتوسط [١] .

وعلى الرغم من كل ذلك فقد شهدت العلاقات المصرية القبرصية نوعاً من الفتور بينهما ، لان قبرص لم تكن مستقرة داخلياً آنذاك ، فضلاً عما أصاب الجزيرة من ظروف صعبة كالكوارث الطبيعية والأوبئة [٢] وكل هذا كان له تأثير في أضعاف قوة الجزيرة سياسياً وعسكرياً [٣] لكن على الرغم من المعاناة التي كانت تعانيها جزيرة قبرص ، فقد قام القبارصة بالاستيلاء على مركب تجاري في ميناء الإسكندرية سنة (٨٢٥هـ / ١٤٢٢م) والذي كان يحمل عدداً من الرجال ومبلغاً من المال يقدر بحوالي مئة ألف دينار[٤] واستمراراً للأعمال العدوانية ففي سنة (٨٢٦هـ/١٤٢٢م) قام القبارصة وبالاشتراك مع مجموعة من القراصنة البسقاوية [٥] والجنوية والكتلانية [٦] بالهجوم على مركبين بالقرب من ميناء دمياط يحمل بضائع وعدد من التجار فتم الاستيلاء عليهما [٧] وتمادى

---

[١] المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق١ / ٣٢٥ ، ج٤ / ق٢ / ٦١٧ .

[٢] لقد تعرضت جزيرة قبرص إلى الوباء مرات عدة في سنوات متقاربة ، أولها كان سنة (٧٩٥هـ / ١٣٩٢م) والذي استمر لمدة سنة كاملة ، ممّا أدى إلى موت أناس كثيرين ، وثانيها كان سنة (٨١٢هـ / ١٤٠٩م) والذي بقى لمدة ثلاث سنوات وثالثها حدث سنة (٨٢٣هـ / ١٤٢٠م) وانتهى في السنة ذاتها ، للمزيد . ينظر : عاشور ، قبرص والحروب ، ص ٨٦ .

[٣] عاشور ، قبرص والحروب ، ص ٨٦ .

[٤] المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٦١٧ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٤ / ٢٤٩-٢٥٠ .

[٥] البسقاوية : شعب مجهول الاصل يسكنون مناطق البرانس (البيرينية) في شمال غرب اسبانيا ، والبسقاوية نسبة إلى إقليم الباسك . ينظر : منير البعلبكي ، المورد ، ط ٣٨ (دار العلم لملايين - بيروت : ٢٠٠٤م) ، ص ٩١ ؛

E.B. " BasQue " Vol. ٣, p. ٢٥١.

[٦] تدمري ، تأريخ طرابلس ، ص ١٦٦ .

[٧] ابن يحيى ، تأريخ بيروت ، ص ٢١٩-٢٢٠ ؛ المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٦٦٥ ؛

E.B. " BasQue " Vol. ٣, p. ٢٥١.

القبارصة اكثر من ذلك ، فاستولوا على مركب محمل بالهدايا أرسله السلطان الجركسي برسباي (٨٢٥-٨٤٢هـ / ١٤٢٢-١٤٣٨م) [١] إلى السلطان العثماني مراد الثاني (٨٢٤-٨٥٥هـ/١٤٢١-١٤١٥م) [٢] ، فضلاً عن ذلك نقضهم للمعاهدة المعقودة منذ سنة (٨١٧هـ / ١٤١٤م) [٣] إزاء كل ذلك لم ترد الدولة الجركسية هجومياً بل استخدمت أسلوب المصادرة والتهديد ، إذ أمر السلطان الجركسي بحجز أموال جميع التجار الأوربيين المقيمين بالموانئ المصرية والشامية واخراجهم منها [٤] إلا أن فكرة الرد على تلك الاعتداءات من قبل سلاطين الجراكسة منذ قيام دولتهم لم تكن بعيدة عن أذهانهم لكن انشغالهم بخطر أهم وهو الغزو التيموري الذي كان يهدد المنطقة بأكملها ، ناهيك عن انشغالهم بتثبيت أركان الدولة مّما جعلهم يتخذون موقف الدفاع بدلاً من الهجوم في أغلب الأحيان ، وهذا ما جعل ملك قبرص يتمادى في القيام بأعمال عدوانية مستمرة وذلك الأمر حدا بالسلطان برسباي أن يتخذ قراراً بالهجوم بدلاً من الدفاع معالجة للأمر [٥] فضلاً عن حادثة الإسكندرية التي كان لها الأثر النفسي على سلاطين الجراكسة [٦] علماً أن الرد على الحادثة لم يحصل إلا بعد ستين سنة من تأريخ الاعتداء [٧] .

---

[١] جركسي الجنس جلب من بلاد الجركس ثم اعتقه السلطان برقوق ، وقد تدرج في المناصب حتى اصبح سلطاناً في البلاد المصرية ، إذ انه يعد السلطان الثاني والثلاثين من ملوك الترك والثامن من سلاطين الجراكسة ، للمزيد عن حياته ، ينظر : شرف الدين يحيى آبن القر بن الجيعان ، التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية (مكتبة الكليات الأزهرية ــ مصر : ١٩٧٤م) ، ص ١١،٦٦ ؛ آبن العماد ، شذرات الذهب ، ٧ / ٢٣٨ .

[٢] آبن شاهين ، زبدة كشف ، ص ١٣٨ ؛ سعاد ماهر ، البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية (دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ــ د . ت : ١٩٦٧م) ، ص ١٢١ ؛ مؤلف مجهول ، " قبرص في ظل الإسلام " منشور على شبكة الانترنيت

WWW . tarbawi . Com / Printartical , p. ٥-٧ .

[٣] آبن شاهين ، زبدة كشف ، ص ١٣٨ ؛ العبادي ، تأريخ البحرية ، ص ٣٣٧ .

[٤] المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٩٦٦ .

[٥] الزهيري ، العثمانيون في السياسة ، ص ٧٢-٧٣ .

[٦] ماهر ، البحرية في مصر ، ص ١٢١ ؛ العبادي ، تأريخ البحرية ، ص ٣٢٩ .

[٧] العبادي ، تاريخ البحرية ، ص ٣٢٩ .

وبعد استقرار الوضع الداخلي للدولة الجركسية انصرف السلطان برسباي إلى الاهتمام بالسياسة الخارجية من اجل ايقاف تلك التهديدات التي كانت تعانيها دولته من قبل القبارصة ، ومن ابرز الأحداث الخارجية التي ساعدت السلطان الجركسي بصد الهجمات القبرصية المتكررة ، هو انهيار دولة تيمورلنك القوية بوفاته سنة (٨٠٨هـ/١٤٠٥م) ، والتي كانت تشكل خطراً مباشراً على دولته ، لذا لم يبقَ امام دولته سوى القبارصة [١] الذين كانوا يشكلون خطراً للدولة الجركسية منذ قيامها [٢] عندئذٍ بدأ الاستعداد والتهيؤ لقمع ذلك الخطر فقد أمر السلطان برسباي بتجهيز المراكب [٣] والزم كل أمير [٤] أن يعد عشرة من جنوده استعداداً لهذا الأمر ، وكانت الخطوة الأولى هي إرسال عددٍ من الجند إلى ثغري الإسكندرية ودمياط ، لغرض التمهيد للحملة العسكرية ، فضلاً عن اتخاذ الاستعدادات اللازمة من احتمال قيام القبارصة بالهجوم المباشر على السواحل المصرية [٥] وهذا ما اشار إليه آبن تغري بردي قائلاً ((**وفي هذه الأيام كَثُرت الأخبار بحركة الفرنج فخرج عدَّة من الأمراء والمماليك لحراسة الثَّغور**)) [٦] يتبين من النص أن الدولة الجركسية كانت حريصة على وصول المعلومات الكاملة إليها عن تحركات القوات المعادية ضد دولتهم ، ناهيك عن أن فتح جزيرة قبرص لم يتم إلا بثلاث حملات بحرية [٧] خلال ثلاث سنوات متتالية ، إذ كانت الحملة الأولى سنة (٨٢٧هـ / ١٤٢٤م) فتم تجهيز مركبين أحدهما من الإسكندرية والآخر

---

[١] شاكر ، التأريخ الإسلامي ، ٧ / ٧٨ .

[٢] مبارك ، الخطط التوفيقية ، ١ / ١٢٠ ؛ الدباغ ، الموجز في تأريخ ، ص ١٣٠ ؛ نهايم ، مادة (برسباي)، ٧ / ٥٣-٥٤ .

[٣] لقد كان هنالك نوعان من المراكب هما : الطرائد والاغربه ، وهما عبارة عن سفن صغيرة وسريعة السير ، آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٤ / ٢٧٥ .

[٤] أن من ابرز الأمراء الذين تم إرسالهم هو اقبغا التمرازي أمير مجلس ، آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٤ / ٢٥٥ .

[٥]آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٤ / ٢٧٥ .

[٦]آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٤ / ٢٧٣ .

[٧] عن سير الحملات الثلاث ينظر الشكل (٣) .

من دمياط بالأسلحة والجنود يقدر عددهم بثمانين مقاتلاً ، فتحركت الحملة من ساحل بولاق حتى وصلت مدينة الماغوصة فاستقبلهم حاكمها فدخلوها دون أي مقاومة تذكر ، وهذا ما شجع القوة البحرية الجركسية في سيرها قدُماً للوصول إلى ميناء ليماسول ***Limassol*** (١) وفي أثناء ذلك التقت الحملة بمركب قبرصي محمل بالبضائع ، فتم السيطرة عليه دون مقاومة عسكرية (٢) وبناءاً على تلك الانتصارات التي حققتها الحملة الجركسية ، وعلى الرغم من انها كانت حملة بسيطة التكوين من عدد وعدة ، إلا أن تأثيرها المعنوي كان كبيراُ ، لذلك اتخذ القبارصة إجراءات أمنية تقضي بإخراج سكان ميناء ليماسول من اجل الحفاظ على أرواحهم من احتمالية سيطرة القوات البحرية الجركسية على الميناء هذا من ناحية (٣) ، أما من ناحية الجانب العسكري فقد أمر الملك جانوس حاكم الجزيرة بالاستعداد براً وبحراً (٤) فتم تجهيز قوة عسكرية مؤلفة من ثلاثة مراكب تحمل ثلاثمئة وسبعين مقاتلاً بقيادة فيليب بكوني حاكم الميناء وبذلك تمكنت البحرية الجركسية من القضاء على تلك المراكب القبرصية وقتل من كان فيها (٥) .

بعد التقديم الكبير الذي أحرزته القوات البحرية الجركسية استطاعت السيطرة على جزء من ميناء ليماسول والقضاء على الحامية العسكرية التي كانت بقيادة حاكم الميناء الذي تمكن من الهرب (٦) أما بخصوص ما يعود للجزء المتبقي من الميناء ، والذي على ما

---

(١) ليماسول : وهو أحد موانئ قبرص على الشاطئ الجنوبي ، ويقع على مسافة (٨٥كم) جنوب غرب نيقوسيا ، ويعد احد موانئ قبرص التجارية المهمة . ينظر :

E.B. " Limassol ", Vol. ١٤, p. ٣١-٣٢.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٦٧١-٦٧٢ ؛ آبن حجر العسقلاني ، أبناء الغمر ، ٣ / ٣٣٠ ؛ آبن شاهين ، زبده كشف ، ص ١٣٨ .

(٣) المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٦٧٢ .

(٤) آبن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٣ / ٣٤٦ .

(٥) المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٦٧٢ ؛ ابن حجر العسقلاني ، أبناء الغمر ، ٣ / ٣٤٦ .

(٦) آبن يحيى ، تأريخ بيروت ، ص ٢٢٠ ؛ آبن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٣ / ٣٤٦ .

يبدو انه كان شديد المقاومة ، ويحتاج إلى وقت طويل للسيطرة عليه [١] فان القوات الجركسية اكتفت بما احرزته من استيلائها على عدد كبير من الغنائم ، وبعدها انسحبت الحملة من الميناء بعد اضرام النيران في عدة جهات منه [٢] وعادت إلى مصر ، وفي أثناء انسحابها التقت بمركبين قادمين من جور هيجورس الساحلية التابعة لمملكة ارمينية الصغرى واشعلت النار في أحدهما وسيطرت على المركب الآخر [٣] ويلاحظ ان الحصيلة النهائية لتلك الحملة كان إنذاراً أولياً لحاكم قبرص لتوقفه على حقيقة امكانية الدولة الجركسية بالقيام بحملة أخرى وانها قادرة على الدخول إلى الجزيرة وقت ما تشاء ، ومن ناحية أخرى فأنها أعطت انطباعاً للسلطان برسباي عن ضعف مقاومة قوات جزيرة قبرص ، بدليل أن الحملة تمكنت من السيطرة على عدد كبير من الغنائم وتدمير وحرق عدد أكبر من المراكب القبرصية هذا من جانب ، ومن جانب آخر أثبتت مدى القوة التي تمتلكها البحرية العسكرية الجركسية ، فضلاً عن كشفها للتعاون المشترك بينها وبين القوة الأوربية الأخرى الذين كانوا يسعون من اجل الوصول إلى مطلب واحد هو القضاء على القوة المتواجدة في المنطقة المتمثلة بالدولة الجركسية ، كما ان الحملة اشبه ما تكون بحملة استكشافية اوقعت المسؤولية على جزيرة قبرص في قيامها بالاعتداءات المستمرة على الموانئ التابعة للدولة الجركسية ، وبهذا عادت الحملة إلى مصر سنة (٨٢٨هـ / ١٤٢٤م) والتي أطلق عليها آسم (الغزوة الصغرى) [٤] .

ونتجة لما حققته الحملة الأولى [٥] من نجاح شجع السلطان برسباي على القيام بتجهيز حملة ثانية بعد سنة من تلك الحملة أي في سنة (٨٢٨هـ/١٤٢٥م) ، لغرض عدم إعطاء

---

[١] آبن يحيى ، تأريخ بيروت ، ص ٢٢٠ .

[٢] المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٦٩٥ ؛ آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٤ /٢٧٩ .

[٣] عاشور ، قبرص والحروب ، ص ٩١ .

[٤] العبادي ، تأريخ البحرية ، ص ٣٣٠ ؛ عبد المنعم ماجد ، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى (مكتبة الجامعة العربية ــ بيروت : ١٩٦٦م) ، ص ٢١٠ .

[٥] يذكر المقريزي ان الحملة حققت نتائج طيبة منها ((قتل فارس وعدة رجال ، وحرق ثلاثة أغربة ، وإغرق ثلاثة اغربة ، وعاثوا فيما وجدوه من ظروف العسل والسمن وغير ذلك ، واسروا ثلاثة وعشرين رجلاً وغنموا جوخاً كثيراً ، رفع للسلطان منه مئة وثلاث قطع ...)) . السلوك ، ج٤ / ق ٢ / ٦٧٢ .

القبارصة فرصة كافية لاعادة تنظيم قواتهم أو احتمال وصول مساعدات مادية إلى الجزيرة ، ولهذا حرص السلطان على زيارة دار صناعة المراكب ببولاق يومياً والاشراف المباشر على سير العمل فيه [١] علماً أن عدد المراكب فيه كان أربعين مركباً خصص من أجل التوجه إلى قبرص [٢] .

وقد اتخذت الدولة الجركسية مبدأ التعاون المشترك بينها وبين الدويلات العربية الإسلامية أساساً في سياستها الخارجية لغرض توحيد الجهود ومقاومة الأعداء القراصنة ، وبناءاً على تلك السياسة أرسل سلطان تونس عدداً من المراكب إلى الدولة الجركسية لغرض اشتراكها في الحملة العسكرية ضد قبرص [٣] وممًا زاد من حماسة السلطان لفتح جزيرة قبرص هو استمرار اعتداءات القبارصة على الموانئ المصرية ، فقد هاجمت أربعة مراكب قبرصية مركباً عائداً للدولة الجركسية كان يسير بالقرب من اللاذقية يحمل مجاذيف مرسلة إلى مصر ، فتم الاستيلاء عليه وقتل ملاحيه واشعال النار فيه [٤] .

لقد استعدت الدولة الجركسية لإرسال حملة عسكرية ثانية وذلك سنة (٨٢٨هـ / ١٤٢٥م) فجهزت بالمراكب والرجال وعُيِّنَ عليها الأمير جرباش الكريمي ، إلا أنها كانت أكبر قوة وعدداً من الحملة الأولى [٥] ، ويذكر ابن تغري بردي عن استعداد الدولة لتلك الحملة ودعمها مادياً ومعنوياً قائلاً : ((**ثم نودي : من أراد الجهاد فليحضر لاخذ النفقة ، وقام السلطان في الجهاد أتم قيام ، وقد شرح الله صدرَهُ له**)) [٦] وبالمقابل بدأت السلطة الحاكمة في قبرص بتجميع قواتها العسكرية ، والاستعداد للبدء بالهجوم على الموانئ التابعة للدولة

---

[١] المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٦٩٤ ؛ ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٣ / ٣٤٢ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٤ / ٢٧٦ .

[٢] *Lane – pool , Egypt . P .* ٣٣٦.

[٣] ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٣ / ٣٠٣ ؛ العبادي ، تأريخ البحرية ، ص ٣٣١ .

[٤] المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٦٨٩.

[٥] المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٦٩٠ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٤ / ٢٧٥ ؛ طرخان ، مصر في عصر ، ص ١٠٠ ؛ الخربوطلي ، الإسلام في حوض ، ص ١١٥ .

[٦] النجوم الزاهرة ، ١٤ / ٢٧٦ .

الجركسية [1] وبالفعل أرسل جانوس حاكم قبرص مركبين إلى ميناء صور لغرض القرصنة ، إلا أن تلك المحاولة باءت بالفشل نتيجةً للمقاومة التي واجهتها القوات الغازية من أهل الميناء، ممّا أدى إلى انسحاب الحملة والعودة إلى قبرص ، ومن ثم عاود ملك قبرص الهجـوم علـى الموانئ المصرية ، لكن المراقبة الشديدة لتحركات القراصنة من قبل البحرية الجركسية والتي استطاعت افشال ذلك الهجوم والسيطرة على بعض من المراكب ، اما البقية الأخـرى مـن المراكب فقد تمكنت من الهرب [2] ولكثرة الاعتداءات المتواصلة على الموانئ المصرية أرسل السلطان الجركسي قوه عسكرية لحراسة الموانئ في طرابلس وبيروت والإسكندرية حفاظـاً عليها من الهجمات المفاجئة من القراصنة القبارصة [3] .

لقد اعتمدت الدولة الجركسية في حملتها الثانية ضد قبرص سياسة الحوار الدبلوماسي وذلك لمنع نشوب الحرب بين الجانبين ، فأرسل قائد الحملة جرباش مبعوثه إلى حاكم قبرص يطلب منه الاستسلام والطاعة للدولة الجركسية ، وابلغ مبعوثه بان يغادر من بيروت في حين تنطلق الحملة إلى ميناء طرابلس وتنتظر هنالك ثمانية أيام لمعرفة ردّ حاكم قبرص [4] الـذي اعلن مبدأ الرفض والمواجهة ، وهكذا لم يبق امام السلطان برسباي سوى الحرب فقد تحركت الحملة من ميناء الاسكندرية سنة (٨٢٨هـ / ١٤٢٥م) إلى بيروت ومن ثم طرابلس لغرض تزويدها بمراكب أخرى [5] وبدأ الاستعداد الكامل للحملة بالتوجه إلى ميناء قرباص ***Korbass*** الواقع على الساحل الشمال الشرقي لقبرص ، ومنه تحركت الحملة حتى استقرت بالقرب من ميناء فاماجوستا ، الذي كان تابعاً للحكم الجنوي ، وعندما علم حاكم الميناء بوصـول القـوة البحرية الجركسية وجد في نفسه ضعفاً لا يقاوم ، فأرسل إلى قائد الحملة الأمير جرباش يطلب منه الامان ويخبره بتقديم الطاعة والولاء له ، ومن ثم بيّن له حالة الوضع الداخلي للجزيـرة

---

[1] ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٣ / ٣٠٤ ؛ ابن شاهين ، زبده كشف ، ص ١٣٩ .

[2] ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٣ / ٣٠٥ ؛ ابن شاهين ، زبده كشف ، ص ١٣٩ .

[3] ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٣ / ٣ / ٣٠٩ ؛ ابن شاهين ، زبدة كشف، ص ١٣٨ .

[4] ابن يحيى ، تأريخ بيروت ، ص ٢٢١ ؛ ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٣ / ٣٤٥.

[5] ابن يحيى ، تأريخ بيروت ، ص ٢٢١ ؛ ابن شاهين ، زبده كشف ، ص١٤٠؛ ماهر،البحرية في مصر ،ص ١٢١ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢ / ١٢٢٩ .

قائلاً ((**فبلغهم تهيئ صاحب قبرص للقائهم ، واستعداده لمحــاربتهم**)) [١] وبذلك اســتقرت الحملة في مكانها لمدة أربعة أيام ، ومن ثم توجهت إلى غرب الجزيرة للسيطرة على المــدن التابعة لها ، فتمكنت من الحصول على غنائم كثيرة وأسر الكثير من ســكان تلــك المــدن ، وبعدهــا واصــلت الحملة سيرها نحو ساحل الملاّحة ، وفي أثناء ذلك هاجمت بعض القوات القبرصية تلك الحملة ودار بينهما قتالٌ شديدٌ تمخض عنه إحراز النــصر لمــصلحة القــوات الجركسية [٢] التي أبلت بلاءاً حسناً فحققت من ورائه الانتصارات التي كان لها على ما يبدو دورٌ في إضعاف قوة قبرص من خلال السيطرة على المدن والموانئ التابعة لها [٣] .

وعلى الرغم من كل الخسائر التي لحقت بالقوات القبرصــية ، إلا انهــم لــم يقبلــوا الاستسلام وأصروا على المقاومة ، فقاموا بتهيئة أسطولٍ بحري مكون من ثلاثةَ عشرَ مركباً لمواجهة البحرية الجركسية في أثناء سيرها باتجاه العاصمة قبرص نيقوسيا [٤] وعلى ما يبدو انهم حاولوا الإيقاع بالقوة الجركسية بحيلة الفرار إلى وسط البحر لتفريقهم ، إلا أن القــوات البحرية الجركسية استقرت على ساحل البحر [٥] وبهذا فشلت خطه الملك جانوس التي كانــت ترمي إلى إضعاف القوة البحرية الجركسية عن طريق ابعادهم عن الإمدادات التي قد تــصل اليــهم فلجــأ عندئذٍ إلى إرسال أخيه لملاقاة الأسطول الجركسي للحيولة دون الوصول إلــى البر [٦] ، فضلاً عن ذلك وصول المعلومات إلى قائد الحملة الأمير جرباش عن طريق أحــد الأسرى الهاربين من الجزيرة ، وابلاغه بوصول مساعدات عسكرية من قبل الجنويين متكونة من ثلاثة وأربعين صندوقاً محملاً بالسيوف والخوذ وكميات مــن الرمــاح ، لكــن البحريــة

---

(١) آبن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٣ / ٣٦٥ ؛ آبن شاهين ، زبده كشف ، ص ١٤٠ ؛ ماهر ، البحريــة في مصر ، ص ١٢١ ، عودات ، تأريخ المغول، ص ١٢١ .

(٢) آبن يحيى ، تأريخ بيروت ، ص ٢٢٢ ؛ المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٦٩٤ ؛ آبن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٣ / ٣٤٧ .

(٣) من المدن التي سيطرت عليها الحملة هي (لارناكا ، كيتي ، مازوتوس) . ينظر : عاشور ، قبرص والحروب ، ص ٩٨ .

(٤) آبن يحيى ، تأريخ بيروت ، ص ٢٢٢ .

(٥) عاشور ، قبرص والحروب ، ص ٩٩ .

(٦) آبن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٣ / ٣٤٧ .

الجركسية استطاعت أن تتدارك الموقف من خلال إنزال قوة مؤلفة من ألف جندي ، والــذين بدورهم تمكنوا من مقاتلة الخيالة القبارصة والقضاء عليهم وهروب القسم الآخر [1] .

وبعد الانتصارات التي حققتها البحرية الجركسية على القوات القبرصية ، عاودت هذه القوات إلى ميناء ليماسول لفتح الجزء المتبقي منه في أيدي القبارصة وخاصة القلعــة التــي كانت شديدة التحصين ، وعلى الرغم من ذلك فقد تمكنت من فتحها ورفع الرايــة الــسلطانية على القلعة [2] .

وفي غضون هذه الأحداث كان السلطان برسباي يترقب بشغف وصول أخبــار عمّــا حققته الحملة من نتائج ، وبالفعل فقد تلقى السلطان رسالة من نائبــه بطــرابلس (قــصره) مرسلة من قائد الحملة الأمير جرباش الكريمي تبلغه بالنصر الــذي حققتــه علــى القــوات القبرصية إلا انها لم تستطع السيطرة التامة على الجزيرة وخاصة عاصمتها نيقوسيا ، وممــا يؤكد هذا القول ما ذكره المقريزي ((**ثم أن العسكر خاف من متملك قبرص ، فانه كان قــد جمع واستعد ، فرأى جرباش أن يعود بهم فسار حتى ارسى على الطينة قريباً من قطيــا ، ومن دمياط**)) [3] .

ومما هو جدير بالذكر أن الحملة الثانية قد افرزت نتائج سياسية واقتــصادية ترتــب عليها امور عدة منها : انها استطاعت أن تثبت للقبارصة مــدى القــدرة العــسكرية للدولــة الجركسية ، وان لديها الامكانيات في مواصلة حربها ضد قبرص ، هذا من ناحيــة الجانــب السياسي ، أما ناحية الجانب الاداري فقد اثبت الحملة أيضاً انهــا اســتطاعت أن تحــد مــن الاعتداءات القبرصية على المراكب التجارية الداخلة إلى الموانئ الجركسية ، فضلاً عن انها حصلت على عدد كبير من الغنائم وعدد اكبر من الاسرى القبارصة [4] .

---

(1) ابن يحيى ، تأريخ بيروت ، ص ٢٢٤ ؛ ابن شاهين ، زبدة كشف ، ص ١٤١ ، ٣٥٥ .

(2) ابن يحيى ، تأريخ بيروت ، ص ٢٢٤ ؛ ابن شاهين ، زبدة كشف ، ١٤١ ؛ الغياثي ، التأريخ الغيــاثي ، ص ٣٥٥ ؛ ماهر ، البحرية في مصر ، ص ١٢٢ .

(3) السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٦٩٥ .

(4) لقد بلغ عدد الغنائم أربعين بغلاً وعشرة جمال محملة بالصناديق التي فيها آلات الحرب والأواني فــضلاً عن الأسرى الذين بلغ عددهم ألف وستين أسيراً ، فأمر السلطان ببيع الأسرى مع مراعاة ألا يفــرق بــين

وعلى الرغم من كل النتائج الإيجابية والإنجازات التي حققتهما الحملتان الأولى والثانية سواء من الناحية المادية ام المعنوية ، إلا انها لم تقنع السلطان برسباي ، لانها لم تشبع رغبته الهادفة في السيطرة على جزيرة قبرص بشكل كامل ، لغرض تأمين السواحل الجركسية من التهديدات المستمرة من جهة قبرص ، لكن بالمقابل يمكن القول إنه لو كان في نية السلطان في هجوم قواته على الجزيرة السلب والنهب فقط ، لما جهز حملة اخرى لفتح تلك الجزيرة التي كانت تشكل خطراً مباشراً على دولته ، إلا أن الحقيقة تميط اللثام عن نواياه في السيطرة التامة على الجزيرة وجعلها إمارة تابعة لدولته ، وبهذا بقي السلطان برسباي مصراً على اتباع سياسية الحرب ضد قبرص ، ولم يتوقف طموحه تجاه هذا الشيء ، واخذ يفكر في إرسال حملة ثالثة لتحقيق هدفه المنشود ، وممّا شجعه على ذلك عاملان اولهما : استنجاد حاكم قبرص بملوك أوربا سنة (٨٢٩هـ/١٤٢٥م) ، وثانيهما : الروح الجهادية لدى المقاتلين الجراكسة ، فيذكر ابن تغري بردي قائلا : ((**بل كان الشخص إذا وقف في مجلس السلطان ينظر رؤوس النواب تتهارب من المماليك السلطانية الذين يريدون اخذ الدستور [الأذن والتصريح] من السلطان للتوجه للجهاد ، والسلطان يأمرهم بعدم السفر ، ويعتذر انه لم يبق مراكب تحملهم ، وهم يتسارعون في ذلك مرة بعد اخرى ... وما ارى هذا إلا ان الله [تعالى] قد شرح صدورهم للجهاد وحببهم في الغزو وقتال العدو ، ليقضي الله أمرا كان مفعولا ...**)) [١] ، وذلك طلباً للمساعدة منهم بما حَل بالجزيرة نتيجة للهجمات المتكررة عليها من قبل القوات الجركسية ، إلا ان طلبه لم يلق قبولاً ، وذلك لانشغال الدول الأوربية بمشاكلها الداخلية فلم يصله غير إمدادات ملك الكتلان الذي أرسل ابن أخيه مصحوباً بالمراكب والمقاتلين [٢] وعلى هذا الأساس فان الاندفاع الصليبي قد تلاشى [٣] ومقابل ذلك وصل إلى مصر مبعوث صاحب استنبول (القسطنطينية) بدوره حاملاً هدية للسلطان ، وقام

الأولاد وآبائهم ولا بين قريب وقريبة وقد كلف السلطان الأمير اينال الشمشاتي بعملية البيع ، للمزيد . ينظر : المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٦٩٦ .

[١] النجوم الزاهرة ، ١٤ / ٢٨٦-٢٨٧ .

[٢] ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٣ / ٣٦٦ .

[٣] عاشور ، قبرص والحروب ، ص ١٠٤ .

بدور الوسيط من أجل إيجاد حلٍ مناسبٍ للجانبين ، إلا أن هذا الأمر لم يجدِ نفعاً ولا ضــراً ، وبقي الحال على ما عليه ولم يصل إلى نتيجة حاسمة [1] وبدأ القلق يتسرب إلى نفس الحــاكم القبرصي نتيجة لقلة المساعدات التي وصلت إليه ، عندئذٍ قرر طلب المساعدة مــن فرســان الاسبتارية الحاكمين في جزيرة رودس ، وكان الرد إيجابياً فزوده حــاكم رودس بالمقــاتلين وبعض المراكب ، فضلاً عن ذلك أرسل على بك كرمان عدداً من المقاتلين الذين انخرطوا في صفوف جيشه لمساعدتهم وتقوية عزائمهم [2]

ومن الجدير بالذكر ان سبب إرسال جزيرة رودس المــساعدات لحــاكم قبــرص ، لخشيتها من عاقبة السيطرة الجركسية على قبرص ، وما ســيحل بهــا إذ اســتمر الزحــف الجركسي إليها وعندئذٍ تصبح تابعة لهم ، وممّا هو مذكور يتبين ان هناك أسباباً خاصة للحملة الثالثة منها : تشجيع الجنويين للسلطان برسباي على فتح جزيرة قبرص ، وذلــك ليوجهــوا ضربة لجانوس لانه قام بمهاجمة ميناء فاموجوستا الذي كان تحت سيطرتهم ، فــضلاً عــن وصول المساعدات التي وصلت إلى جزيرة قبرص لغرض حمايتها [3] هذا ما شجع السلطان بالاستعداد الكامل لتلك الحملة تحاملاً لما حصل سابقاً من مأساة الإسكندرية ، لذلك أرسل إلى بلاد الشام [4] يطلب منهم تجهيز المراكب ، وتنفيذاً لطلب السلطان جُهِّزَ مركبان وتم إرسالهما إلى الموانئ المصرية [5] وإعلان الجهاد في جميع أنحاء مملكته [6] .

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٧١٨ ؛ آبن تغري بردي ، النجــوم الزاهــرة ، ١٤ / ٢٧٦-٢٨٦ ؛ طرخان ، مصر في عصر ، ص ١٠٠ .

(٢) آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٤ / ٢٩٤ ؛ عاشور ، قبرص والحروب ، ص ١٠٥ .

(٣) لقد سيطر الجنويين على ميناء فاماجوستا بناءاً على المعاهدة التي عقــدت بينهمــا ســنة (٨١٢هــــ / ١٤٠٩م) عاشور ، قبرص والحروب ، ص ١٠٤ .

(٤) لقد كان المماليك يرون أن بلاد الشام هي امتداد طبيعي لمصر وقاعدة عسكرية لهم يــستطيعون منهــا أن يؤمنوا حدود مصر الشرقية ضد أي اعتداء خارجي ، للمزيد . ينظر : خاشــع المعاضــيدي وآخــرون ، تأريخ الوطن العربي والغزو الصليبي (دار الكتب ــ الموصل : ١٩٨١م) ، ص ١١ ؛ لويس ارشيبالد ، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (١٥٠٠-١١٠٠م) ترجمة : احمد محمد عيــسى (مؤسسة فرانكلين ــ نيورك : ١٩٦٠) ، ص ٨٩ .

(٥) العبادي ، تأريخ البحرية ، ص ٣٣٣ ؛ عاشور ، قبرص والحروب ، ص ١٠٥ .

(٦) العبادي ، تاريخ البحرية ، ص ٣٣٣.

إلا أن ما يميز هذه الحملة أنها كانت من اكبر الحملات الجركسية من حيث التشكيل والتكوين فهي مكونة من عدة وعدد لا بأس به ، فقد بلغ عدد المراكب المشاركة في تلك الحملة ما يقارب المئة مركب ، أما ما يتعلق بالتشكيل فهي مقسمة إلى قسمين : القسم البري بقيادة الأمير تغري بردي المحمودي ، والقسم الثاني بحري بقيادة الأمير اينال الاجرود [١] أما بخصوص انطلاق الحملة فإنها اتجهت مباشرة إلى قبرص وذلك اختصاراً للوقت وعدم اعطاء الوقت الكافي للقبارصة في ان يجمعوا قواتهم ، وذلك الأمر عكس ما حصل للحملتين السابقتين اللتين انطلقتا من مصر إلى بلاد الشام ومن ثم إلى قبرص [٢] .

وكانت الحملة تضم أعداداً كبيرة من المقاتلين والمراكب التي تحطم بعض منها أثناء انطلاقها لسوء الأحوال الجوية آنذاك ، الأمر الذي دعا السلطان أن يرسل أحد الأمراء ليتحقق من هذا الخبر ، وقد تبين له أن الأمر لا يستحق السؤال لان المراكب تم إصلاحها على الفور [٣] وعلى اثر ذلك كتب كاتب السلطان بدر الدين بن مزهر للسلطان قائلاً **((يا مولانا السلطان ان كان في أوله كسر يكون في أخره جبر))** [٤] .

وبعد ذلك واصلت الحملة سيرها باتجاه الجزيرة والتقت بعدد كبير من المراكب القبرصية ودار بينهما قتالٌ عنيفٌ انتهى بترجيح كفة القوة البحرية الجركسية على كفة البحرية القبرصية والحاق الهزيمة بهم [٥] ثم استمرت في سيرها حتى وصلت إلى لنديا التي تبعد عدة أميال عن ميناء ليماسول فحاولت القوات البحرية الجركسية دخولها واقتحامها ، إلا أن

---

[١] اينال الاجرود : هناك شخصان يحملان الاسم نفسه ، فقد لقي احدهما مصرعه بأمر من السلطان الناصر فرج سنة (٨١١هـ / ١٤٠٨م) آبن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٢ / ٢٠٥ ، أما الشخص الثاني وهو المقصود هنا فآسمه اينال العلائي الظاهري ، الاجرود ، فقد ولاه السلطان برسباي نيابة غزة سنة (٨٣١هـ / ١٤٢٧م) ثم تولى السلطة بمصر سنة (٨٥٧هـ / ١٤٥٣م) ينظر : الصيرفي ، نزهة النفوس ، ٣ / ١٤٣ .

[٢] آبن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٣ / ٣٦٦ ؛ آبن شاهين ، زبدة كشف ، ص ١٤٢ .

[٣] آبن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٣ / ٣٦٦ .

[٤] أنباء الغمر ، ٣ / ٣٦٧

[٥] المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٣٧٤ ؛ آبن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٣ / ٣٦٧ .

حصانتها وقوة مقاومتها حالت دون افتتاحها [١] فارتأت القوات الجركسية محاصرتها فترة من الزمن ، وبالفعل فان ذلك الوقت قد أنهك المدينة من الداخل مّما سهل على القوات الجركسية مبتغاهم فدخولها بعد ذلك وسيطروا عليها ورفعوا الراية السلطانية فوقها [٢] .

وكان من المعتاد عند القوات الجركسية عندما تقوم بالسيطرة على مدينة ما وتفتحها ، أن يقوم قائد الحملة بإرسال رسالة إلى حاكم قبرص يدعوه فيها إلى الاستسلام وعدم القتال ، وهذا ما حصل بعد فتح مدينة لنديا فطلبوا منه أن يسلم المدينة إليهم وتصبح تابعة لدولتهم ، إلا أن هذا الطلب لم يلقَ أذاناً صاغيةً ، لان ملك قبرص أمر بإحراق الرسالة والاستعداد للقتال [٣] مقابل ذلك أصرت القوات الجركسية في مواصلة سيرها لتحقيق الهدف الأكبر وهو فتح العاصمة القبرصية نيقوسيا والقضاء على كل مقاومة تمهيداً لذلك الهدف .

وبهذا أثبتت القوات البحرية الجركسية بأنها صاحبة السيادة في البحر لما حققته من نتائج إيجابية ، مقارنة مع القوات البرية التي أحرزت تقدماً في عملية الفتح ، إذ توجهت إلى المكان الذي يتحصن فيه حاكم قبرص ، وممّا سَهّل مهمة القوات الجركسية تزويد البنادقة لهم بالمعلومات التي وضحوا فيها بان القبارصة على استعداد كامل لمقاتلة الحملة الجركسية وانهم قد جهزوا قوة مؤلفة من خمسة آلاف فارس وسبعة آلاف مقاتل لهذا الغرض [٤] .

بعدها شعر الملك جانوس بتأزم الوضع واقترب الخطر منه فقرر عندئذٍ الانسحاب إلى مدينة خيروكيتا ***kherokita*** الواقعة إلى الشمال الشرقي من ميناء ليماسول وعسكر فيها وفي المقابل استمرت القوات الجركسية بالتقدم إلى المكان الذي يتحصن فيه حاكم قبرص [٥] .

وعلى ما يبدو أن القوات الجركسية كانت تستخدم المراسلة مع الأعداء لغرض إعطاء اقل الخسائر للطرفين ، وبناءاً على ذلك أرسل قائد الحملة الجركسية إلى الملك جانوس يقترح عليه الصلح ، وان يتعهد بعدم الاعتداء على الأراضي التابعة للدولة الجركسية ، مع تعهده

---

[١] آبن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٣ / ٣٦٧ .

[٢] العبادي ، تأريخ البحرية ، ص ٣٣٤ .

[٣] آبن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٣ / ٣٦٧ ؛ بن شاهين ، زبدة كشف ، ص ١٤٢ .

[٤] آبن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٣ / ٣٦٧ .

[٥] طرخان ، مصر في عصر ، ص ١٠٠ ؛ الخربوطلي ، الاسلام في حوض ، ص ١١٥ ؛ لين بول ، سيرة القاهرة ، ص٢١٠ .

بالانسحاب عن الجزيرة بعد التوقيع على معاهدة الصلح [١] فلم يكن الرد ايجابياً من قبل حاكم الجزيرة الذي رفض الطلب ، بل انه اقدم على قتل المبعوث الجركسي [٢] لذلك لم يبقَ أمـام القوات الجركسية خيار آخر سوى القتال إلا أن تصاعد الأحداث بينهما أدى بدوره إلى أن يقدم الأمير جرباش اقتراحاً بفصل القوات البحرية عن القوات البرية وهذا الذي رفـضه الأميـر تغري بردي المحمودي وأصـر على الهجوم الموحد لغرض احراز النصر باسـرع وقـت ممكن [٣] وعلى هذا باشرت الحملة سيرها حتى وصلت مدينة أماثوس الواقعـة بـين ميناء ليماسول وساحل الملاحة ، ومما زاد في حماسة قوات الحملة قول أحد أمراء العشرة وهو ابن القان قائلاً لهم **((يا وجوه العرب ويا آل جركس : إن ابواب الجنان فتحت ، وان متم كنـتم شهداء ، وان عشتم عشتم سعداء ، بيضوا وجوهكم واخلصوا العمل لله))** [٤] ومـن ثـم التقت الحملة بقوات الملك جانوس ودارت بينهما معركة تمكنت فيها القوات الجركـسية مـن إنزال خسائر فادحة اودت بحياة الكثير منهم وإيقاع البقية الباقية في الأسر [٥] وتأكيـداً لتلـك الحادثة فقد ذكر المقريزي معلقاً عليها:**((فأوقع في الأسر عده من فرسانه ، فأكثر المسلمون من القتل والأسر ، وانهزم بقية الفرنج))** [٦] وبعد كُلّ الجهود المبذولة من قبل رجال الحملة الجركسية وصولاً إلى تحقيق هدفهم في تحطيم الجزء الأكبر من جزيرة قبرص وشـعورهم بغمرة الفرح خاصةً بعدما أوقعوا بملك قبرص أسيراً من دون ان يعلموا انه الملـك لـولا أن صرَّحَ هو بذلك خوفاً من قتلهِ من أحد مقاتلي الجراكسة [٧] وبذلك أصبحت جزيـرة قبـرص

---

[١] ماهر ، البحرية في مصر ، ص ١٢٢ ؛ عاشور ، قبرص والحروب ، ص ١٠٨ .

[٢] ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٣ / ٣٦٧ ؛ ابن شاهين ، زبدة كشف ، ص ١٤٢ .

[٣] ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٣ / ٣٦٧ .

[٤] أنباء الغمر ، ٣ / ٣٦٨ .

[٥] لقد وجد ما بين الاسرى عدد من المقاتلين التركمان ، الذين ارسلهم حاكمهم علي باك قرمان ، للمزيـد . ينظر : المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ /٧٢٢ .

[٦] السلوك ، ج٤ / ق٢ /٧٢٢ .

[٧] بهاء الدين ابن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية المعروف بسيرة صلاح الـدين ، تحقيـق : جمال الدين الشيال (الدار المصرية ـــ مصر : ١٩٦٤م) ، ص ٨٢ ؛ حاشية رقم (١) ؛ الـشرقاوي ، تحفة الناظرين ، ص ١٤٤ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهزر ، ٣ / ٣٢٦ ؛ العصامي ، سمط النجوم ، ٤ / ٣٩؛ الحنبلي ؛ شذرات الذهب ، ٧ / ٢٣٩ ؛ ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٣٥٥ ؛

Lane – Pool , Egypt , . P . ٣٣٧.

تحت السيطرة الجركسية بقيادة الأمير تغري بردي المحمودي باستثناء العاصمة نيقوسيا ، وقد نظمت قصائد تشيد بذلك النصر مطلعها :

بنو تـــرك فكم تركوا قتيـــلاً　　شجاعاً كان يخشـــى في الطلائع

شراكسة ليوث الحرب فازوا　　بنصـــر الله والظــفر المتـــابــع

تجمع فيهم اصـــلان اكـــرم　　بذي الاصلين في الحرب الممانع[(١)]

عندئذ لم يبق أمام القوات الجركسية غير فتح العاصمة نيقوسيا التي كانت تحت زعامة أخي الملك جانوس ، إلا ان هذا الفتح تطلب جهداً غير عادي لكون العاصمة محصنة تحصيناً محكماً ، فضلاً عن اتخاذ الاستعدادات العسكرية اللازمة للقبارصة بعد الخسارة التي لحقــت بقواتها سابقاً ، وعلى الرغم من ذلك واصلت الحملة سيرها من الساحل إلى العاصمة ، فـــي حين بقيت القوات البحرية بقيادة الأمير اينال لحماية القوات البرية من جهة البحـــر [(٢)] وفـــي أثناء وصولها أطراف المدينة التقت بأربعةَ عشرَ مركباً قبرصياً إلا أن الإصـــرار والعزيمـــة التي كان يمتلكها جنود الجراكسة مكنتهم من تحقيق النصر ، على الرغم من المقاومة الشديدة التي أبدتها القوات القبرصية [(٣)] .

وبعد تمكن القوات الجركسية من الدخول إلى العاصمة القبرصـــية نيقوســـيا هـــرب حاكمها وعائلته إلى مدينة كيرينا الواقعة بالقرب من العاصمة القبرصية ، أما ســـائر ســـكان العاصمة فقد احتموا بفندق البنادقة ، علماً انهم كانوا على علاقة ودية مع الجراكـــسة ، وهـــم أول من شجعهم على دخول العاصمة القبرصية [(٤)] وهذا ما دعى الأهالي ومـــنهم الرهبـــان والقساوسة في المنطقة إلى طلب الأمان من الأمير تغري بردي قائد الحملة ، فاستغل بـــدورة هذا النصر الذي كان نتيجته حصول اعتراف أهالي الجزيرة بالتبعية الجركسية ، ومـــن ثـــم إعلان طاعتهم له وانتشر الخبر في جميع أنحاء قبرص [(٥)] ، وبهذا فقد أعطى فتح قبرص [(١)]

---

(١) آبن شاهين ، زبدة كشف ، ص ١٤٢ .

(٢) المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٩٦٥ ؛ آبن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٣ / ٣٦٨ –٣٦٩ .

(٣) المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٧٢٢ ؛ آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٤ / ٢٩٤؛

E.B. " Egypt " Vol. ٨, p. ٦٣.

(٤) آبن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٣ / ٣٦٩ ؛ آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٤ / ٢٩٥ .

(٥) عاشور ، قبرص والحروب ، ص ١١٤ ؛ العبادي ، تأريخ البحرية ، ص ٣٣٩ –٣٤٠.

مكانة مشرفة للدولة الجركسية بعد أن كانت تشكل خطراً سياسياً واقتصادياً للمنطقة [٢] وقد نظم احدهم في فتح العاصمة نيقوسيا شعراً مطلعه .

بُشْراك يا ملكَ المُلُوك الأشْرفي ... بفتح قَبْرصَ بالحُسَـام المَشرْفي
فتحٌ بِشَهْرِ الصَّوم تم قِتَالُه ... من أشْرفٍ في أشْرفٍ في أشرفي
فتح تفتحت السموات العلا ... من اجله بالنصر واللطف الخفي [٣]

وبعد فتح جزيرة قبرص بشكل نهائي ، استقرت الحملة يومين فقط ومن ثم تحركت باتجاه ساحل الملاَّحة وأقامت سبعة أيام هناك ، ومن خلال ذلك دارت محادثات بين قائدي الحملة حول الإقامة أو المطالعة بما وقع من فتح ، وقد تضاربت الآراء في ذلك ، فغلب الرأي الذي يقضي بالعودة واصطحاب الغنائم والأسرى ، ومن جملة ما كان من غنائمهم أسر عظيم قبرص ـــ جانوس ـــ الذي قِيدَ ذليلاً بالسلاسل عند مثوله أمام السلطان برسباي مُقَبِلاً الأرض معفراً وجهه في التراب أمام حشد كبير من وفود السلطان أمثال أمير مكة ورسل ملك عثمان ورسل ملك تونس والكثير من قصداء أمراء الشام [٤] .

لقد أعطى هذا المشهد للجميع تصوراً لمدى القوة السياسية والعسكرية للدولة الجركسية بمجرد مثول حاكم قبرص أمامهم ، ناهيك عن تصور الفرح العارم إزاء ذلك متمثلاً بقول ابن تغري بردي : ((**كاد أن يطير [برسباي] ولقد رأيته يبكي من شدة الفرح وبكى الناس لبكائه**)) [٥] ، في حين يذكر المقريزي واصفاً تلك الحالة قائلاً ((**فكان يوماً عظيماً لم ندرك مثله**)) [٦] يتبين من خلال النصين أن القبارصة كانوا دائماً يشكلون قلقاً للدولة الجركسية ، لذلك كان لفتح جزيرة قبرص فرحة كبيرة غمرت قلوب الدولة والشعب .

---

[١] عن سير الحملات الثلاث . ينظر : الشكل رقم (٢) .

[٢] *Hitti , History , p. ٦٩٧-٦٩٩.*

[٣] ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٣ / ٣٧١ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٤ / ٢٩٦ ؛ الحنبلي ، شذرات الذهب ، ٧ / ١٨٧ .

[٤] المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق ٢ / ٧٢١ ؛ ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٣ / ٢٩٦ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٤ / ٢٩٥ .

[٥] النجوم الزاهرة ، ١٤ / ٢٩٦ .

[٦] السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٧٢٥ .

وتواصلاً لسياسة الدولة التي أبدت استعدادها بإطلاق سراح الملك جانوس مقابل فدية من المال قدرت بخمسمئة ألف دينار ، تم إحضاره أمام السلطان فابلغه بذلك فرد الملك بقوله **((مالي إلا روحي وهي بيدكم وأنا رجل أسير لا املك الدرهم الفرد من أين تصل يدي إلى مال أعطيه لكم))** [1] ، وعلى اثر ذلك اخذ الملك ينشد الشعر قائلاً :

يا ملكاً ملك الورى بحسامه — انظر ألي برحمة وتعطفِ

وارحم عزيزاً ومنعن بالذي — أعطاك هذا الملك والنصر الوفي

أن لم تؤمني وترحم عبرتي — فيمن ألوذ ومن سواكم لي يفي [2]

يذكر ابن شاهين أن الملك جانوس قال تلك الأبيات بنفسه وان له معرفة باللغة العربية [3] في حين يذكر ابن تغري بردي انه كان أعجمياً ليس بإمكانه التحدث بتلك اللغة وانما نسبت إليه [4] ، إلا أن آبن حجر العسقلاني يذكر أن الملك نظم الشعر بلغته ومن ثم ترجمت إلى العربية بوساطة ترجمان [5] .

والأرجح بين هذه الروايات هي الرواية الأخيرة أي انه رُبَّما نظم الشعر بلغته أو قال بلغته كلام للسلطان دون نظم ومن ثم ترجم إلى العربية ونظمه الشعراء فيما بعد لإظهار قوة السلطان ومدى هيبته وتخضع العظماء له أو انه كلف أحد اتباعه فنظمت تلك الأبيات لأن الملك جانوس ليس له معرفة باللغة العربية .

وبعد ذلك تكلم الترجمان مع الملك وأخبَرهُ **((فيما يفدي نفسه من المال والا يقتله السلطان))** [6] وعندئذٍ تدخل وفود السلطان لإنقاذ حياة الملك فتعاهدوا بدفع المال المفروض عليه ، ولذلك قاموا بتخفيض الفدية المطلوبة منه بعد إجراء المفاوضات إلى مئتي ألف دينار شرط ان يدفع نصف المبلغ ، أما النصف الآخر فيدفعه بعد وصوله إلى بلاده مع الاحتفاظ

---

(1) آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٤ / ٣٠٢ ؛ وينظر : المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٧٢٦ .

(2) آبن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٣ / ٣٧٠ .

(3) زبدة كشف ، ص ١٤٤ .

(4) النجوم الزاهرة ، ١٤ / ٣٠٣ ، ٣٠٦ .

(5) أنباء الغمر ، ٣ / ٣٧٠ .

(6) آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٤ / ٣٠٣ ؛ القرماني ، أخبار الدول ، ص ٢١٢ ؛ الدويهي ، تأريخ الازمنة ، ص ٢٠٣ .

بدفعه في كل سنة عشرين ألف دينار جزية [١] والف ثوب صوف تقدر قيمته بعشرين الف دينار [٢] ومقابل ذلك طلب الملك جانوس من السلطان برسباي أن يوفر الحماية لجزيرته من البنادقة والكتلان ، وقد حصل على موافقة السلطان في هذا الشأن [٣] .

بعد أن تمت الموافقة على الشروط ودفع المبلغ الذي فرض عليه ، قرر السلطان برسباي اطلاق سراحه سنة (٨٣١هـ / ١٤٢٧م) [٤] والتوجه إلى جزيرته التي كانت تعيش حالة من الفوضى وعدم الاستقرار ، وبعد وصوله إلى الجزيرة تمكن من إعادة النظام إليها وأعلن رسمياً تبعيته السياسية والاقتصادية والعسكرية للدولة الجركسية [٥] .

وعلى ما يبدو أن الدولة الجركسية كان لها عدة أسباب تكمن وراء إطلاق سراح الملك جانوس في الوقت الذي كان يشكل خطراً عليها ، منها ما هو سياسي وهو إبقاء قبرص تابعة لها وهذا ما يشكل نصراً سياسياً كبيراً ، ومنها ما هو اقتصادي وهو ضمان الدولة الجركسية تبعية جزيرة قبرص لها ، وهذا بحد ذاته يؤمن وصول المراكب التجارية إلى الموانئ المصرية من دون أي عائق كالتعرض لأعمال القرصنة وخاصة أن قبرص تتمتع بموقع جغرافي متميز على الطرق التجارية ، أما السبب الثالث : وهو من أهم الأسباب لانه يخص الجانب العسكري فان الدولة الجركسية أرادت أن تجعل من قبرص قاعدة لها للقضاء على الصليبيين المتواجدين في جزيرة رودس ، فضلاً عن ضمانها وصول المعلومات الدقيقة عن تحركات القراصنة الذين يكيدون العداء للدولة الجركسية ، والدليل على ذلك إرسال حاكم الجزيرة الملك جانوس سنة (٨٣١هـ / ١٤٢٧م) الجزية المفروضة على جزيرته والتي قدرت بحوالي خمسين الف دينار ، فضلاً عن ارساله رسالة تحذير للسلطان برسباي يعلمه فيها عن وجود مركبين للقراصنة الكتلان وقد توجها نحو ميناء الإسكندرية ، وقبل

---

[١] آبن جحر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٣ / ٣٧٠ ؛ آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٤ / ٣٠٥ .

[٢] آبن جحر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٣ / ٣٧٠ .

[٣] آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٤ / ٣٠٤ ؛ وينظر : المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٧٢٦ .

[٤] بعد أن تم اطلاق سراح الملك جانوس أُركِبَ فرساً وتجول في القاهرة ، وقام بزيارة احد الكنائس للمزيد عن ذلك ينظر : المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٧٣٨ ، ٧٤٣ .

[٥] عاشور ، قبرص والحروب ، ص ١٢١ .

وصولهما استعد اهل الميناء بنـاءاً على توجيهات السلطان من اجل التصدي لهما ودفعهما إلى الهرب [١] .

لقد كانت الدولة الجركسية حريصة على استمرار علاقتها مع جزيرة قبرص وجعلها تابعة لها سياسياً ، وبعد وفاة الملك جانوس سنة (٨٣٦هـ / ١٤٣٢م) أرسل السلطان برسباي بعثة إلى قبرص في السنة ذاتها مكونة من ستين مملوكاً وكان تحمل رسالة من السلطان برسباي إلى الملك جوان بن جانوس تضمنت مطالبته بدفع الجزية المتأخرة على أبيه ومقدارها أربعة وعشرون ألف دينار ، وما تعهد به في كل سنة يقدر بخمسة آلاف دينار [٢] .

لقد كان الهدف من إرسال البعثة هو اخذ الولاء والعهد والامان من ملك قبرص الجديد وإعلان تبعيته لهم فعند وصول البعثة استقبلهم وزير الملك ، فدخلوا على الملك وابلغوه رسالة السلطان ، فاستجاب لهم بالسمع والطاعة وقال ((**انا مملوك السلطان ونائب عنه ، وقد كنت على عزم أن أرسل التقدمة فبلغني قدومكم فامسكت عن ذلك**)) [٣] وتأكيدا لكلامه طلبت البعثة منه القسم على تقديم الولاء لهم ، فاستجاب لذلك الطلب وأدى القسم أمامَ القساوسة ، عندئذٍ منحته البعثة مكانة التشريف السلطاني المُعَد له [٤] ومقابل ذلك أعطى الملك جوان كتاباً رسمياً يؤكد ولاءَهُ وطاعته للسلطان برسباي بقوله ((**وانه في طي علمه وانه من جملة مماليكه**)) ، فضلاً عن اهدائهِ سبعمئة ثوب صوف قدر قيمته بعشرة الاف دينار هدية للسلطان الجركسي تأكيداً لحسن نيته في الطاعة والولاء له [٥] وتنفيذاً لذلك استمر الملك جون بدفع الجزية السلطانية إلى الدولة الجركسية على الرغم مَمّا تعرضت إليه

---

[١] المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٧٨٠ ؛ آبن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٣ / ٣٩٧ ، ٤٠٥ .

[٢] لقد انطلقت البعثة من ميناء دمياط متجهة إلى ساحل الملاحة ومن ثم واصلت سيرها نحو العاصمة القبرصية نيقوسيا . ينظر : المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٨٧٤ ؛ آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة، ١٤ / ٣٦٣ .

[٣] المقريزي ، السلوك، ج٤ / ق٢ / ٨٨٣ ؛ آبن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٣ / ٤٨١ ؛ آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٤ / ٣٦٥ .

[٤] المقريزي ، السلوك، ج٤ / ق٢ / ٨٨٣ ؛ آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٤ / ٣٦٥ ؛ الصيرفي ، نزهة النفوس ، ٣ / ٢٥١ .

[٥] آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٤ / ٣٦٥-٣٦٦ ؛ الصيرفي ، نزهة النفوس ، ٣ / ٢٥١ .

جزيـــرته من اضطرابات سياسية (1) وبهذا بقيت العلاقة ودية بين الجراكسة والقبارصة حتى وفاة السلطان برسباي وتولى من بعده ابنه العزيـــز يوســف (٨٤١-٨٤٢هـــ / ١٤٣٧-١٤٣٨م) الذي لم يحكم سوى عدة اشهر ، وذلك لاعتماده على السياسية المالية القائمة علـــى إعطاء المال لبعض الفرق المملوكية مّما أثار حنق عامة الشعب ضده (2) ، لذلك خلع وتـــولى من بعده السلطان أبو سعيد جقمق (3) سنة (٨٤٢-٨٥٧هــ / ١٤٣٨-١٤٥٣م)وحكم لمـــدة خمس عشرة سنة ، وكان يحكم على هدى وسياسة سلفه في علاقته مع القبارصة الذين أعلنوا ولاءَهم للسلطان الجديد وتعاونهم معه والدليل على ذلك إرسال السلطان حملة سنة (٨٤٤هــ/ ١٤٤٠م) منطلقة من دمياط باتجاه قبرص ، وفي أثناء وصولهم استقبلهم ملكها الذي ابـــدى تعاونه مع تلك الحملة (4) ، وانه متمسك بعهده للدولة الجركسية باســـتمراره بـــدفع الجزيـــة السنوية المفروضة على جزيرته وهي عبارة عن مجموعة من أثواب الصوف أرســـلت مـــن جزيرة قبرص إلى بيروت ومن ثم نقلت بمراكب إلى القاهرة ، وهذا يُعُد دليلاً على اســـتمرار حسن العلاقة الجركسية القبرصية ، وكان هذا في سنة (٨٤٧هــ/١٤٤٣م) (5) ، وبناءاً على ما اتفق عليه كون الجزيرة تابعة للدولة الجركسية سياسياً واقتصادياً ، فضلاً عن القوة التـــي امتلكتها البحرية الجركسية خلال عهد السطان جقمق ، ولهذا السبب لم يتجرأ حـــاكم قبـــرص على القيام باي عمل عدائي تجاه الجراكسة ، ولذا بقيت العلاقـــات وديـــة بـــين الجراكـــسة والقبارصة حتى نهاية عهد السلطان جقمق .

(1) الصيرفي ، نزهة النفوس ، ٣ / ٣٣٨.

(2) اسماعيل سرهنك ، حقائق الاخبار عن دول البحار (المطبعة الميرية ــ مصر : ١٩٨٦م) ، ٢ / ١٨٤.

(3) يعد السلطان جقمق من السلاطين البارزين في الدولة الجركسية ، جلب من بلاده واشتراه السلطان برقـــوق واعتقه وتولى مناصب عدة حتى اصبح سلطان مصر . للمزيد من التفاصيل عن حياتـــه . ينظـــر : آبـــن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٥ / ٢٥٦-٢٥٧ ؛ الدباغ ، الموجز في تأريخ ، ص ١٣٦ ، سرهنك ، حقائق الاخبار ، ٢ / ١٨٣ .

(4) آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٥ / ٣٤٣ .

(5) شمس الدين محمد عبد الرحمن السخاوي ، التبر المسبوك في ذيل السلوك (مطبعة الاوفست ــ القاهرة : د. ت.) ، ص ٦٣ .

ومما هو ملاحظ من سياق الأحداث أن العلاقات الجركسية القبرصية كانت غير مستقرة تماماً فانها تتأرجح بين العداء والسلم ، ففي عهد السلطان اينال (٨٥٧-٨٦٥هـ/ ١٤٥٣-١٤٦٠م) (١) شهدت العلاقة سلماً واستقراراً اكثر من ذي قبل ، وذلك بسبب عدم الاستقرار في قبرص وتقلب الأوضاع فيها ، وبالذات بعد وفاة ملكها حنا الثاني وتولية ابنته الحكم من بعده والنزاع الذي حصل بينها وبين اخيها على الحكم ، وهذا ما حفز أخوها إلى السفر لمصر سنة (٨٦٤هـ / ١٤٥٩م) لطلب المساعدة من السلطان الجركسي لحسم النزاع بينه وبين أخته ، وبذلك رد السلطان الجركسي على طلبه وارسل معه الأمير تغري بردي الطياري لحسم النزاع وتوليته الحكم ، ومقابل ذلك فقد أيدت الاسبتارية في جزيرة رودس الملكة شارلوت في توليته الحكم ، إلا ان كفة جيمس تغلبت في النهاية على كفة اخته ، والسبب هو التأييد الجركسي الذي حصل عليه جيمس والذي حسم الموقف لمصلحته في توليه الحكم سنة (٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م) (٢) ، ومن الناحية الأخرى تعرضت الجزيرة إلى أخطار خارجية وخاصة في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، متمثلاً بالدولة العثمانية في عهد سلطانها محمد الفاتح (٨٥٥-٨٨٦هـ/١٤٥١-١٤٨١م) عند فتحه لمدينة القسطنطينية (٣) وبهذا قامت الدولة العثمانية بالتوسع على حساب الدول المجاورة عندها أرسل حاكم قبرص إلى الدولة الجركسية يطلب المساعدة في إيقاف ذلك التهديد ، ورداً على ذلك الطلب أرسل السطان الجركسي كتاباً إلى السلطان العثماني يوضح

---

(١) سيف الدين أبو النصر اينال ، الذي يعد السلطان الثاني عشر من ملوك الجراكسة والسادس والثلاثون من ملوك الترك ، تولى السلطة بعد خلع الملك المنصور عثمان سنة (٨٥٧هـ / ١٤٥٣م) للمزيد من التفاصيل عن حياته وسياسته الداخلية ينظر : الحنبلي ، شذرات الذهب ، ٧ / ٣٠٤-٣٠٥ ؛ سرهنك ، حقائق الاخبار ، ٢ / ١٨٦-١٨٧ .

(٢) آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٦ / ١٣٢-١٣٤ ، ١٤٧ .

(٣) القسطنطينية : تعد من اهم المدن العالمية انذاك ، وقد اسست في سنة (٣٣٠م) على يد الامبراطور البيزنطي قسطنطين الاول ، وكان لها موقع عالمي حتى قيل عنها ((لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القسطنطينية اصلح المدن لتكون عاصمة لها)) . للمزيد من التفاصيل ينظر : محمد علي محمد الصلابي ، الدولة العثمانية وعوامل النهوض واسباب السقوط (دار آبن كثير ـ دمشق : ٢٠٠٣م) ، ص ١٥٤ .

فيه بان قبرص تابعة له ويطلب منه عدم الاعتداء عليها ، فاستجاب السلطان العثماني لـذلك الطلب ، واوقف اعتداءاته على الجزيرة [١] .

ونتيجة لاستمرار تلك التهديدات التي كانت تتعرض لها الجزيرة مـن قبـل القـوى الأوربية الأخرى المتمثلة بقراصنة الجنويين والكتلانيين ، جعلت الدولة الجركسية تتخذ جانب الحرص تجاه جزيرة قبرص ازاء تلك التهديدات الموجهة اليها ، وهذا ما حدث فعلاً في سنة (٨٦٣هـ / ١٤٥٨م) حين تعرضت الجزيرة إلى اعتداء خارجي من قبل بعض الأوربيين ، ورداً على ذلك أرسلت الدولة الجركسية قوة عسكرية بقيادة يونس الدوادارا[٢] الذي تمكنـت قواته من حسم الموقف [٣] وبعد سنتين من تواجدها في قبرص انسحبت إلى مـصر واثنـاء توجهها فوجئت بسوء الاحوال الجوية فتفرقت المراكب وغرق بعضها ووصل عدد قليل منها إلى ساحل الطينة [٤] .

وبهذا أصبحت الجزيرة معتمدة على الدولة الجركسية بحكم موقعهـا ضـمن نطـاق حدودها الادارية ، وهذ ما اضعفها سياسياً وعسكرياً ، ففي عهد السلطان أحمد بن إينـال [٥] (٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م) كانت العلاقة سلمية عندما وصل كتاب جانبك الأبلـق الظـاهري مـن قبرص الذي يشرح فيه للسلطان بان المماليك المتواجدين في الجزيرة وبالتعاون مع القبارصة استطاعوا من السيطرة على مدينة شرينة التي أعلنت عصيانها بعد محاصرة قلعتها باف [٦] .

---

[١] فهمي ، طرق التجارة ، ص ٢٣ .

[٢] الدوادارا : منصب اداري يتخذ لتبليغ الرسائل من السلطان وابلاغ عامة الامور وتقديم البريـد . ينظـر : القلقشندي ، صبح الاعشى ، ٤ / ١٩ .

[٣] سليم ، عصر سلاطين ، ٢ / ٢٥٩ .

[٤] آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٦ / ١٥٢-١٥٣ .

[٥] احمد اينال : السلطان السابع والثلاثون من ملوك الترك والثالث عشر من السلاطين الجراكسة . للمزيـد من التفاصيل عن حياته . ينظر : آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٦ / ٢١٨-٢١٩ ؛ سـرهنك ، حقائق الاخبار ، ٢ / ١٨٥ .

[٦] قلعة باف : اسم أطلق على مدينتين قديمتين في القسم الجنوبي لجزيرة قبرص . ينظر : آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٦ / ٢٢٤ حاشية رقم (٣) .

وفي غضون ذلك ذهبت أخت حاكم قبرص صاحبة المدينة المتمردة نحو جزيرة رودس طالبةً المساعدة ، ورداً على طلبها أرسلت لها قوة عسكرية من عدة مراكب ، لكن القوة البحرية الجركسية تمكنت من السيطرة على المراكب واعتقلت حوالي مئة مقاتل كانوا فيها ، ودعماً لذلك قامت الدولة الجركسية بإرسال قوات إضافية تعزيزاً للقوات المتواجدة هناك لغرض السيطرة الكاملة على المنطقة [١] .

وعلى الرغم من ذلك لم تستطع الدولة الجركسية أن تحصل على ما في نفسها من طمع في مدينة شرينة وذلك لقصر فترة حكم السلطان اينال التي لا تتجاوز السنة .

لكننا نلمح من سير الأحداث وتولي السلطان خشقدم الحكم سنة (٨٦٥-٨٧٢هـ/١٤٦٠-١٤٦٧م) [٢] أن العلاقة الجركسية القبرصية بقيت محافظة على الطابع الودي ، وهذا يعود إلى انشغال السلطان بالأمور الداخلية لقبرص وبالذات حول تولي العرش، فضلاً عن الاعتداءات الخارجية عليها ، المتمثلة بالقراصنة الجنويين ، وهذا ما دعى السلطان ان يرسل حملة في سنة (٨٦٥هـ / ١٤٦٠م) للدفاع عن الجزيرة وبالفعل سيطرت الحملة على مدينة الماغوصة المتمردة وقلعتها الحصينة وعينت جانبك الابلق أميراً عليها [٣] .

وعلى الرغم من تلك الأحداث بقيت العلاقات تحمل الطابع الودي حتى في عهد السلطان قايتباي (٨٧٢ – ٩٠١هـ/١٤٦٧-١٤٩٥م) [٤] مع انه قد حصل بعض من

---

[١] آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٦ / ٢٢٤ .

[٢] سيف الدين خشقدم بن عبدالله السلطان الثامن والثلاثون من ملوك الترك والرابع عشر من الجراكسة ، وهو من اصل رومي جلبه ناصر الدين إلى مصر في سنة (٨١٥هـ/١٤١٢م) فاشتراه الملك المؤيد وجعله كاتباً له ، ثم اعتقه واصبح من المماليك السلطانية ، للمزيد من التفاصيل . ينظر : آبن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ١٦ / ٢٥٣، ٢٥٥ – ٢٥٦ ؛ آبن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ٧ / ٣١٥ ، سرهنك ، حقائق الأخبار ، ٢ / ١٨٦ .

[٣] آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٦ / ٢٦١ ، ٢٨٥ .

[٤] الاشرف قايتباي الظاهري : جركسي الاصل جلبه الخواجا محمود واشتراه الملك برسباي فاستمر في خدمته إلى وفاة السلطان برسباي ، وتولى من بعده السلطان جقمق الذي اعتقه فاصبح يتدرج في توليه المناصب في الدولة إلى ان اصبح سلطاناً ، واهم ما يميزه عن السلاطين الجراكسة طول مدة حكمه التي بلغت تسعاً وعشرين سنة . للمزيد . ينظر : السخاوي الضوء اللامع ، ٥ / ٢٠١-٢١١ ؛ الحنبلي ، شذرات الذهب ، ٧ / ٣١٥ ؛ سرهنك ، حقائق الاخبار ، ٢ / ١٨٦- ١٨٨ .

التجاوزات من قبل القبارصة إلا أن هذا لم يغير من طبيعة العلاقة الودية وذلك للأحداث التي استجدت داخل الجزيرة منها : زواج حاكم الجزيرة من كاترين كونارد ***Catharine Cornaro*** وهي ابنة أحد أعيان البنادقة التي أصبحت جزيرة قبرص تحت حكمها باشراف من البنادقة بعد وفاة زوجها سنة (٨٧٨هـ/ ١٤٧٣م) وقد ايد السلطان قايتباي ذلك الأمر إلا انه حذرهم من تأخير دفع الجزية ، وانه قد يلجأ إلى القوة أن لم يتم هذا الأمر في الموعد المحدد ، وهذا ما أرعب حاكمة الجزيرة وجعلها تتخذ قراراً يقر بالتنازل عن حكم الجزيرة للحاكم البندقي في سنة (٨٩٥هـ/١٤٨٩م) الذي تعهد بدوره للدولة الجركسية بالولاء والتبعية لهم ، وبدفع الجزية بانتظام ، وبهذا أصبحت جزيرة قبرص تابعة للبنادقة إداريا وسياسياً مع العلم انها واقعة ضمن نطاق حدود الدولة الجركسية ، والذي يتحتم عليها الولاء سياسياً واقتصادياً للدولة الجركسية ، وهذا ما جعل السلطان يرسل رسالة الى حاكم الجزيرة الجنوي ويوصيه بمراعاة سكان الجزيرة والحفاظ على اسلوب التعامل الودي معهم لكونهم من ضمن رعاياه وان أي اعتداء عليهم يُعُد اعتداءاً على الدولة الجركسية [(١)] .

وعلى الرغم من العلاقة الودية بين الجانبين إلا أن الروح العدائية لدى القبارصة لم تنته، إذ قامت بشن هجمات قرصنة على سواحل مصر الشمالية وخاصة على ميناءَي دمياط والإسكندرية ، ففي سنة (٨٨٠هـ/١٤٧٥م) قامت مجموعة من القراصنة بالهجوم على ميناء الإسكندرية فأسروا من تجاره الكثير ومن بينهم أقارب السلطان ، فكان رد فعل الدولة الجركسية على هذا العمل العدائي اصدار أمر من السلطان يقضي بارسال حملة بقيادة الامير قيت الساقي الى ميناء الاسكندرية وابلغه بالقاء القبض على جميع التجار الفرنج عامة والقبارصة خاصة الموجودين داخل دولته ، الا إنه بعد ذلك تم عقد المفاوضات لانهاء تلك الأحداث ، فارسل السلطان من جانبه مبعوثه قيت الساقي إلى قبرص الذي تمكن من التوصل إلى اتفاق بعدم الاعتداء على الموانئ المصرية من قبل الجانب القبرصي [(٢)] .

(١) آبن اياس ، بدائع الزهور ، ٣ / ١٥٠ ؛ فهمي ، طرق التجارة ، ص ٢٨ – ٢٩ .

(٢) آبن اياس ، بدائع الزهور ، ٣ / ١١٤، ١١٩ ؛ سليم ، عصر سلاطين ، ٢ / ٢٦٠ ، ٧ / ١٩٦ ؛

Spuler , The Muslim , Part. II , p. ٧٦.

أما عهد السلطان قانصوة الغوري (٩٠٦-٩٢٢هـ/ ١٥٠٠-١٥١٦م) [١]فقد اتسمت العلاقات بالتباين بين السلمية والعدائية ، ذلك لما شهدته المنطقة من متغيرات سياسية آنـــذاك أبرزها الخطر البرتغالي الذي اقلق الدولة الجركسية ، وهذا ما شجع القبارصة على الاستمرار باعتداءاتهم على الموانئ المصرية ، ففي سنة (٩١١هـ/١٥٠٥م) أرسل السلطان مبعوثـــه تغري بردي الترجمان يحمل كتاباً يحذرهم فيه من الاعتداء على الموانئ المصرية [٢]، ومـــن بعد ذلك التاريخ لم تقم جزيرة قبرص باي اعتداء ضد الدولة الجركسية .

وعلى ما يبدو أن جزيرة قبرص كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة بسبب وضعها الـــداخلي غير المستقر الذي استمر حتى السيطرة العثمانية عليها .

وبعد هذا الاستعراض الذي اطلعنا عليه بانت فيه استماتة الدولة المملوكية في السيطرة على جزيرة قبرص وإحراز النصر الكبير عليها نخرج بنتائج سياسية واقتـــصادية افرزتهـــا الأحداث .

أولاً : لقد كان لفتح قبرص دورٌ مهمٌ في تأمين الجانب السياسي لدى الدولة الجركسية فضلاً عن إثبات مكانتها السياسية في المنطقة وانها قادرة على مواجهة الأعداء .

ثانياً : ما يتعلق بالجانب التجاري الذي يعد المورد الرئيس للدولة الجركـــسية ، فقـــد تمكنت البحرية الجركسية من القضاء على القراصنة القبارصة الذين كانوا يهددون انـــسيابية الاقتصـــاد الجركسي في البحر المتوسط .

ثالثاً : تمكنت القوات الجركسية من القضاء على بقايا الصليبيين في المنطقة ، لذلك لم يبق أمامها سوى الخطوة الأخيرة للقضاء عليهم بشكل نهائي في السيطرة على جزيرة رودس التي شكلت بدورها أيضاً قلقاً لدى الدولة الجراكسية بشكل مستمر .

---

[١] قانصوة الغوري : من اصل جركسي ولد سنة (٨٥٠هـ/١٤٤٦م) وجلب بعد ذلك إلى مـــصر وتـــولى المناصب حتى صار نائب طرسوس ، وسُميَّ بالغوري نسبة إلى طبقة الغور وهي احدى الطبقات بمـــصر وهي معدة لتعليم المؤدبين . للمزيد عن حياته وسياسته الداخلية ينظر : الحنبلي ، شذرات الـــذهب ، ٨ / ١٣ ؛ سرهنك ، حقائق الاخبار ، ٢ / ١٨٨-١٨٩ ؛ الدباغ ، الموجز في تأريخ ، ص ١٥٠- ١٥٧ .

[٢] سرهنك ، حقائق الاخبار ، ٢ / ١٨٨-١٨٩ ؛ سليم ، عصر سلاطين ، ٢ / ٢١٤ .

ثانياً : العلاقات المصرية ـ الرودسية (٨٠٦ـ٩٢١هـ/١٤٠٣ـ١٥١٥م)

تعد جزيرة رودس [١] إحدى جزر حوض البحر المتوسط المهمة وهي لا تقل أهمية بالنسبة للمصريين عن جزيرة قبرص من حيث دورها السياسي والاقتصادي في المنطقة ، ويعود ذلك إلى موقعها الجغرافي المميز ، إذ اتفقت اغلب المصادر في تحديد موقعها على انها تقع ضمن القسم الأول من جزر شرقي البحر الأبيض المتوسط في الجهة المقابلة لمدينة الإسكندرية المحصورة بين آسيا الصغرى ومملكة اليونان [٢] ، ولأهمية موقع الجزيرة الجغرافي فقد أعطاها القوة والحصانة لمقاومة الدولة الجركسية ، ممّا هو معلوم ان قسماً من هيئتي فرسان الاسبتارية والداوية [٣] ، الذين كانوا في عكا عقب انتهاء الوجود الصليبي في بلاد الشام سنة (٦٩١هـ/١٢٩١م) توجهوا إلى جزر حوض البحر المتوستط متخذين من جزيرة رودس قاعدة لهم ، أما فيما يتعلق بهيئة الفرسان التيتون فقد توجهوا إلى شمال أوربا [٤] .

---

[١] لقد كانت جزيرة رودس خاضعة للسيطرة البيزنطية ، وتم فتحها في عهد الخليفة الأُموي معاوية بن أبي سفيان سنة (٥٣هـ/٦٧٢م) الذي أرسل حملة عسكرية بقيادة جنادة بن أمية الأزدي وبعد عملية الفتح أرسل الخليفة جالية إسلامية تم إسكانها فيها ، ومن ذلك فقد تباينت السيطرة عليها بين الدولة العربية الإسلامية والامبراطورية البيزنطية . للمزيد من التفاصيل ينظر : آبن الأثير ، الكامل ، ٣/ ٤٩٣ ؛ حبيب غزالة ، جزيرة رودس جغرافيتها وتاريخها واثارها (د. م. ـــ د. م. : د. ت.) ، ص ١٨ ؛ رمزية الاطرقجي ، نشاط العرب في حوض البحر المتوسط (مجلة المؤرخ العربي ، بغداد : ١٩٨٩م) ، ع ٣٩ / ١٣١ .

[٢] المسعودي ، مروج الذهب ، ١ / ١٣٦ ؛ ياقوت الحموي ، معجم البدان ٣ / ٧٨ ؛ القلقشندي ، صبح الاعشى ، ٥ / ٣٥١ .

[٣] الداوية : الداوية : *Templers* منظمة عسكرية تطلق على جماعة فرسان المعبد أُسست عام ٥١٢هـ/١١١٩م لحماية طريق الحجاج النصارى بين يافا وبيت المقدس ثم تحولت بعد ذلك إلى هيئة عسكرية كان لها دور كبير في ارهاب المسلمين وقتلهم ومساندة الحملات الصليبية على بلاد الشام . ينظر : دريد عبد القادر نوري ، سياسة صلاح الدين في بلاد مصر والشام والجزيرة (مطبعة الارشاد – بغداد ، ١٩٧٦) ، ص٨٠–٨١ ؛ اللهيبي ، مملكة ارمينية الصغرى ، ص ٣٧ ، هامش رقم (٣) .

[٤] طرخان ، مصر في عصر ، ص ١٠٥ ؛ المسلمون في أوربا ، ص ٨٢ .

علماً انه عندما تم القضاء على جيوب المقاومة في جزيرة قبرص سنة (٨٢٩هـ / ١٤٢٥م) لم يبق أمام دولة المماليك الجراكسة سوى هيئة فرسان الاسبتارية في جزيرة رودس [١] علماً أن أهداف جزيرة قبرص وجزيرة رودس مشتركة من ناحية التعاون السياسي والحربي ضد المسلمين في مصر وبلاد الشام المتمثلة بالدولة المملوكية والدولة العثمانية بآسيا الصغرى ، إلاّ أن هذا الامر لم يدم طويلاً لان السلطان برسباي قطع الطريق عليهم بسيطرته الكاملة على جزيرة قبرص [٢] .

لقد كانت بداية العلاقات الجركسية الرودسية سليمة نوعاً ما من حيث انها كانت مبينة على عقد المعاهدات ، ففي عهد السلطان الناصر فرج تم عقد معاهدة سنة (٨٠٦هـ / ١٤٠٣م) مع رئيس الاسبتارية فيليبير دي نالياك ***Philipert de naillac*** (٧٩٩-٨٢٤هـ/١٣٩٦-١٤٢١م) والتي نصت على إنشاء قنصلية في الإسكندرية ودمياط والرملة وبيت المقدس ، فضلاً عن تأكيدها على وضع نظام للتبادل التجاري بينهما ، وكذلك ركزت على سفر حجاج رودس إلى القدس [٣] ولقد استمرت العلاقات الجركسية الرودسية بالودية إلى أن تمكنت القوات البحرية الجركسية بفتح جزيرة قبرص في عهد السلطان برسباي ، عندئذٍ شعر فرسان الاسبتارية في جزيرة رودس بالترقب والحذر ، وعُدَّ فتح قبرص بمثابة إنذار لهم ، وقد تأكد ذلك من خلال المفاوضات التي جرت حول فدية الملك جانوس حاكم قبرص ،

---

[١] لم يكن دخول فرسان الاسبتارية مباشرة إلى جزيرة رودس ، فقد اتجهوا إلى جزيرة قبرص بعد سقوط عكا ، وبعد ذلك بدأوا يتدخلون في شؤون قبرص الداخلية مّما أدى ذلك إلى حصول اضطرابات داخل الجزيرة حتى اصبح وجودهم غير مرغوب فيه ، لذلك اضطروا إلى البحث عن مكان آخر يستقرون فيه ، ليقوموا بأعمال القرصنة في البحر المتوسط ، طرخان ، مصر في عصر ، ص ٩٨ عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢ / ١٢٣٢ ، ففي سنة (٧٠٨هـ / ١٣٠٨م) دخلوا جزيرة رودس بعد المساعدة التي قدمها لهم صاحب جزيرة كوس (*cos*) فينولودي فينولي واشاد الغرب الكاثوليكي آنذاك بانه اعظم انتصار صليبي على البيزنطيين الارثوذكس ، للمزيد ينظر : ستيفن رنسيمان ، تأريخ الحروب الصليبية ، ترجمة : الباز العريني (دار الثقافة ــ بيروت : ١٩٦٧م) ٣ / ٤٣٤ ؛ عاشور ، أوربا العصور ، ٢ / ٢٨٥ .

[٢] لقد امتزج تأريخ الجزيرتين في السياسة الخارجية ، ومن ناحية أخرى كان لفرسان الاسبتارية اقطاعات في جزيرة قبرص عرفت بأسم (دائرة الاسبتارية بجزيرة قبرص) ومركزها مدينة كولوس قرب مدينة ليماسول ، طرخان ، مصر في عصر ، ص ٩٩ .

[٣] *Lane – Pool , Egypt . P . ٣٣٨.*

حيث أعلن السلطان برسباي عن خطته لاستكمال عملية الفتح من القضاء على بقايا الصليبيين في جزيرة رودس ومن ثم ضمها إلى مملكته [1] وبتلك التصريحات استعد حـاكم الجزيـرة باصدار الاوامر لغرض إنشاء الحصون والأسوار والأبراج لتعزيز قوة الجزيرة ، فضلاً عن ارساله الجواسيس إلى الدولة الجركسية من أجل إيصال المعلومات عـن تحركـات القـوات الجركسية وعدد مقاتليها [2] .

ونتيجة لصلة جزيرة رودس بدولة المماليك الجراكسة ، فقد كان لحاكمها علمٌ بالمقدرة العسكرية التي تمتلكها القوة البحرية الجركسية ، لذا اتخذ جانب السلم وعدم الاعتـداء علـى الموانئ المصرية ، باستثناء فترات معينة يظهر فيها العداء عندما يـشعر إن هنـاك ضـعفاً عسكرياً للقوة البحرية الجركسية ، وعندها تنقلب العلاقات من ودية إلى عدائية ، لذا حـاول حاكم رودس الحفاظ على تلك العلاقات الودية بينه وبين الدولة الجركسية فقام بإرسال مبعوثه فليوفيان سنة (٨٣٠هـ / ١٤٢٦م) حاملاً رسالة إلى السلطان برسباي يطلـب فيهـا عقـد معاهدة سلم بين الدولتين ، فضلاً عن الهدايا المحملة للسلطان والتعهد له بدفع الجزية سـنوياً للسلطة الجركسية في مصر [3] وبعد أن مَثَلَ المبعوث أمامَ السلطان أبلغَهُ رسالة حاكم الجزيرة قائلاً فيها ((**أنه يطلب الامان وانه سأل أن يعفى من تجهيز العساكر الإسلامية إليه وان يقوم للسلطان مّما يطلب منه ...**)) [4] .

وهذا دليل على أن الدولة الجركسية قد بلغت أوج قوتها وبدأ يُحسب لها ألف حساب ، ولم يبق أمام صاحب الجزيرة سوى مراسلة ملوك أوربا وبشكل سري يطلب منهم المـساعدة بما لديهم من إمكانيات تخدم مصالح الجزيرة [5] . ومما هو ملاحظ أن فتح جزيرة رودس لم يتم في عهد السلطان برسباي وذلك لأسباب خارجية منها : الخطر التيموري من جهة الشمال

---

[1] عاشور ، أوربا العصور ، ١ / ٤٦٠-٤٦١ ؛ سالم ، تأريخ الاسكندرية ، ص ٧٩٥ .

[2] العبادي ، تأريخ البحرية ، ص ٣٣٦ . طرخان ، مصر في عصر ، ص ١٠٥ .

[3] المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٧٤١ ؛ آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٤ / ٣٠٦ .

[4] المقريزي ، السلوك، ج٤ / ق٢ / ٧٤١ ؛ آبن تغري بردي ، النجوم الزاهـرة ، ١٤ / ٣٠٦ ؛ حتـي ، تأريخ العرب ، ٨٢٥/٢ .

[5] تدمري ، تأريخ طرابلس ، ص ٢ / ١٨١ .

الشرقي والذي كان يهدد بلاد الشام بالاحتلال بقيادة شاه رخ [١] والخطر الثاني : متمثل بالاق قوينلو [٢] الذين تحالفوا منذ البدء مع التيموريين [٣] ، فضلاً عن هذا كله فقد كان لوفاة السلطان برسباي في سنة (٨٤٢هـ/١٤٨٣م) أيضاً تأثيره في تأخير عملية فتح جزيرة رودس، إلا أن المحاولات لم تنتهِ في الرغبة لفتح الجزيرة واستمرت في عهد السلطان جقمق، وقد نحا منحى سلفه في اهتمامه بالسيطرة على الجزيرة لأنها كانت تُشكلُ خطراً معادياً للدولة الجركسية [٤] .

وقبل التطرق إلى بداية انطلاق الحملات المملوكية إلى جزيرة رودس لابد من الاشارة الى انه كانت هناك اخطار تهدد الدولة الجركسية ، متمثلة بالعثمانيين والمغول (التيموريين) لذا وجد السلطان الجركسي نفسه أمام خطرين لا مناصَ منهما عندها استخدامَ سياسة المهادنة مع الدولة العثمانية حلاً للمشاكل المتعلقة بينهما .

أما ما يتعلق بالمغول (التيموريين) فقد كان الخطر الأكبر لانهم كانوا اكثر عدائية للدولة الجركسية بسبب توتر العلاقات في عهد السلطان السابق ، لهذا السبب اتبع السلطان تجاه هذا الخطر سياسة معتدلة مكنته من اقامة علاقات سلمية مع المغول وذلك باستقباله رُسل شاه رخ الذين جاءوا لتقديم فروض الطاعة والتهنئة له بالسلطنة ، فضلاً عن انهم طلبوا منه أن يكسوا الكعبة فوافق بدوره على ذلك [٥] .

---

[١] لقد اتصفت العلاقات المغولية الجركسية منذ البداية بالعدائية وتحديداً في عهد تيمورلنك المتوفى سنة (٨٠٨هـ/١٤٠٥م) وقد استمرت تلك العلاقة حتى عهد شاه رخ ، للمزيد من التفاصيل عن تلك العلاقة ينظر : آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٤ / ٣٦٨ .

[٢] الاق قوينلو (آغ قوينلو) : طائفة من التركمان البياندرية هاجروا من تركستان نحو اذربيجان بسبب الغزو المغولي فاستقروا في ديار بكر ، للمزيد من التفاصيل عن نشاطهم السياسي ينظر : الغياثي ، التأريخ الغياثي ، ص ٣٧٢ – ٣٩٥ .

[٣] علاء محمود خليل قداوي ، العراق في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي (اطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب – جامعة الموصل : ١٩٩٣م) ، ص ١٧١ .

[٤] السخاوي ، التبر المسبوك ، ص ٦٢ ؛ العبادي ، تأريخ البحرية ، ص ٣٣٧ .

[٥] عاشور ، قبرص والحروب ، ص ٢٤٠-٢٤١ .

مقابل ذلك ايضاً لابُدَّ من تسليط الضوء على حالة الوضع الداخلي لجزيرة رودس فقد كان مستقراً ، وكذلك كانت الجزيرة محصنة تحصيناً جيداً وخاصة بعد فتح جزيرة قبرص [1] ، فضلاً عن ذلك قام فرسان الاسبتارية بطلب المساعدة من الدول الاوربية حفاظاً على جزيرتهم من قيام الدولة الجركسية بالهجوم عليهم الا ان طلبهم تأخر ردُّهُ ، لذا اضطروا إزاء ذلك الى طلب عقد الصلح مع الجراكسة لكسب الوقت لحين وصول الإمدادات التي طلبوها من الجانب الأوربي ، وعلى ما يتضح إن النوايا لم تكن سلمية في طلب الصلح مع الدولة الجركسية بدليل قيامهم في سنة (٨٤٣هـ / ١٤٣٩م) بالهجوم على ميناء رشيد وتمكنوا من تدمير أربعة مراكب راسية فيه مّما أثار غضب السلطان الجركسي [2] فاقسم بعدها أن يقضي على اوكار هؤلاء القراصنة في جزيرة رودس ، وممّا شجع السلطان على القيام بمثل هذا الإجراء هو الدولة العثمانية التي وصلت إليها أخبار في عهد السلطان مراد الثاني (٨٢٤-٨٥٥هـ/١٤٢١-١٤٥١م) بان الفرسان الاسبتارية قرروا الانضمام إلى الحلف المسيحي في مقره بأوربا من اجل شن حرب صليبية كبرى ضد العثمانيين المسلمين [3] وبناءاً على ذلك اتصلت الدولة العثمانية بالسلطان جقمق وشجعته على فتح جزيرة رودس ليبعد الاسبتارية عن الانضمام إلى ذلك الحلف [4] إلا أن نية الدولة العثمانية كانت أبعد من ذلك لذا وجدت من مصلحتها ادخال الدولة الجركسية في حرب لكونها ذات قوة وسيادة في المنطقة وأنها تقف بوجه التوسع العثماني ، لذلك أرادت أن تضعف الدولة عسكرياً وسياسياً في حربها مع جزيرة رودس لكي تحقق هدفها الأكبر وهو السيطرة على المنطقة .

بدأت محاولات فتح جزيرة رودس بثلاث حملات بحرية انطلاقاً من مصر [5] ، إذ لابُدَّ من السؤال هل ان الحملات التي قامت بها الدولة الجركسية كانت حسب مقترح السلطان

---

[1] تدمري ، تأريخ طرابلس ، ٢ / ١٨١ ؛ عاشور ، العصر المملوكي ، ص ١٧ ؛ شاكر ، التأريخ الإسلامي ، ٧ / ٧٩ ؛ دراج ، الماليك ، ص ٥٦ .

[2] ماهر ، البحرية في مصر ، ص ١٢٣-١٢٤ ؛ عاشور ، العصر المملوكي ، ص ٢٤٢ ؛ شاكر ، التأريخ الاسلامي ، ٧ / ٨٠ .

[3] عاشور ، العصر المملوكي ، ص ١٧٠ ؛ تدمري ، تأريخ طربلس ، ٢ / ١٨٢ .

[4] عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢ / ١٢٣٥ ؛ تدمري ، تأريخ طربلس ، ٢ / ١٨١ .

[5] عن سير الحملات الثلاث ينظر الشكل رقم (٤) .

العثماني ام نتيجة للاعتداءات التي كانت تتعرض لها السواحل المملوكية من القراصنة الروادسة ؟ وجواباً على ذلك نقول إنّ الدولة الجركسية رأت أن مصلحتها تقتضي فتح جزيرة رودس لأنّ وجودها يؤثر اقتصادياً عليها وخاصة من الناحية التجارية فضلاً عن أنها أرادت إكمال خطها الدفاعي لكي تؤمن مرور المراكب التجارية إلى الموانئ المصرية ، ومن ثم القضاء على الصليبيين فيها .

وبعد الاستعداد الكامل لعملية الفتح تم انطلاق الحملة الأولى من ساحل بولاق سنة (٨٤٤هـ/١٤٤٠م) نحو جزيرة رودس ، بعد أن كثرت اعتداءاتهم على المراكب التجارية والاستيلاء عليها ، علماً أن الحملة كانت مكونة من خمسة عشر مركباً ومئتي مقاتل يقودها الأمير ابن تغري بردي برمش السلحدار[(١)] ويونس المحمودي أمير آخور [(٢)] ، وبعدها انضم إلى الحملة ألف متطوع آخر من أهالي القاهرة ودمياط ، واتجهت الحملة نحو ساحل جزيرة قبرص مزودة بالمؤن من قبل صاحب قبرص حنا الثاني ومن بعدها توجهت الحملة إلى مدينة العلايا [(٣)] وزودت من قبل صاحبها بالمراكب والمقاتلين [(٤)] وبالمقابل استعدت القوات الرودسية لمواجهة الحملة الجركسية التي استقرت بالقرب من رأس الرملة بأقصى شمال الجزيرة ، وواجهت الحملة هجوماً من قبل عشرة مراكب رودسية [(٥)]مّما جعل الحملة تنسحب باتجاه آسيا الصغرى لتأمين قواتها ، إلا أن ذلك لم يجدِ نفعاً لأن الهجمات الرودسية تابعتها في كل مكان ، ممّا دعاها إلى العودة من دون تحقيق هدفها سوى انها فتحت قرية صغيرة [(٦)].

---

(١) السلحدار : هو المسؤول عن السلاح السلطانية . ينظر : القلقشندي ، صبح الاعشى ، ٤ / ١٩ .

(٢) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٥ / ٣٤١-٣٤٢ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، ٢ / ٢٢٤ .

(٣) العلايا : مدينة على الشاطئ الجنوبي بآسيا الصغرى من بلاد الروم ، وقد بناها علاء الدين احد ملوك السلاجقة ولذلك عرفت باسمه ينظر : أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٣٨١ ؛ ابن يحيى ، تأريخ بيروت ، ص ٥٥.

(٤) المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ١٢١٠ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٥ / ٣٤١-٣٤٢ ، ٣٥، ٣٥١ ، ٣٦٠-٣٦٣ ؛

Lane-pool , Egypt , p. ٣٣٨.

(٥) ماهر ، البحرية في مصر ، ص ١٢٥ .

(٦) المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ١٢١٠ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٥ / ٣٤١-٣٤٢ .

وعلى ما يبدو أن اسباب فشل الحملة يعود إلى ما يأتي :

أولاً : قلة العدد والعدة للحملة من حيث عدد المقاتلين والمراكب التي لم تكن بالمستوى الكافي .

ثانياً : المقاومة القوية التي واجهتها الحملة من قبل القوات الرودسية ، وهذا ما اربك البحرية الجركسية .

ثالثاً : التحصين المنيع للجزيرة الذي انهك الحملة وبالتالي منعها من الدخول إلى الجزيرة [1] .

وعلى الرغم من فشل الحملة ، إلا انها لم تقلل من عزيمة السلطان واصرار مقاتليه الذي علق بدوره عنها بأنها حملة استطلاعية الغاية منها معرفة مدى قوة قتالهم ومقاومتهم قياساً لاعدائهم [2] ، وبناءاً على ذلك جهز السلطان حملة ثانية كانت اكثر عدة وعدداً من الحملة الاولى ، فضلاً عن اتخاذه اجراءات خاصة في تشكيل الحملة غير ما كان في الحملة الأولى ، فقد قسمت إلى قسمين الأول : بحري بقيادة الأمير تمرباي ، أما القسم الثاني : فكان بري بقيادة الأمير اينال العلائي الناصري ، بعد ذلك تم الاستعداد الكامل للحملة وانضم إليها عددٌ لا بأسَ به من المتطوعين ، ومن ثمَّ انطلقت من ساحل بولاق سنة (٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م) باتجاه شواطئ بلاد الشام من آجل تزويد الحملة بقوات إضافية تعزيزاً لها ، وجهزت من قبل نواب بلاد الشام [3] وبعد ذلك أبحرت الحملة إلى جزيرة رودس وبوصولها واجهت مقاومة كبيرة من قبل أصحاب الجزيرة مَما عرقل عملية الفتح ، فلم تكن لهم حظوة في ذلك غير فتح حصن الأشهب المعروف بآسم قشتيل الروج [4] واسر عدد كبير منهم ، وبهذا عادت الحملة إلى مصر من دون تحقيق ما تصبو إليه وهو فتح جزيرة رودس .

---

(١) *Lane– pool , Egypt , p. ٣٣٩.*

(٢) المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ١٢٠٥ ؛ تدمري ، تأريخ طرابلس ، ٢ / ١٨٥ .

(٣) آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٥ / ٣٥١ ؛ آبن اياس ، بدائع الزهور ، ٢ / ٢٣٨ ؛ السخاوي ، التبر المسبوك ، ص ٢٥ .

(٤) قشتيل الروج : *Chateau Raoux* أو حصن الاشهب جزيرة صغيرة تابعة لفرسان الاسبتارية يقع بساحل آسيا الصغرى الجنوبي . ينظر : آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٥ / ٣٥٢ .

وعلى الرغم ممّا نتج عن الحملتين الأولى والثانية إلا أن هذا لم يثنِ السلطان عن عزيمته في مواصلة جهوده لفتح جزيرة رودس فلذلك اعد حملة ثالثة [1] إذ أصدرت الأوامر السلطانية سنة (٨٤٨هـ/١٤٤٤م) إلى قائدي الحملة الأمير يلخجا قائد الجناح البحري ، والأمير اينال الاجرود قائد الجناح البري بالتحرك من الإسكندرية ودمياط في وقت واحد ونقل الجند ، ومن ثم التوجه إلى طرابلس لتعزيز الحملة بقوات أخرى ، ومن بعدها توجهت الحملة إلى جزيرة رودس [2] ، وقد كان الهدف من ذلك هو فتح الجزيرة بأقل خسائر لذلك فقد راعت القوات البحرية بقيادة الأمير يلبخا على سير الحملة من أن ألا تتعرض إلى أي هجوم من جهة البحر ، وفي أثناء ذلك التقت الحملة بقوات رودسية مشتركة معها قوات بحرية كتلانية ، ودار بينهما قتالٌ لعدة أيام ، لكن الحملة لم تتمكن من اقتحام القوات الرودسية للقوة الدفاعية التي واجهتها من داخل الجزيرة ، فضلاً عن التحصين المحكم للجزيرة ، والدليل على ذلك ما قاله آبن تغري بردي ((**ومدينة رودس لا تزداد إلا قوة ، لشدة مقاتليها ولعظم عمارتها ، وقد تأهبوا وحصنوا رودس بالآلات والسلاح والمقاتلة**)) [3] .

أما من ناحية الجناح البري فقد تمكنوا من السيطرة على إحدى الكنائس الواقعة بالقرب من جزيرة رودس ، لكنهم لم ينعموا كثيراً فيها لأن القوات الرودسية فاجأتهم بهجوم معاكس اودى بحياة الكثير منهم وتم ارجاع الكنيسة منهم [4] .

وعلى الرغم ممّا تَمَّ تحقيقه من نتائج إيجابية للحملة الجركسية ، إلا أن فتح جزيرة رودس ليس بالشيء السهل ، لأنباء ورود إمدادات ومساعدات من قبل البرجنديين [5] ، والكتلانيين ، مّما اثر ذلك على نفسية المقاتلين ، فطلب قائد الحملة من السلطان الجركسي

---

(1) آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٥ / ٣٥٢ ، ٣٦٣ ؛ السخاوي ، التبر المسبوك ، ص ٢٥ ؛ تدمري، تأريخ طرابلس ، ٢ / ١٨٧ .

(2) آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٥ / ٣٦٠ .

(3) النجوم الزاهرة ، ١٥ / ٣٦١-٣٦٢ .

(4) آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٥ / ٣٦١-٣٦٢ .

(5) البرجنديون : احد القبائل الجرمانية الساكنة في القسم الشرقي لالمانية . ينظر : نعيم فرح ، تأريخ أوربا في العصور الوسطى (مطبعة طبرين – دمشق : ١٩٧٨م) ، ص ٢٩ ؛

E. B. " Bergen ", Vol. ٣, p. ٥٠٤.

إرسال قوات اضافية تعزيزاً لحملته [١] التي لاقت مقاومة شديدة ، ممّا اضطرها إلى الانسحاب والعودة إلى مصر ، وقد علّق السخاوي على ذلك قائلاً : **((انه لم يتم للعسكر قصد ولا رجعوا بطائل ولهذا فترت همتهم عند الجهاد في المرة لهذه الجهة ، ولله عاقبة الأمور))** [٢].

وتبين لنا أن انسحاب القوات الجركسية كان مقروناً بعدة أمور منها : مناعة الجزيرة بحيث جعلت القوات الجركسية تنتظر طويلاً خارج حدود الجزيرة ، مّما جعلهم يتذمرون من ذلك ، والأمر الآخر هو الدعم المقدم من أوربا لأهل الجزيرة والذي رفع معنويات أصحاب الجزيرة وجعلهم اكثر قوة في المقاومة ، فضلاً عن ذلك تأخر وصول الإمدادات للقوات البحرية الجركسية من مصر وبالمقابل فقد اصبح موقف الحملة صعباً بسبب نفاذ المؤن والامدادات ، فلذلك كان الانسحاب الحل الوحيد لديهم حفاظاً على حملتهم من الدمار هذا من ناحية ، ومن ناحية الجانب الرودسي ، فقد استغلوا ذلك الضعف والانسحاب للحملة الجركسية، لذا طلبوا المساعدة للمرة الثانية من الجانب الأوربي بأن يرسلوا لهم إمدادات ومساعدات تعزيزاً لهم وابعاد الخطر الجركسي عن جزيرتهم ، لكن طلبهم لم يستجاب له في هذه المرة ، لانشغال أوربا بمشاكلها الخاصة ولكنهم اقترحوا عليهم امراً على لسان البابا بان يتولوا امورهم بانفسهم ويحاولوا أن يقيموا علاقات ودّية مع الدولة الجركسية [٣] .

ونتيجة للموقف السلبي من قبل الجانب الأوربي والخطر العثماني الذي بدء يهدد كيان جزيرتهم شعر فرسان الاسبتارية في جزيرة رودس بأنهم فقدوا القوة الكافية لمقاومة الدولة الجركسية والتوسع العثماني [٤] الأمر الذي انعكس على العلاقات الجركسية الرودسية

---

[١] آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٥ / ٣٦٠-٣٦٣ ؛ آبن اياس ، بدائع الزهور ، ٢ / ٢٤٣ ؛ السخاوي ، التبر المسبوك ، ص ٨٨ .

[٢] التبر المسبوك ، ص ٨٧ .

[٣] *Lane – Pool , Egypt , . P . ٣٣٩.*

[٤] لقد اتسمت العلاقات العثمانية الرودسية بالتوتر ، ونتيجة لذلك أرسل صاحب رودس الملك لاستيك إلى السلطان العثماني مراد الثاني للتأكد من صحة المعلومات حول المساعدة العثمانية للجراكسة وتشجيعهم لهم، لذلك طلب صاحب رودس بتوثيق العلاقات العثمانية الرودسية بتجديد المعاهدة المعقودة بينهما فاعتذر السلطان العثماني لذلك . للمزيد ينظر : طرخان ، مصر في عصر ، ص ١٠٧- ١٠٨ .

بالايجابية ، وتأكيداً لذلك عندما حاولت جزيرة قبرص التابعة للدولة الجركسية من اعادة ثغر جريجوس بآسيا الصغرى ، إذ كتب ملك رودس لاستيك (٨٤١-٨٥٨هـ/١٤٣٧-١٤٥٤م) بانه مستعد لمساعدة قبرص حربياً وانه تابعٌ لها [١] .

وممّا هو ملاحظ أن العلاقات الجركسية الرودسية اتسمت بالسلمية خلال عهد السلطان جقمق ، إلا انها اضطربت في عهد السلطان اينال ، وبما ان دولة المماليك الجراكسة تعد جزيرة رودس مصدرَ تهديد لها من الناحيتين السياسية والاقتصادية ، وذلك لتداخل جزيرة رودس سياسياً مع شؤون قبرص الداخلية وخاصة في مسألة الحكم في قبرص ، ومن المعلوم أن رودس أيدت شارلوت في توليها حكم الجزيرة في حين أيدت الدولة الجركسية أخاها جيمس ، وهذا ما أدّى إلى حرب أهلية عرفت بأسم (حرب الوراثة) داخل جزيرة قبرص [٢] الأمر الذي كان سبباً في تأزم العلاقة بينهما ، فكان ردّ الدولة الجركسية رداً معادياً ، إذ افصح عن موقف السلطان الجركسي تجاه ذلك ، حيث أمر بالسيطرة على الأملاك التابعة لفرسان الاسبتارية في جزيرة قبرص ، إلا أن الجانب الرودسي لم يرد حينها لغاية تسلم السلطان خشقدم وعندئذ قاموا بالاستيلاء على ثلاثة مراكب تابعة للجراكسة في سنة (٨٦٩هـ/١٤٦٤) كانت تبحر بالقرب من جزيرة رودس ، وكانت محملة بالبضائع للتجار المراكشيين منطلقة من ميناء الإسكندرية إلى المغرب العربي ، فضلاً عن ذلك أخذت القوة البحرية الرودسية تفرض سيطرتها وحركتها في البحر ، مّما أدى إلى الإضرار بالتجارة المملوكية وعرقلة حركة السفن المتوجهة من بلاد الشام إلى مصر [٣] ورداً على تلك الأعمال والتهديدات التي كانت تواجه الجراكسة أرسل السلطان حملة بحرية من أجل وضع حدٌ لتلك الانتهاكات ، وكذلك اصدر السلطان أمرا بإلقاء القبض على تجارهم وقناصلهم ومؤيديهم من التجار الأجانب ، وممّا هو جدير بالذكر أن قوات البندقية قامت بالهجوم على جزيرة رودس وتمكنت من إعادة المراكب الثلاثة وفرض غرامة مالية عليهم [٤] .

---

[١] طرخان ، مصر في عصر ، ١١٢ ؛ فهمي ، طرق التجارة ، ص ٥١ .

[٢] طرخان ، مصر في عصر ، ١١٢ .

[٣] فهمي ، طرق التجارة ، ص ٥١ .

[٤] سليم ، عصر سلاطين ، ١ / ٥١ .

إلا ان العلاقات الجركسية الرودسية في عهد السلطان قايتباي (٨٧٢-٩٠١هـ/١٤٦٧-١٤٩٥م) اتسمت بالهدوء والحذر على الرغم مّما تخللها من أعمال عدائية ، فقد قامت البحرية الرودسية بالهجوم على الموانى المصرية وخاصة ميناء الإسكندرية ، ممّا حفز السلطان إلى تحصين الموانئ لحمايتها من أعمال القرصنة [١] علماً أن طبيعة العلاقة طول فترة حكم السلطان قايتباي كانت عامة سلمية طوال التسعة والعشرين عاماً ، وعلى الرغم من ذلك لم تذكر المصادر وجود عقد آية هدنة أو معاهدة بين الجانبين ، والسؤال الذي يطرح نفسه : لِمَ كان ذلك الفتور في العلاقة ؟ والاجابة تتبين من خلال سير الأحداث في أن جزيرة رودس كانت تعيش وضعاً داخلياً مضطرباً بسبب الصراع على العرش ، ممّا انعكس على الجزيرة داخلياً وخارجياً ، فضلاً عن ضعف البحرية الرودسية الذي قابله تعاونٌ بندقيٌ جركسيٌ كان له الأثر في ازدياد مخاوف الروادسة ، ومن ناحية اخرى فان الدولة الجركسية كانت تخشى ان تفتح على نفسها جبهتين في آن واحد ، إذ انها ارسلت عدة حملات إلى إمارة ذي الغادر التركمانية في سنة (٨٧٦هـ/١٤٧١م) الواقعة في أطراف بلاد الشام وإمارة الشاه البيضاء [٢] اللتين كانتا متفقتين على عقد تحالفٍ بينهما وبين القوات الأوربية لغرض القيام بالهجوم ضد الدولة الجركسية والدولة العثمانية ، أما على الصعيد الداخلي فقد انصرفت الدولة إلى الاهتمام بالأوضاع الاقتصادية لما لها من أهمية في بناء الدولة [٣].

بعد أن شهدت العلاقات المصرية الرودسية هدوءاً نسبياً إلا أن عادت واتخذت الطابع العدائي في عهد السلطان قانصوة الغوري (٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠٠-١٥١٦م) [٤] فقامت بالهجوم على المراكب المملوكية في موانئ الإسكندرية ودمياط وصور ، وبالمقابل لم يكن رد

---

(١) عبد الرحمن محمود عبد التواب ، قايتباي المحمودي (الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ مصر : ١٩٧٨م) ، ص ١٣٨-١٣٩ .

(٢) لقد أرسل السلطان حملة إلى زعيم تلك الامارة شاه سوار ، واستطاعت تلك الحملة هزيمة قوات هذه الامارة واسر زعيمها، فضلاً عن ذلك لم تتوقف الأعمال الخارجية إذ أرسل السلطان حملة إلى امارة الشاه البيضاء التي تزعمها حسن الطويل وقد تمكنت الحملة من احراز النصر . شاكر ، التأريخ الإسلامي ، ٧ / ٨٤ .

(٣) عبد التواب ، قايتباي المحمودي ، ص ١٣٩ .

(٤) السخاوي ، التبر المسبوك ، ص ٣٢٣ ؛ طرخان ، مصر في عصر ، ١١٢ .

الدولة الجركسية رداً عسكرياً بل اتخذت سياسة التهديد لمعالجة الموقف ، إذ فرضت غرامة مالية على جميع التجار الفرنجيين من دون أي استثناء وتم سجن عدد كبير منهم [١] ، وعلى الرغم من تلك التهديدات استمرت أعمال القرصنة الرودسية ضد الدولة الجركسية ، فقامت بالاستيلاء على سبعة عشر مركباً تحمل مُؤناً واخشاباً لصنع المراكب وتعويضاً للدولة الجركسية عما فقدته في موقعة ديو ***Diu*** سنة (٩١٤هـ/١٥٠٨م) [٢] ولهذا اصدر السلطان امراً بالقاء القبض على جميع رجال الدين في القدس الشريفة واعتقال كل شخص أوربي في الموانئ المصرية والشامية ، وكذلك فقد أمر السلطان باحضار خمسة وعشرين راهباً وامرهم بكتابة الرسائل إلى ملوك أوربا من أجل إعادة المراكب التي استولى عليها القراصنة الروادسة ، فضلاً عن قيام السلطان بتوجيه إنذار ينص على إغلاق كنيسة القيامة ، وتنفيذاً لأمره أغلقت في سنة (٩١٧هـ/١٥١١م) [٣] .

وعلى ما يبدو أن الدولة الجركسية كانت تلجأ إلى مثل تلك السياسة عندما ترى أنها عاجزة عن الرد عسكرياً ، وهذا ما كان متبعاً عند أغلب السلاطين الجراكسة غير أن سوء العلاقات بين الجراكسة وحكام رودس أثّرَ سلباً على سائر الدول وخصوصاً البنادقة ، الذين قاموا بدور الوسيط فحاولوا اقناع ملك رودس برد الأسرى المحتجزين لديهم ورد أموالهم ، لكن هذا المقترح لم يكلل بالقبول ممّا جعل البنادقة أن يشنوا هجوماً على جزيرة رودس لإجبار ملك رودس على قَبول ذلك المقترح [٤] .

وعلى الرغم من كل ذلك لم يجد البنادقة حلاً مناسباً للنزاع بين الجراكسة وحكام رودس لذا تدخل الفرنسيون عن طريق التاجر الفرنسي جاك كير الذي نجح في عقد صلح (٩٢١هـ/١٥١٦م) بين السلطان الجركسي قانصوة الغوري والملك الرودسي لاستيك ، ومن

---

[١] *Lane – Pool , Egypt , . P . ٣٣٩.*

[٢] موقعة ديو : تقع في الاطراف الجنوبية لشبه جزيرة كتاوة وفيها دارت المعركة بين القوات البحرية الجركسية والبحرية البرتغالية في المحيط الهندي . للمزيد من التفاصيل ينظر :

E.B." Diu " Vol. ٧, p. ٥٠٥.

[٣] ماهر ، البحرية في مصر ، ص ١٢٦ ؛ طرخان ، مصر في عصر ، ص ١١٤ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢ / ١٢٣٦ ؛ شلبي ، الموسوعة الاسلامية ، ٥ / ٢٠٩ .

[٤] العبادي ، تأريخ البحرية ، ص٣٣٩ .

نتائج ذلك الصلح حصول الموافقة على اطلاق سراح الأسرى وعودتهم إلى بلادهم [١] ، وممّا ساعد ايضاً على عقد الصلح بين الطرفين بروز قوتين على المسرح السياسي ، واللتين كانتا تشكلان خطراً مباشراً لكلا الطرفين متمثلتين بالدولة العثمانية من جهة البحر المتوسط شمالاً والثانية دولة البرتغال من جهة المحيط الهندي والبحر الأحمر جنوباً [٢] ، ولتلافي خطرهما عقد معاهدة صلح بين الجراكسة والروادسة ، وبقي الحال على ما هو عليه حتى نهاية الدولة الجركسية سنة (٩٢٢هـ/١٥١٦م) [٣] ، وبهذا تسنى للدولة العثمانية السيطرة على جزيرة رودس بحكم قرب الموقع الجغرافي منها ، واصبحت بذلك تحت سيطرة العثمانيين [٤] .

---

[١] طرخان ، مصر في عصر ، ص ١١٠ -١١١؛

Lane – Pool , Egypt , . P . ٣٣٩.

[٢] طرخان ، مصر في عصر ، ص ١١٠ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢ / ١٢٣٦ .

[٣] *Halil Inalcik , Bursa and the Commerce of the Levant (Journal of the Economic and Social History of the Orient – Leiden : ١٩٦١) , Vol. ٣, Part. ٣, p. ١٤٥ ; Lane – Pool , Egypt , . P . ٣٣٩.*

[٤] لقد واجهت الدولة العثمانية اتهاماً إلى صاحب رودس بانه أرسل مركباً إلى الدولة الجركسية في أثناء عقد المعاهدة معها من اجل محاربة الدولة العثمانية ، لذلك قررت بالتوجه نحو رودس والسيطرة عليها ، فتم ارسال حملة في سنة (٩٢٢هـ/١٥١٦م) فسيطرت عليها ، وبذلك انتقل مركز الفرسان الاسبتارية إلى جزيرة مالطة واستقروا فيها إلى عهد نابليون بونابرت فتم القضاء عليهم . طرخان ، مصر في عصر ، ص ١١٤ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢ / ١٢٣٦ ؛ ماهر ، البحرية في مصر ، ص ١٢٦ ؛

Lane – Pool , Egypt , p. ٣٣٩.

الفصل الثاني : العلاقات السياسية المصرية الأوربية

أولاً : علاقة مصر مع الممالك الاسبانية

١. العلاقات المصرية - الاراغوانية (٨٢٨-٩٢٠هـ/١٤٢٤- ١٥١٤م)

٢.العلاقات المصرية - الكتالونية (٨١٨-٩٢٢هـ/١٤١٥-١٥١٦م)

٣.العلاقات المصرية - القشتالية

ثانياً : علاقة مصر مع الممالك الإيطالية

١.العلاقات المصرية - الجنوية (٧٨٥-٨٦١هـ/١٣٨٣-١٤٥٧م)

٢.العلاقات المصرية - البندقية (٨١٨- ٩٢٢هـ/١٤١٥-١٥١٦م)

ثالثاً : العلاقات المصرية - الفرنسية (٨٢٥-٩٢٢هـ/١٤٢١-١٥١٦م)

أولاً : علاقة مصر مع الممالك الاسبانية[١]

١.العلاقات المصرية ــ الاراغوانية[٢] (٨٢٨ -٩٢٠هــ/١٤٢٤-١٥١٤م)

بعد انهاء الوجود الصليبي في بلاد الشام وسقوط آخر معقل لهم أصبحت الدول الأوربية في موقف صعب ، ولاسيما بعد أن كانت مسيطرة على تلك المنطقة المهمة لأكثر من قرنين ونصف من الزمان ، مما ترك أثراً عميقاً في نفوس الأوربيين عامة والممالك الاسبانية خاصةً ، ومنها أراغون التي كانت لها علاقات سياسية وتجارية مع القوى الإسلامية في المنطقة العربية ، فضلاً عن الطرق التجارية الحيوية في مصر وبلاد الشام ، ممّا أثر ذلك على طبيعة العلاقات بين الشرق والغرب ، والتي تباينت ما بين السلمية والعدائية [٣] ، وبذلك لم تشهد الدولة الجركسية منذ قيامها أية علاقات سياسية مع اراغون ، ويعود ذلك إلى الأحداث السياسية المضطربة التي شهدتها الساحة السياسية للدولة الجركسية ، وتعرضت موانئها إلى أعمال القرصنة بين الحين والآخر، وخاصة من القبار صة والروادسة ، فضلاً عن وجود القوات الإفرنجية الأخرى المتمثلة بالجنويين والكتلانيين الذين شكلوا خطراً على الكيان السياسي للدولة الجركسية ، وكذلك فان الاراغوانيين لم تكن ليديهم أية علاقات منذ البداية مع الدولة الجركسية ، لانهم لا يمتلكون القوة العسكرية الكافية آنذاك [٤] .

إلا أن بداية العلاقات المصرية الاراغوانية ظهرت في سنة (٨٢٨هــ/١٤٢٤م) واتسمت بالعدائية منذ البدء،عندما قامت مجموعة من القراصنة الاراغوانيين بالاعتداء على

---

[١] تعد اسبانيا من الدول الأوربية المهمة ، إذ تقع في الجهة الجنوبية الغربية من قارة أوربا وتحد فرنسا واندورا من الشمال والمحيط الاطلسي ومنطقة جبل طارق من الجنوب ، والبحر المتوسط من الشرق ، ومن جهة الغرب فهي محاذاة للبرتغال . ينظر : مصطفى فاخوري ، الاقطار والبلدان (دار المعرفة – بيروت : ٢٠٠٣م) ، ص ٢١ .

[٢] اراغون : تشمل ثلاث مناطق هي (ارغون وكتالونيا وفالنسيا) . ينظر : فرح ، تأريخ أوربا ،ص ٢٩ ؛ *E. B ." Aragon " , Vol. ٢, p. ٢٠٤.*

[٣] محمد عبدالله عنان ، مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة : ١٩٦٩م) ، ص ١٦٩ .

[٤] عنان ، مصر الإسلامية ، ص ١٧٧ ؛ حياة ناصر الحجي ، العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الأسبانية في القرنيين الثامن والتاسع الهجري / الرابع عشر والخامس عشر الميلادي ، دراسة وثائقية (مطبعة كويت تايمز – كويت : ١٩٨٠م) ، ص ١٤١ .

ميناء صور ، فردَّ أهل الميناء على ذلك فقتلوا عدداً كبيراً منهم ، وبالمقابل استشهد خمسون مقاتلاً من المسلمين [١] ، واستمراراً لسياستهم العدائية يذكر الصيرفي في سنة (٨٣١هـ/١٤٢٧م) قائلاً : ((**وفي اوائل شوال وصلت مراكب فيها فرنج إلى الميناء بثغر اسكندرية واحرقوا فيها مركباً**)) [٢] ، ورداً على ذلك امر السلطان الاميرين جانبك وكمشبغا الاحمدي ومعهم خمسون مملوكاً بالتوجه إلى ميناء الاسكندرية ، وفي أثناء ذلك وصلت اخبار تؤكد بان الافرنج قد انسحبوا من الميناء وانتهى الأمر ، عندئذٍ لم ينفذ السير إلى الميناء بحسب ما امر به السلطان [٣] ، وبعد سنة من ذلك الاعتداء قام القراصنة الاراغوانيون بالهجوم على الميناء نفسه ، إلا أن اهل الميناء بقيادة الأمير زين الدين ابن أبي الفرج تمكنوا من التصدي لهم والحاق الهزيمة بهم [٤] .

وعلى ما يبدو ان بداية العلاقة العدائية بين الجراكسة والارغوانيين بهذا التأريخ بالذات كان له سببٌ مهمٌ ، وهو اقتناص فرصة انشغال الدولة الجركسية في التصدي لانتهاكات الجنويين والكتلانيين ، ممّا دفعهم إلى القيام بأعمال عدائية ضد الدولة الجركسية .

وبعد فشل المحاولتين اللتين قام بهما القراصنة الاراغوانيون على الموانئ المصرية ، فضلاً عن كشف التحالف الافرنجي الحبشي ، وخاصة عندما أرسل الحطي [ملك الحبشة] مبعوثه ويدعى علي التبريزي العجمي [٥] إلى الافرنج في سنة (٨٣٢هـ/١٤٢٨م) ، وتمكن الدولة الجركسية من فتح جزيرة قبرص واسر ملكها جانوس ، كلف المبعوث الحبشي بدعوة الافرنج الى التعاون المشترك للقضاء على الاسلام وخاصة الدولة الجركسية ، ويعلق

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٦٨٤ .

(٢) نزهة النفوس ، ٣ / ١٣٣ .

(٣) الصيرفي ، نزهة النفوس ، ٣ / ١٣٣ .

(٤) المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٨٠٢-٨٠٣ .

(٥) علي التبريزي العجمي : احد التجار الاعاجم بمصر ، قد كان يعمل بالتجارة بين الحبشة ومصر وبذلك تقرب من ملك الحبشة فصنع له الصلبان من الذهب فوثقَ به وتم ارساله إلى الافرنج . ينظر : آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٤ / ٣٢٤-٣٢٥ .

المقريزي على ذلك قائلاً : ((**فانه قد عزم ان يسير من بلاد الحبشة في البر بعساكره ، فتلاقوه بجموعكم في البحر إلى سواحل بلاد المسلمين**)) [1] ، الا انه عندما عاد المبعوث الحبشي فوجئ بالقاء القبض عليه من قبل الدولة الجركسية ، وذلك ما حفز السلطان الجركسي على عقد معاهدة مع مملكة ارغوان في سنة (٨٣٣هـ/١٤٣٠م) لتوثيق العلاقات السياسية والتجارية بين الجراكسة والاراغوانيين [2] ، فبعث كل ملك من ينوب عنه للتفاوض والاتفاق مع الجانب الاخر ، فأرسل ملك اراغون الفونسو الخامس اثنين من تجار برشلونة هما رفائيل فرا ولويز سرونت ليكونا ، في حين أرسل السلطان برسباي مبعوثه ناصر الدين محمد بن الميمون وسيف الدين شاهر النعمان ، فكانت جزيرة رودس هي المقر لاجتماعهم ، وقد منحوا صلاحيات مطلقة لوضع شروط تخدم الجانبين ، فتم عقد المعاهدة التي نصت على البنود الآتية :

البند الأول : يتم عقد صلح ثابت بينهم واعتبار كل ما حصل من خلافات واعتداءات لا وجود لها ، وهذا يعني ارساء قواعد العلاقات الدائمة بينهما .

البند الثاني : ينص على ان يحق لرعايا مملكة اراغوان القدوم إلى جميع أقاليم سلطنة المماليك والتنقل بكل حرية بين موانئها ، وان يقيموا في كل مكان يناسبهم والسماح لهم بالبيع والشراء حسبما يروق لهم ، وبالطريقة التي تحقق لهم الفائدة المُرضية .

البند الثالث : يتضمن مراعاةً للاهتمامات الاقتصادية لما يخدم المنافع التجارية المشتركة بينهما ، أي في حالة تعرض المراكب الارغوانية لاعمال قرصنة في البحر فيجب على الدولة الجركسية توفير الحماية والمساعدة اللازمة للمراكب الارغوانية ، مقابل ذلك في حالة تعرض المراكب الجركسية إلى اعتداء مماثل فعلى الارغوانيين القيام بالعمل ذاته .

البند الرابع : عدم تعرض نظار الاراغوانيين لأي ضغوط مالية مع اعطائهم الحرية التامة في التصرف بما يحملونه معهم من اموال وبضائع .

(1) السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٧٩٥ ؛ آبن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٣ / ١٤٩-١٥٠ ؛ آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٤ / ٣٢٤-٣٢٥ .

(2) سالم ، تأريخ الاسكندرية ، ص ١٦٨ ؛ عنان ، مصر الإسلامية ، ص ١٧٦ -١٧٧ .

البند الخامس : في حالة وصول التجار الاراغوانيين إلى الموانئ المصرية يسمح لهم بتصريف بعض من بضائعهم وحسبما يرغبون به .

البند السادس : تناول تنظيم الشؤون التجارية بين البلدين ، فيبين انه إذا حضر التجار الاراغوانيون إلى البلاد الجركسية لا يلزمون بدفع شيء من الضرائب ، أو الغرامات إلى السلطات الرسمية كضريبة شرعية .

البند السابع : عدم اجبار التجار الاراغوانيين في دفع الضريبة العشرية حتى يتم بيع جميع بضائعهم الا إذا كانوا يرغبون شخصياً بدفع الضريبة قبل البيع .

البند الثامن : يتضمن منح التجار الاراغوانيين امتيازات تجارية خاصة تسهل لهم العمل التجاري داخل الدولة الجركسية .

البند التاسع : في حالة وجود دين لاحد الرعايا المماليك عند احد التجار الاراغوانيين على صاحب الدين ان يبرز ورقة تثبت حقه في الدين مع اثبات وجود شهود على ذلك .

البند العاشر : في حالة قيام فئة من الاراغوانيين أو من سائر اجناس الافرنج بالاعتداء على الموانئ المصرية ، يكون لزاماً على ملك ارغوان معاقبة الجناة .

البند الحادي عشر : يوضح فيه انه لا يحكم بين الرعايا الاراغوانيين وبين الرعايا المماليك في الخصومات الا امير أو ناظر الديوان السلطاني .

البند الثاني عشر : في حالة استئجار أحد من المسلمين أو رعايا السلطان مراكب اراغوانية ، فان على المستأجر اعطاء رهائن للأجير ضماناً لاعادة تلك المراكب ، وحفاظاً عليها من السرقة .

البند الثالث عشر : عدم السماح بسجن الرعايا الاراغوانيين في سجن المسلمين إلا إذا صدر امر سلطاني بذلك ، واذا لم يصدر فحينئذٍ يحتجزون في فندق الرعايا الاراغوانيين .

البند الرابع عشر : منح التجار الاراغوانيين حرية التجارة بنقل الذهب لمصلحة احد الرعايا المماليك ، فضلاً عن ذلك منحهم الحرية في اختيار ما يرغبون فيه من المترجمين في عملية البيع والشراء .

البند الخامس عشر : لا يحق للناظر في الديوان ولحاشية السلطان التعرض لرعايا مملكة اراغوان أو مضايقتهم .

البند السادس عشر : في حالة عقد صفقة تجارية بين التجار الاراغوانيين والمماليك الجركسية ، فيجب وزن البضائع في المقر الرسمي المخصص من قبل الدولة، والمسمى (ديوان القبان) .

البند السابع عشر : يتضمن على انه في حالة قيام أحد الدلالين ببيع بعض البضائع الخاصة لتاجر اراغواني إلى تاجر مسلم ، عندئذٍ يلزم القانون الملكي الدلال بدفع ثمن البضاعة في حالة هروب التاجر المسلم أو عدم دفعه المبلغ .

البند الثامن عشر : لا يحق للسلطان ولا ناظر الديوان منع أحد من الدلالين من شراء بضاعة من التاجر الاراغواني .

البند التاسع عشر : يحق للتاجر الاراغواني الحرية الكاملة في مقابلة السلطان المملوكي في أي وقت وان تتكفل الدولة المملوكية ببناء فندق للتجار الاراغوانيين على حساب الدولة المملوكية .

البند العشرون : يعطى القنصل [١] الاراغواني حق الفصل في المنازعات التي قد تحدث بين رعايا مملكته ، وان تخصص له الدولة المملوكية راتباً شهرياً .

البند الحادي والعشرون : في حالة اتفاق الجانبين على عقد صلح بينهما عندئذٍ يلزم كلاهما بتطبيق بنود العقد . وقد تضمنت المعاهدة شرطاً اراغوانياً نهائياً إلا انه اساسي إلى حدٍ كبير وهو اشتراط المبعوثيين الاراغوانيين على ألا يتم حلف ولا صلح إلا إذا امر السلطان المملوكي الاشرف برسباي باطلاق سراح من اسر من رعاياهم ، لذا يعد العمل بهذه الوثيقة مشروطاً بتنفيذ هذا الأمر الاساسي والا تعد هذه المعاهدة ملغاة [٢] .

وبعد توقيع المعاهدة حاول الجانبان الاستفادة منها مع اننا لم نصل إلى حقيقة غاية السلطان برسباي من عقد تلك المعاهدة ، فيا ترى هل كان السلطان يهدف من وراء ذلك

---

[١] القنصل : ويعد هذا المنصب من الهيئات المشرفة على التجارة الخارجية وقد ظهرت هذه الوظيفة في تجارة البحر المتوسط في مصر وبلاد الشام والقسطنطينية ، ولهذا اصبح من الضروري وجود هيئة كهيئة القنصل لتقوي الوساطة بين التجار والسلطات المحلية ، وقد اطلق عليها في بعض الاحيان (المندوبون التجاريون) . ينظر :

E. I. " Consul ", Vol. ١١, p. ٦٠ – ٦١.

[٢] الحجي ، العلاقات بين سلطنة ، ص ٢٦٥ – ٣٣١ ؛ عنان ، مصر الإسلامية ، ص ١٧٦ –١٧٧ .

تحقيق الازدهار الاقتصادي لدولته عن طريق توافد التجار الاراغوانيين إلى موانئ دولته كافة ولهذا منحهم امتيازات خاصة لم يمنحها لغيرهم ؟ ام كان يهدف من وراء تلك المعاهدة تحقيق اغراض اخرى لبلاده ليكون هو المستفيد الأول من المعاهدة .

ولم يمضِ وقت طويل على عقد تلك المعاهدة حتى بانت نوايا السلطان الجركسي الاحتكارية ، والتي اخذت حيزاً كبيراً من سياسته ، فقد حاول السيطرة على الوضع التجاري لحسابه الخاص ، وقد علق المقريزي على ذلك قائلاً : ((**وفي هذه الايام اوقعت الحوطة على فلفل التجار بالقاهرة ومصر والاسكندرية ، ليشتري للسلطان من حسابه خمسين ديناراً الحمل ، وكان قد بيع عليهم فلفل السلطان في أول هذه السنة بسبعين ديناراً الحمل** [(١)] ، **ورسم بان يكون الفلفل مختصاً بمتجر السلطان** [(٢)] ، **ولا يشتريه من تجار الهند الواردين [الوافدين] إلى جدة غيره ، ولا يبيعه لتجار الفرنج القادمين إلى ثغر الاسكندرية سواه فنزل بالتجارة من ذلك بلاء كبير**)) [(٣)] .

إلا ان السياسة الاحتكارية التي اتبعها السلطان دلت على ان الجراكسة كان هدفهم الوحيد هو المصلحة الشخصية فوق كل شيء ، وهذا يعود إلى انهم لا يملكون الحس القومي تجاه بلادهم ، ومن هنا أخذت العلاقات الجركسية الاراغوانية طابعاً عدائياً ، مما ترتب على ذلك تأثيرات سلبية أثرت على الدولة الجركسية داخلياً وخارجياً ، فمن ناحية التأثير الداخلي فقد ارتفعت أسعار السلع ممّا شكل تذمراً عند الشعب من جراء ذلك ، اما التاثير الخارجي ، وهو الاهم والاخطر الذي قصم الشريان الحيوي للدولة فلأنه يخص الجانب التجاري لها ، كما اثرت هذه العلاقة العدائية على الجراكسة وكان لها بالمقابل تأثيرٌ مماثلٌ على الاراغوانيين ، فقد فقدوا كل الامتيازات التي منحتها لهم الدولة الجركسية من خلال المعاهدة التي عقدت بينهما ، وبعدها قام القراصنة الاراغوانيون في سنة (٨٣٧هـ/١٤٣٣م) بالاستيلاء على ثمانية مراكب تجارية مملوكية في السواحل الشامية وكانت محملة بالبضائع ، وقتلوا قسماً ممّن كان

---

(١) الحِمل : يساوي (٥٠٠ رطل) أي ما يعادل (٢٥٠كغم) تقريباً وهو مقدار ما يحمله البعير من الفلفل . ينظر : هنتس ، المكاييل والاوزان الإسلامية ، ص ٢٧ .

(٢) المتجر السلطاني : هو المكان الذي تخزن فيه بضائع السلطان لحسابه الخاص . ينظر : المقريزي ، السلوك ، ج ٤ / ق٢ / ٤٨٦ .

(٣) السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٨٦٩ ؛ ينظر : الصيرفي ، نزهة النفوس ، ٣ / ٢٣٥ .

فيها وأسروا القسم الآخر [1] ، ورداً على ذلك الفعل العدائي من قبل الاراغوانيين ، أصدر السلطان الجركسي مرسوماً إلى نواب الاسكندرية ودمياط ينص على القاء القبض على كافة الرعايا الموجودين هناك واخراجهم من البلاد السلطانية نتيجة لما حدث [2] ، وكان هذا إجراءاً تقليدياً سار عليه اغلب سلاطين الجراكسة في حالة تعرض الدولة لاكثر من خطر يهدد كيانها السياسي ، وفي أثناء ذلك كانت الدولة منشغلة بمهاجمة مدينة آمد ومحاصرتها من اجل رد خطر قرايلك التركماني [3] .

وعلى ما يبدو أن صدى إصدار الأمر السلطاني كان له تاثيرٌ ايجابي نوعاً ما في مصلحة الدولة الجركسية من ناحية انه اثار حفيظة عدد من تجار البلدان الأخرى وانهم على أتم استعداد للضغط على أي دولة تقوم باعمال عدائية ضد الدولة الجركسية ، لوجود مصالح مشتركة بينهم وبين الجراكسة ، وهذا الأمر كان لصالح الدولة المعتدى عليها من اجل إيقاف أي اعتداء ضدها عندما لا تستطيع الرد عسكرياً .

وقد كان تاثير السياسة الاحتكارية من قبل السلطان برسباي حتى بعد وفاته سلباً على من جاء من بعده من سلاطين ، فبعد ان تولى السلطان جقمق عرش السلطنة ، تعرض ميناء رشيد إلى عملية قرصنة [4] من قبل القراصنة الاراغوانيين ، فاستولوا على الميناء وقاموا بأعمال السلب والنهب ، ورداً على ذلك امر السلطان الأمير اسبغا الطياري ، والامير شاديك الجكمي وهما أمراء الالوف [5] ، بمصر بالتوجه إلى الميناء لمقاتلة الغزاة الصليبيين ، فبعد وصول الحملة تعرض مركب الأمير الطياري للاحتراق بواسطة المدافع الاراغوانية ،

---

[1] المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٩٢١ .

[2] السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٩٢١ ، ٩٦٦ ؛ الصيرفي ، نزهة النفوس ، ٣ / ٣٤٠ .

[3] المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٩٠٦ ؛ الصيرفي ، نزهة النفوس ، ٣ / / ٢٥٧ ؛ آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٥ / ٤٣ .

[4] كانت الحملة الاراغوانية مكونة من أربعة مراكب . للمزيد من التفاصيل . ينظر : ، آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٥ / ٣٣٤ .

[5] أمراء الالوف : وتعد من اعلى المراتب العسكرية في الدولة الجركسية . ينظر : القلقشندي ، صبح الاعشى ، ٤ / ١٤ .

فالقى نفسه بالبحر وركب بمركب آخر فعاد إلى بلاده [١] .

وعلى ما يبدو كان لعودة الحملة إلى مصر دون ان تحقق هدفها الذي تصبو إليه اسباب منها :ان القوة العسكرية للحملة لم تكن بالمستوى المطلوب ، مقارنةً بالقوة البحرية الاراغوانية التي كانت مجهزة تجهيزاً حربياً كاملاً ، مما أدى إلى انسحاب الحملة وعودتها إلى مصر . وعلى الرغم من كل هذا كانت الدولة الجركسية على اتصال دائم مع سائر البلدان العربية الإسلامية ومتابعة للتطورات كافة التي تحصل هناك لكون مصر تعد مقراً للخلافة الإسلامية انذاك ، فمن واجبها الدفاع عن الأراضي التابعة لها عن طريق إرسال الجيوش أو عن طريق الحوار الدبلوماسي ، فعندما طلب مسلمو الأندلس المساعدة من السلطان جقمق سنة (٨٤٤هـ/١٤٤٠م) من اجل إيقاف الخطر الأسباني الذي يحاول السيطرة على مملكة غرناطة ، عندئذٍ أبدى السلطان استعداده لإرسال المال والسلاح إليهم [٢] من دون إرسال حملة وذلك لأسباب أبرزها :

أ. بعد المسافة بين البلدين مما يؤخر وصول الجيش اليهم لبضعة اشهر حتى يصل إلى الاندلس .

ب. فضلاً عن ان الدولة الجركسية لا تملك الجيش الكافي للحرب .

ت. ناهيك عن السبب الذي يعد من أهم الأسباب الذي منع الدولة الجركسية من إرسال جيش إلى الأندلس ألا وهو الخطر الصليبي المتمثل في جزيرة رودس .

لقد كان للتفكك الوحدوي بين المسلمين آنذاك المتمثل بالعثمانيين والجراكسة والاندلس، تأثير بحيث شجع القراصنة الأوربيين في الاستمرار باعمالهم العدائية على سواحل مصر وبلاد الشام ، لذلك تغير موقف الدولة الجركسية من الهجوم إلى الدفاع ، وبهذا تعرض ميناء دمياط لهجوم القراصنة الاراغوانيين ، فتصدت لهم البحرية الجركسية لكنها لم تتمكن من إيقاف ذلك التهديد ، فكان الموقف لصالح البحرية الافرنجية [٣] .

---

[١] آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٥ / ٣٣٤ .

[٢] محمد عبد السيد راقد واخرون ، الغزو العثماني لمصر ونتائجه على الوطن العربي (مطبعة م. ك. -الاسكندرية : ١٩٧٢م) ، ص ٢٠٨ .

[٣] المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ١١٧٠ .

ان كثرة اعتداءات القراصنة الاراغوانيين في اكثر من ميناء عرقلت الدولة الجركسية عن مواجهتهم ، فبعد الاعتداء على ميناء دمياط وخسارة البحرية الجركسية أمام قواتهم ، بدأت الاستعدادات الجركسية لإيقاف تلك الاعتداءات في سنة (٨٤٤هـ/١٤٤٠م) فالاراغوانيين استمروا بدورهم في مهاجمة المراكب التجارية المحملة ببضائع المسلمين واموالهم ، ورداً على ذلك تحركت حملة من ساحل بولاق مؤلفة من خمسة عشر مركباً مجهزاً بمئتي مقاتل بقيادة تغري برش الردكات من أمراء العشرة ويونس المحمودي أمير آخور [١] لكن تلك الحملة لم يكتب لها النجاح ، فعلى ما يبدو كان السبب الحقيقي لذلك هو انشغال الدولة الجركسية في حربها مع جزيرة رودس .

لقد بقيت العلاقات المصرية الاراغوانية عدائية والتي استمرت طوال فترة حكم الملك الاراغواني الفونسو الخامس الذي كان متشوقاً لتحقيق مشروعه الصليبي ، الذي كان يهدف إلى التحالف مع القائد الالباني اسكندريك ضد الأتراك وبالمقابل يقوم بالتحالف ايضاً مع الأحباش ضد المماليك ، وهكذا اتخذت العلاقات نمطاً اكثر توتراً وعداءاً ، ومما زاد في ذلك الأمر هو استمرارقرصنة الاراغوانيين على الموانئ المصرية ، فضلاً عن رغبتهم في السيطرة على البحر الابيض المتوسط شرقاً وغرباً ، وخاصةً بعد استيلاء الملك الاراغواني الفونسو الخامس على مملكة نابلي في سنة (٨٤٦هـ/١٤٤٢م) ونتيجة للسياسية الارغوانية المعادية قررت الدولة الجركسية اغلاق المنافذ التجارية أمام التجار الاراغوانيين في سنة (٨٥٢هـ/١٤٤٨م) [٢] .

وعلى الرغم من استمرار السياسة العدائية بين الجراكسة والاراغوان ، إلا ان هناك من حاول التدخل لتغيير طبيعة العلاقة نحو الافضل ، فقد كان لفرسان الاسبتارية في عهد حنا دي لاستيك دورٌ في ذلك لذا قاموا بإرسال بعثة إلى مدينة برشلونة لغرض الوساطة لابلاغ الملك عن استعداد السلطان جقمق لعقد الصلح مع الملك الاسباني الفونسو الخامس مقابل توقف القراصنة الاراغوانيين عن الاعتداء على السواحل والموانئ المصرية والشامية ، فقام ملك

---

[١] امير آخور : الاخور كلمة معربة من اللغة الفارسية تعني المعلف أو المذود ثم اطلقت على الإسطبل ، أما امير آخور فتعني هنا المسؤول عن بريد السلطان . ينظر : القلقشندي ، صبح الاعشى ، ٤ / ١٩ .

[٢] دراج ، المماليك والفرنج ، ص ٦٥-٦٦ .

برشلونة ازاء ذلك بايصال رسالة إلى الفونسو الخامس ذاكراً فيها مدى الخسائر التي أصابت التجار الكتلان وغيرهم من التجار الأوربيين ، الذين بدورهم استنجدوا أيضاً بمطالبتهم الملك الاراغواني عقد الصلح مع الدولة الجركسية ، فأرسلوا من يمثلهم في هذه المهمة التاجر يوحنا سبارز ***Johan Spaser*** ، إلا ان الملك الاراغواني الفونسو الخامس لم يأبه بتلك الوساطة ولا بذلك الطلب ، واستمر في مواصلة الاعتداء على سفن المسلمين في البحر المتوسط ، وخاصةً التي تقوم بالنقل البحري بين الاسكندرية وطرابلس الشام [1] ، ومما يثير التساؤل هو هل ان الوساطة الاسبتارية كان هدفها سياسياً ام تجارياً ؟ والاجابة على ذلك يمكن ان نستشفها من خلال مراقبة سير الأحداث ، إذ ان الفرسان الاسبتاريين كانت لهم املاك في جزيرة قبرص ، فهذه الوساطة كانت من اجل الحفاظ نوعاً ما على أملاكها ، فضلاً عن شعور الاسبتارية بخطر الجراكسة بعد فتحهم لجزيرة قبرص ، لذا فقد ارادوا التقرب اليهم ارضاءاً لهم ، وبذلك يمكننا القول ان الوساطة كان هدفُها تجارياً وسياسياً معاً .

اما فيما يتعلق بالتحالف الاراغواني ــ الحبشي ضد الدولة الجركسية ، فقد أرسل ملك الحبشة زرع يعقوب (٨٣٨-٨٧٣هـ/١٤٣٤-١٤٦٨م) سفراءَهُ برئاسة الراهب ميخائيل إلى ملك اراغوان ، فانطلقت البعثة إلى روما أولاً ، إذ استقبلها البابا الذي أيد ذلك الأمر ، ومن ثم تابعت البعثة طريقها متوجهة إلى اراغون بمساعدة احد اهالي مدينة مسينا [2] ، فوصلت في سنة (٨٥٤هـ/١٤٥٠م) ، وقد ابدى الملك الاراغواني الفونسو الخامس استعداده لارسال اسطول متكون من مئة وخمسين سفينة لمهاجمة السواحل المصرية والشامية، في حين تقوم الحبشة بمهاجمة الحدود المملوكية من جهة الجنوب [3] ، ومن جهة اخرى قام الملك الاراغواني قبل وصول سفراء ملك الحبشة بإرسال بعض وحدات اسطوله بقيادة برنات دي فلا ماري ***Bernat de Vilamari*** للاستكشاف عن مدى مناعة التحصينات في السواحل والموانئ الجركسية في مصر وبلاد الشام ، وهذا ما حدا بالسلطان

---

[1] دراج ، المماليك والفرنج ، ص ٦٦ .

[2] مسينا : احدى المدن الرئيسة في ايطاليا ، وتعد من المدن المهمة وتقع على مضيق مسينا على بعد حوالي (١١كم) جنوب وجنوب غرب كيب فارو . ينظر :

E. B. " Messina ", Vol. ١٥, p. ٢١٣.

[3] دراج ، المماليك والفرنج ، ص ٦٦ -٦٧ .

المملوكي ان يقوم بتعزيز حماية السواحل والثغور ، وعلى الرغم من ذلك فقد وصلت الاخبار إلى السلطان بان الافرنج قد هاجموا ميناء صور وصولاً إلى ميناء رشيد والطينية ، واستولوا على مافيه[1].

واستمراراً لسياسة التحالف الارغواني ـ الحبشي ، عاود الملك الاراغواني الفونسو الخامس إلى التعاون مرة ثانية مع ملك الحبشة لتنفيذ مشروعهما للقضاء على الدولة المملوكية، إلا ان ذلك التحالف لم يكتب له النجاح ، لتعذر وصول السفيرين سالمين إلى الحبشة ، وذلك لعدول ملك الحبشة عن فكرته في التحالف مع ملك اراغوان ونابلي ، بعد أن قرر التحالف مع ملك البرتغال ، أما الملك الفونسو الخامس فقد واصل سياسته العدائية للدولة الجركسية حتى وفاته في سنة (٨٦٣هـ/١٤٥٨م) مع بقاء استمرار القراصنة الاراغوانيين باعتداءاتهم على السفن المملوكية في البحر المتوسط ، وبهذا بقيت العلاقات عدائية حتى في عهد السلطان قايتباي ، فقد أرسل صاحب الاندلس أبو عبدالله من ملوك بني الأحمر سنة (٨٩٢هـ/١٤٨٦م) كتاباً طلب فيه من الدولة الجركسية ان ترسل المساعدة العسكرية لقتال الفرنج الذين حاصروا مملكة غرناطة التي اشرفت على السقوط [2] وتلبيةً لذلك الطلب ، أرسل السلطان بعثة مكونة من القساوسة المقيمين بكنيسة القيامة بالقدس الشريف ، فأرسلوا بدورهم رسالة إلى ملك اراغون طالبين منه سحب قواته عن مملكة غرناطة ، واذا لم يمتثل بذلك فسوف تتخذ الدولة المملوكية اجراءات بحق القساوسة المقيمين هناك ، فضلاً عن انها ستمنع جميع الطوائف الافرنجية من الدخول إلى كنيسة القيامة [3] ، ومن خلال سير الأحداث نصل إلى عهد السلطان الغوري فنلاحظ ايضاً انه لا وجود للتغيير في العلاقات بين مصر واراغون ، على الرغم من وجود المراسلات التي تبعها فترات سلم ، وفي خضم تلك الأحداث أرسل

---

[1] السخاوي ، التبر المسبوك ، ص ٣٢٣ - ٣٢٤ .

[2] دراج ، المماليك والفرنج ، ص ٦٩-٧٠ ؛ سليم ، عصر سلاطين ، ٢ / ٢٢٤ ؛ فهمي ، طرق التجارة ، ص ٢٩ .

[3] سليم ، عصر سلاطين ، ٢ / ٢٢٤ .

السلطان الغوري إلى ملـوك الافرنج رسالة يحذرهم فيهـا مـن مغبـة معاملـة المـسلمين بالاندلـس بـاي نوع من أنـواع السوء ، والا فسيتخذ اجراء غير مناسب من قبل الدولـة الجركسـية بحق رعاياهم [1] .

وعلى ما يبدو ان هناك نوعاً من الاتصال بين القوة الأوربية بهدف الاستيلاء علـى الموانئ التابعة للدولة الجركسية من اجل السلب والنهب للمراكب المحملة بالبـضائع كافـة ، فضلاً عن وجود اعتداءات فردية في معظم الاحيان وثنائية في احيان اخرى ، إلا ان هذا لـم يؤثر على الدولة الجركسية لانها كانت في بوابة المواجهة لتلك الاعتداءات على الـصعيدين السياسي والعسكري [2] .

٢.العلاقات المصرية ــ الكتالونية (٨١٨-٩٢٢هـ/١٤١٥-١٥١٦م)

تعد كتالونيا إحدى المناطق الأسبانية التي تضم أربع مدن هي برشـلونة وجيرونـة وليريدا وتراكونة) ، وتقع في الشـمال الشـرقي لأسـبانية ، يحدها من الـشمال انـدورا وفرنسا ومن جهة الغرب الاراغون ، ويحدها من الجنوب فالنسيا والبحر الابيض المتوسط من الشرق [3] .

لقد بدأت العلاقات المصرية ــ الكتالونية منذ سنة (٨١٨هـــ/١٤١٥م) ، وتميـزت بالعدائية خاصة بعد أن قام القراصنة الكتلان في السنة بالاستيلاء على مراكب تابعة للتجـار التونسيين ، وذلك ما اثار مخاوف اقارب التجار المقيمين بمصر ، فقدموا شكوى إلى السلطان المؤيد لغرض مساعدتهم عن طريق الضغط على التجار الكتلانيين ، وتلبيةً لطلـبهم اصـدر السلطان أمراً إلى التجار الكتلانيين كافة المقيمين بمصر وبلاد الشام ان يدفعوا اليهم تعويضاً مالياً مقداره ثلاثون ألف دوك (العملة الذهبية لجمهورية البندقية) ، ولكن الطلب الـسلطاني رفض من قبل القنصل الكتلاني بالإسكندرية الذي سارع بإبلاغ مواطنيـه بدمـشق بوجـوب

[1] ابن اياس ، بدائع الزهور ، ٤ /١٩٥،١٩٢ ، ٢٥٩ ؛ سليم ، عصر سلاطين ، ٧ / ٢٠١ .

[2] الحجي ، علاقات بين سلطنة ، ص ٣٤٥ .

[3] *E. B. " Catalonia , Vol. ٥, p. ٥٩.*

مغادرة البلاد ، إلا ان السلطات الجركسية تمكنت من إلقاء القبض علـى القنـصل الكتلانـي وعاقبته اشد عقاب ، فرد حاكم كتلانية العنف بالعنف فأمر قراصنته بالهجوم على السـواحل المصرية والشامية ، فاغاروا سنة (٨١٩هـ/١٤١٦م) على يافا وأسروا خمسين أسيراً [١] .

واستمراراً لسياستهم العدائية هاجم القراصنة الكتلان ميناء الاسكندرية ، لانهم فوجئوا بوجود مراكب تجارية للبنادقة ، فواجهوها وتمكن الكتلانيون من الاسـتيلاء علـى مراكـب البنادقة التجارية ، وقتلوا عدداً منهم وأسروا القسم الاخر ، وواصلوا سيرهم إلى ميناء رشيد ، عندئذ أرسل السلطان برسباي الأمير جرباش قاشوق حاجب السلطان لتعقبهم والقضاء عليهم ، فكان النصر حليف القوات الجركسية وانهزم سائر الكتلان ، إلا انهم عاودوا اعتداءاتهم للمرة الثانية ، فهاجموا حوالي ثمانية مراكب قـادمـة من مدينة العلايـا القبرصـية إلـى ميناء الاسكندرية واستولوا عليها [٢] .

ومما هو جدير بالذكر ان طبيعة العلاقة المصرية ـ الكتلانية كان ينتابها نـوع مـن الفتور في بعض الاحيان ، وهذا يعود إلى الوضع السياسي لكلا الدولتين ، فالدولة الجركسية كانت منشغلة تماماً في كيفية السيطرة على جزيرة قبرص ، اما بخصوص الكتلانيين ، فقـد كانت لهم خلافات سياسية مع فرنسا ، فضلاً عن عدم امتلاكهم القوة الكافية لمواجهـة القـوة العسكرية الجركسية ، ولذا لم تشهد بينهما أي علاقة عدائية إلا في سنة (٨٣٦هـ/١٤٣٢م) حين تعرض ميناء الاسكندرية إلى اعتداء مشترك من لدن القراصنة الكتلانيين والجنـويين ، فاستولوا على عدد من المراكب التجارية المحملة بالبضائع ، فضلاً عن استيلائهم على مركب آخر قادم من ميناء دمياط ، إلا ان ردَّ الدولة الجركسية على ذلك الاعتداء جاء عـن طريـق اتباع سياسة التهديد والضغط ، فاصدر السلطان أمراً يقضي بحجز الاموال العائـدة للتجـار الجنويين والكتلانيين داخل الدولة ، وهذا ما أشار إليه المقريزي قائلاً : ((**بايقـاع الحوطـة على أمـوال الفرنج الجنويـة والقطـلان دون البنادقـة ، فـأحيط بامـوالهم بالـشـام والاسكندرية**)) [٣] .

---

[١] دراج ، المماليك والفرنج ، ص ٢٥ .

[٢] دراج ، المماليك والفرنج ، ص ٢٥ -٢٦ .

[٣] المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق ٢ / ٨٨٢ ؛ الصيرفي ، نزهة النفوس ، ٣ / ٢٤٩ .

يتبين من تحليل نص الخطاب ان الدولة الجركسية غير قادرة على الـرد عـسكرياً ، وهذا يعود إلى عدم امتلاك الجراكسة قوة بحرية كافية للرد على تلك الاعتداءات الخارجيـة لذلك اعتمدت سياسة التهديد ، إلا ان هذا كان له مردود ايجابي لمصلحة الدولة الجركـسية ، فمن ناحية انه اظهر بمظهر القوة السياسية التي تستطيع اتخاذ اجراءات تمكنها من الـضغط على القراصنة هذا من جانب ، اما فيما يتعلق بالبنادقة الذين استثناهم من ذلك القرار ، فكـان ذلك بسبب العلاقة الودية بينهما ، وخاصة في المجال التجاري ، فضلاً عن الدور الذي قام به البنادقة من خلال تشجيعهم للسلطان برسباي على فتح جزيرة قبرص التـي كـان لموقعهـا الجغرافي تأثيرٌ كبيرٌ عليهما ، وخاصةً فيما يتعلق بالتبادل التجاري .

ونتيجة لذلك الاجراء أرسل الملك الكتلاني كتاباً يُحذّر فيه السلطان الجركسي من سوء معاملة رعاياه الموجودين في مناطق نفوذه وخاصة التجار الافـرنج ، ويوضـح للـسلطان الجركسي أنه لن يسمح لتجار دولته بشراء بضائع السلطان ، إلا ان رد الدولة الجركسية على السفير الكتلاني كان رداً رادعاً وقاسياً [1] ، وانتقاماً لهذا الرد القاسي قام القراصـنة الكـتلان بالهجوم على ساحل بيروت في سنة (٨٣٧هـ/١٤٣٤م) ، فاستولوا على خمـسة مراكـب تجارية محملة بالبضائع والرجال ، ولم يكتفوا بذلك ، بل قام ملكهم بإرسال كتاب إلى والـي دمياط ليوصله بدوره إلى السلطان برسباي يذكر فيه ((**جفاء ومخاشنة في المخاطبة بـسبب الزام الفرنج ان يشتروا الفلفل والمعد للمتجر السلطاني ، فغضب السلطان لما قرئ عليـه ، ومزقـه**)) [2] ، ورداً على ذلك الكتاب امر السلطان الجركسي بتجهيز حملة بحرية إلى ميناء دمياط لغرض التصدي للمراكب الافرنجية (الصليبية) ، فتحركت الحملة نحو ساحل بيروت فسيطرت على مراكب تابعة لدول مختلفة منها البندقية وجنوة وكاتلونيا [3] ، وقد كانت تلـك الحملة بمثابة إنذار إلى القوى الأوربية كافة التي تحاول القيام باعمال عدائيـة ضـد الدولـة الجركسية .

---

[1] المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٨٨٥ ؛ الصيرفي ، نزهة النفوس ، ٣ / ٢٥٣ .

[2] المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٩١٤ ؛ ينظر : آبن حجر العسقلاني ، أنبـاء الغمـر ، ٣ / ٥١٨ ؛ الصيرفي ، نزهة النفوس ، ٣ / ٢٨٥ .

[3] المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٩١٩ ؛ الصيرفي ، نزهة النفوس ، ٣ / ٢٩٠ .

ونتيجة لذلك كان رد فعل القوى الافرنجية ومنها الكتلانية الهجوم في سنة (٨٤٠هـ-١٤٣٦م) على ميناء بوقير الواقع خارج مدينة الاسكندرية والتي تمكنت البحرية الكتلانية من الاستيلاء على مركبين للدولة الجركسية ، إلا ان اهالي الميناء لم يقفوا مكتوفي الايدي ، فتصدوا لهم بقيادة اميرهم اقباي بن عبدالله الدوادار لإنقاذ أحد المراكب ، أما المركب الآخر فقد أحراقه القراصنة الكتلان ، واستمراراً لاعمالهم العدائية تجاه الموانئ المصرية فقد شنوا هجوماً اخراً في السنة ذاتها على ميناء الاسكندرية الذي كان يضم الكثير من المراكب التجارية الجنوية ، وحرصاً على مصالحهم المشتركة مع الجراكسة تصدوا للغزاة وتمكنوا من طردهم [1] .

وفي عهد السلطان جقمق لم تشهد العلاقات المصرية الكتلانية أي تغير يذكر بل استمرت الاعتداءات الكتلانية على الموانئ المصرية ، مستغلةً انشغال الدولة الجركسية في حربها ضد الاسبتاريين في جزيرة رودس التي مثلت آخر معقلٍ للصليبيين في شرق البحر المتوسط ووكراً من أوكار القراصنة للاغارة على السواحل والموانئ المصرية والشامية ، وكانت تساندها البحرية الكتلانية لمحاربة المماليك الجراكسة ، لكن ذلك لم يثبط من عزيمة الجراكسة ، فقد اثبتوا جدارتهم القتالية ضد القراصنة الكتلان [2] .

واستمر التصعيد العدائي بين الجانبين وصولاً إلى عهد السلطان قايتباي ، حيث اصبحت العلاقات اكثر سوءاً وتوتراً من ذي قبل ، وهذا يعود إلى قيام القراصنة الكتلان في سنة (٨٧٥هـ/١٤٧٠م) بالاستيلاء على مركب تجاري بالقرب من السواحل المصرية ، وكان من ضمن الذين اسروا أفراد من أقارب السلطان ، ولذلك اصدر السلطان أمراً يقضي بالقاء القبض على التجار الكتلانيين كافة وادخالهم السجن ، متبعاً سياسة اسلافه من سلاطين المماليك الجراكسة ، فضلاً عن ابلاغه بعدم اطلاق سراح اسراهم إلا بعد اطلاق سراح أسرى الجراكسة لديهم [3] ، ورداً على ذلك قام التجار بإرسال قناصلهم إلى ملكهم يطالبونه باطلاق سراح التجار المحتجزين لديه حتى يطلق سراح اصحابهم من التجار ، لكن طلبهم لم يحظَ

---

[1] المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٩٩٤ .

[2] تدمري ، تأريخ طرابلس ، ٢ / ١٨٨ ؛ دراج ، المماليك والفرنج ، ص ٤٨ .

[3] فهمي ، طرق التجارة ، ص ٦٤ .

بالرد والقبول من قبل ملكهم الذي طلب مبلغاً من المال مقابل اطلاق سراح الاسرى الجراكسة، وبالفعل تم دفع الفدية واطلق سراحهم على الفور ، مقابل ذلك فان الدولة الجركسية قامت في اتباع سياسة الحرب الاقتصادية ضد التجار الكتلانيين للتخلص من خطرهم واضعافهم اقتصادياً ، عن طريق إبلاغ الجاليات الاجنبية كافة بمقاطعة تجار كاتلونيا وضرب مصالحهم في البحر ، وهذا الإجراء الجركسي قد حفز الكتلانيين على اقامة تحالف مع قشتالة لانهاء الحكم الاسلامي في مملكة غرناطة سنة (٨٩٣هـ/١٤٨٧م) الذي طلب حاكمها الأمير عبدالله المساعدة من الدولة الجركسية لايقاف التهديد الاسباني [١] ، إلا ان السلطان الجركسي ادرك خطورة سقوط مملكة غرناطة [٢] ، وما يترتب عليه من آثار سلبية تؤثر على المنطقة سياسياً واقتصادياً لكونها تعد من ابرز الممالك الإسلامية الباقية في الأندلس لذا لم يستطع السلطان الجركسي تقديم المساعدات العسكرية ، بسبب تعرض حدود دولته الشمالية إلى تهديد الدولة العثمانية ، وكذلك بعد المسافة ، وانما اكتفى بارساله الدعم المالي وارسال بعثة يرأسها رئيس الاساقفة في بيت المقدس ويدعى ماروس لتأدية المهمة المكلف بها وبدوره يقوم بإرسال مبعوث إلى ملك نابولي لما له من علاقة طيبة مع الملك فردناند يطلب منه ان يتعهد بعدم الاعتداء على المسلمين ورفع الاذى عنهم ، وبالمقابل قررت الدولة الجركسية منع دخول حجاجهم إلى الاراضي المقدسة ، وفرض قيود شديدة على التجار الأوربيين كافة ، وخاصة الكتلانيين منهم [٣] .

على ما يبدو ان تلك الاجراءات كانت مجرد كلمات من دون فعل ، إذ لم يكن لها أي تطبيق من الجانبين على أرض الواقع ، بدليل ان العلاقات بين المصريين والكتلانيين لم تتغير في عهد السلطان الغوري ، وبقيت على ما هي عليه من العدائية واكتفت بسياسة التهديد فقط ، بعيدة عن الهجمات الحربية ، لذلك فقد طلب أمراء مراكش وتونس وحكام الدولة العربية في

---

(١) فهمي ، طرق التجارة ، ص ٦٤-٦٦ .

(٢) كان سقوط غرناطة سنة (٨٩٨هـ/١٤٩٢م) على ايدي القائد الاسباني فردناند ومعه ايزابيلا اللذان توجها إلى مهاجمة السواحل المغربية على أمل السيطرة على شمالي أفريقيا . ينظر : دراج ، المماليك والفرنج ، ص ١٢٧-١٢٨ .

(٣) دراج ، المماليك والفرنج ، ص ١٢٧،١٢٨ ؛ فهمي ، طرق التجارة ، ٦٥-٦٦ .

شمال أفريقيا المساعدة العسكرية من السلطان الغوري من أجل استعادة إماراتهم التي استولت عليها القوات الاسبانية ، وفي حالة تعذر تحقيق مطلبهم فانهم يطالبون السلطان باتخاذ اجـــراءٍ ثانٍ ، وهو منع حجاجهم من الدخول إلى الاراضي المقدسة ، وتجارهم مـــن المتـــاجرة فـــي الموانئ التابعة للدولة الجركسية [1] ، وتنفيذاً لذلك اتخذت الدولة الجركسية اجـــراءات منهـــا حجز التجار الأوربيين وخاصة تجار الكتلان لكثرة اعتداءاتهم على الموانئ المصرية ، وهذا ما أثار قلق الملك فردناند الذي قرر إتباع سياسة اكثر ودية تجاه الدولة الجركسية ، محاولـــةً منه لافشال المخطط الوحدوي الذي رسمه أمراء المغرب الاسلامي في توحيد جهود المسلمين ضد الخطر الاسباني ، ولذلك قام بإرسال مبعوثه الايطالي الاصل بييـــر مـــارتير دانجييـــرا ***Piere Martyre Danghiere*** في سنة (٩٠٧هـــ/١٥٠١م) إلى الدولة الجركسية فوصل إلى الاسكندرية على احدى السفن العائدة للتجار البنادقة ، وفي أثناء وصـــوله قـــام بإرســـال القنصل الكتالوني المتواجد في الميناء إلى القاهرة من أجل الحصول على موافقـــة الـــسلطان لمقابلته ، إلا ان السلطان رفض ذلك في بادئ الأمر ، بناءاً على طلب المسلمين الاندلـــسيين المقيمين بدولته الذين هاجروا من جراء الضغط الاسباني ، وعلى الرغم من ذلـــك الـــرفض تمكن المبعوث من مقابلة السلطان بفضل وساطة قنصل الفرنسيين والبنادقة ، وفي تلك المقابلة أوضح للسلطان حسن معاملة الرعايا المسلمين في اسبانيا ، وانهم سمحوا لمن يرغب مـــنهم بالهجرة إلى شمال افريقيا [2] .

ومما هو ملاحظ ان العلاقات المصرية الكتلانية في عهد السلطان الغوري قد غلـــب عليها طابع التحسب والحذر من كلا الجانبين ، لذا فقد بقيت تلـــك العلاقـــات معتمـــدة علـــى المراسلات التي اوضحت فيها سياسة كل دولة تجاه الدولة الأخرى ، فمن ناحية الكتلانيين فقد اظهروا نيتهم الودية تجاه الدولة الجركسية بإرسال مبعوثهم إلى السلطان واطلاعهم على أنهم مهتمون بالمسلمين المقيمين في بلادهم واعطائهم حرية ممارسة نشاطهم السياسي والتجـــاري والثقافي في بلادهم [3] . إلا ان الطابع العدائي لدى قراصنة الكتلان بقي مستمراً ، لذا قـــاموا

[1] الصيرفي ، نزهة النفوس ، ٣ / ٢٥٨ .

[2] دراج ، المماليك والفرنج ، ص ١٣٠-١٣١ ؛ فهمي ، طرق التجارة ، ص ٦٦-٦٨ .

[3] دراج ، المماليك والفرنج ، ص ١٢٧- ١٢٨ .

سنة (٩١٦هـ/١٥١٠م) بالاستيلاء على مراكب تجارية في ميناء الاسكندرية وقتل الأمير محمد بيك ، ورداً على ذلك امر السلطان قانصوة الغوري باحضار رهبان كنيسة القيامة فكانوا نحو عشرين راهباً ، فتكلم معهم على لسان ترجمانه تغري بردي قائلاً : **((كاتبوا ملوك الفرنج ، بان يردوا ما اخذوه الفرنج من المراكب والسلاح وان لم يردوا ذلك هدمت القمامة [كنيسة القيامة] واشنق الرهبان))** [1] .

لقد تبين من خلال ما تم بحثه في العلاقات المصرية ـ الكتالونية بانها اتسمت بصورة عامة بالعدائية ، على الرغم من وجود فترات من الاستقرار والهدوء النسبي نوعاً (ما) وقد يعود ذلك إلى الوضع السياسي لكلا الجانبين .

ثانياً : علاقة مصر مع الممالك الإيطالية

لقد كان لموقع إيطاليا الجغرافي أهمية كبيرة من الناحية السياسية والتجارية ، فهي تقع في جنوب أوربا ويفصلها عنه جبال الالب ، يحدها من جهة الشمال الشرقي النمسا وبحر الادرياتيك ومن الشمال الغربي فرنسا ، ومن جهة الغرب البحر المتوسط ومن الشرق بحر البنادقة [2] .

ومن الجدير بالذكر انه في نهاية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي كانت الحالة السياسية لايطاليا متردية ، لانها كانت منقسمة إلى عدة كيانات متنازعة فيما بينها وتسيطر عليها قوى مختلفة الجنسيات ، فالبيزنطيون من جهة الجنوب كانوا مستولين على ابوليا وكيريا ، وسيطر المسلمون على جنوبها الغربي لتخليصها من البيزنطيين واللومباردين [3] .

---

(1) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ٤ / ١٩٥ .

(2) محمد بيرم الخامس التونسي ، صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار ، تحقيق : مأمون بن محيي الدين الجنان (دار الكتب العلمية ـ بيروت : ١٩٧٥م) ، ٢ / ٢٥ ؛ جودة حسين جودة ، جغرافية أوربا الاقليمية (مؤسسة الثقافة الجامعية ـ الاسكندرية : ١٩٧٠م)،ص٥٤٤؛ كاهن،الشرق والغرب ، ص ٥٦ ؛ *E. B. " Italy ", Vol. ١٢, p. ٧٣٦.*

(3) كاهن ، الشرق والغرب ، ٥٧ ؛ عاشور ، أوربا العصور ، ١ / ٣٢٦ .

ان للممالك الإيطالية اهمية خاصة وتحديداً الممالك التي تقع في شمال ايطاليا ، فمنذ القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي شهدت ايطاليا تطورات اقتصادية وسياسية ادت إلى نشوء الممالك التي عرفت باسم الكومونات ***Commune*** [1] أو الممالك ذات الكيان السياسي والاقتصادي المستقل [2] ، وكان الهدف من قيامها هو تحطيم نفوذ أسقف المدينة وهذا بدوره أدى إلى الاستقلال التام لتلك الكيانات ، وتقدم الممالك الإيطالية في الميادين الاقتصادية والحضارية [3] ، لذلك سوف تقتصر الدراسة على اهم الممالك الإيطالية التي كانت لها علاقة بالدولة الجركسية ، ومن ابرزها :

١.العلاقات المصرية ــ الجنوية [4] (٧٨٥-٨٦١هـ/١٣٨٣-١٤٥٧م)

لقد ارتبط وجود جنوة في البلاد العربية الإسلامية وخاصة في بلاد الشام منذ بداية الحروب الصليبية ، والتي وقع على عاتقها نقل المقاتلين الافرنج إلى تلك المنطقة [5] ، ومنذ ذلك التاريخ بدأت جنوة تفكر في مصير مصالحها التجارية ، لذلك توجب عليها محاربة كل من ينافسها من الدول الأخرى ، وخاصة البنادقة لكونها كانت مسيطرة على معظم النشاط التجاري في البحر الابيض المتوسط [6] ، وهذا ما أثر سلباً على علاقاتها مع الجراكسة [1] .

---

[1] الكومونات : هو مصطلح يطلق على المدينة التي يرتبط عناصر سكانها في حلف ، فهو يلزم المواطنين بالحماية والمقاومة المتبادلة ، وانهم حصلوا على استقلال عن طريق ثورة مسلحة للمزيد ينظر : عاشور ، أوربا العصور ، ١ / ٣١٣ ؛

E. B. " Commune ", Vol. ٦, p. ١٩٧.

[2] *E. B. " Commune ", Vol. ٦, p. ١٩٧-١٩٨.*

[3] عاشور ، أوربا العصور ، ١ / ٣١٢ .

[4] جنوة : مدينة ايطالية ذات موقع جغرافي مميز ، إذ تقع في اقصى الزاوية الجنوبية الغربية من بحيرة جنوة ينظر :

E. B. " Geneva ", Vol. ١٠, p. ٩٦.

[5] أبو يعلي حمزة آبن القلانسي ، ذيل تأريخ دمشق (مطبعة الاباء اليسوعيين- بيروت:١٩٠٨م)، ص ١٦٣ ؛ مصطفى حسن محمد الكناني ، العلاقات بين جنوة والشرق الادنى الاسلامي (٥٦٧-٦٩٠هـ/١١٧١-١٢٩١م) (الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة : ١٩٨١م) ، ص ٨١ .

[6] الكناني ، العلاقات بين جنوة ، ص ٣٥٢،٣٥٦-٣٥٧ ، عبد السيد ، قيام دولة ، ص ١٤٩ ؛ عاشور ، قبرص والحروب ، ص ٨٢ .

فعندما تولى السلطان برقوق عرش مصر بدأت الهجمات الجنوية بعد عام من توليه السلطنة ، ولم تكن تلك الهجمات منفردة بل شاركهم فيها قراصنة من الكتلان والروادسة والقبارصة [٢] ، ففي سنة (٧٨٥هـ/١٣٨٣م) قامت جنوة وحلفاؤها بالهجوم على ميناء صيدا متجهة نحو بيروت [٣] ، إلا ان البحرية الجركسية لم ترد على ذلك الاعتداء مباشرة لعدم امتلاكها القوة الكافية للرد ، لذلك استمر الاعتداء الجنوي على موانئها ، فقد تعرض ميناء دمياط إلى عملية قرصنة جنوية في سنة (٧٨٧هـ/١٣٨٥م) لكن البحرية الجركسية تمكنت في هذه المرة من التصدي لهم والحاق الهزيمة بهم [٤] ، ونتيجة لذلك عقدت البحرية الجنوية معاهدة صلح مع الجراكسة سنة (٧٨٨هـ/١٣٨٦م) لكي تتمكن من اعادة تنظيم قواتها من أجل استمرار قرصنتها ضد الموانئ المصرية والشامية ، وتاكيداً لذلك فقد قام الجنويون بالهجوم على عدد من المراكب العائدة للدولة الجركسية ، التي كانت تحمل عدداً من الرقيق والبضائع ومعهم اخت السلطان برقوق وبعض من اقاربه الذين تم أسرهم مع الركاب ، وهذا ما اثار غضب السلطان وجعله يتخذ اجراءاً سريعاً يقضي بالقاء القبض على الجاليات الأوربية في دولته [٥] .

إلا ان هذا الإجراء لم يغير من الأمر شيئاً ، بل على العكس فقد أغار الجنويون كرةً أُخرى على ميناء طرابلس الشام في سنة (٧٨٩هـ/١٣٨٧م) [٦] وفي السنة ذاتها تمكنت الدولة الجركسية من تحرير الميناء والاستيلاء على ثلاثة مراكب جنوية ، وعندئذٍ شعر الجنويون بالقلق من جراء المقاومة التي واجهوها من البحرية الجركسية التي كانت لهم بالمرصاد ، لذلك حاولوا امتصاص غضب الدولة الجركسية بأسلوب دبلوماسي حيث قاموا

---

(١) تدمري ، تأريخ طرابلس ، ٢ / ١٥٦ .

(٢) آبن الفرات ، تأريخ آبن الفرات ، مج٩ / ق١ / ٣٣ ؛ الكناني ، العلاقات بين جنوة ، ٣٥٢ .

(٣) تدمري ، تأريخ طرابلس ، ٢ ، ١٥٦ ؛ عبد السيد ، قيام دولة ، ص ١٤٩ .

(٤) آبن الفرات ، تأريخ آبن الفرات ، مج ٩ / ق١ / ٣٣ ؛ الكناني ، العلاقات بين جنوة ، ص ٣٥٣ .

(٥) آبن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ١ / ٣٥٣ .

(٦) آبن الفرات ، تأريخ آبن الفرات ، مج ٩ / ق١ / ٧ ؛ الصيرفي ، نزهة النفوس ، ١ / ١٥٢ .

أولاً : باطلاق سراح عدد من الاسرى الجراكسة الموجودين لديهم ، وثانياً : إرسال هدية للسلطان برقوق وكان هذا في سنة (٨٩٠هـ/١٣٨٨م) [1] .

وعلى ما يبدو ان الأوضاع السياسية المضطربة داخل الدولة الجركسية وخاصة بلاد الشام [2] ، كانت سبباً في استمرار الهجمات الجنوية عليها ، لذلك فقد ابحرت البحرية الجنوية بحملة مكونة من اثني عشر مركباً متوجهة إلى ميناء طرابلس الشام في سنة (٧٩٢هـ/١٣٨٩م)، إلا ان تلك الحملة تعرضت لعاصفة قوية ادت إلى تدميرها واغراق معظم مراكبها ، مما أدى إلى انسحاب سائر المراكب من دون تحقيق هدفها المنشود [3] .

هكذا تبدي لنا الأحداث تأرجح العلاقات المصرية ــ الجنوية ما بين العداء والسلم ومما يدل على ذلك الهدوء الذي ساد تلك العلاقات في أوآخر القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ولمدة لاتزيد على العشر سنوات ، إلا أنها ازدادت سوءاً في بداية القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، واخذت طابعاً عدائياً لأسباب داخلية وخارجية تخص الدولة الجركسية ، فمن الناحية الداخلية كان الوضع مضطرباً بسبب الصراعات الداخلية ، فضلاً عن التهديدات الخارجية التي كانت تتعرض لها المنطقة ، وخاصة الخطر التيموري الذي كان يهدد بلاد الشام ، ممّا شجع الجنويون على استغلال ذلك الضعف الداخلي والخارجي للجراكسة فجعلهم يقومون في سنة (٨٠٣هـ/١٤٠٠م) في عهد السلطان الناصر فرج بالهجوم على السواحل الشامية والاستيلاء على ستة مراكب تجارية فيه [4] .

واستمر تازم العلاقات بين المصريين والجنويين ، ففي سنة (٨٠٤هـ/١٤٠١م) جيث استولى القراصنة الجنويون على عدة مراكب تجارية في ميناء طرابلس الشام ، ورداً على ذلك قام اهل الميناء بمقاتلتهم لكن من دون جدوى ، وبعد سنة من تلك الاعمال العدوانية

---

(1) الكناني ، العلاقات بين جنوة ، ص ٣٥٤ ؛ عبد السيد ، قيام دولة ، ص ١٥٠ .

(2) لقد شهدت بلاد الشام صراعات داخلية واسعة النطاق ، إذ قام الأمير منطاش بحركة عصيان ضد السلطان برقوق ، مما أدى إلى انشغال الدولة الجركسية باخماد تلك الحركة . للمزيد من التفاصيل ينظر : آبن صصري ، الدرة المضيئة ، ١ / ٥٧ ، ٦٨ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٩ .

(3) آبن الفرات ، تأريخ آبن الفرات ، مج ٩ / ق١ / ٢٢١ ؛ المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٧٢٣ ، الصيرفي ، نزهة النفوس ، ١ / ٤٠٢ .

(4) المقريزي ، السلوك ، ج٣ / ق٣ / ١٠٥٩ .

تعرض ميناء الاسكندرية لهجوم مماثل فاستولوا على مركبين يعودان لتجار الجراكسة ، كانا محملين بالبضائع وأسروا من كان بهما [1] .

ومن الجدير بالذكر ان تركيز القوات البحرية الجنوية في هجومها علـى المـوانئ الشامية ، كان الهدف من ورائه أمرين ، الأول : إضعاف الدولة الجركسية اقتصادياً من خلال استيلائهم على تلك الموانئ ومن ثم يسهل عليهم السيطرة على المراكب التجارية كافة المتجهة من مصر وإليها ، وثانيهما : قطع علاقة البنادقة بالدولة الجركسية .

واستمراراً للطابع العدائي الذي أضفي على العلاقات المـصرية الجنويـة ، قامـت البحرية الجنوية بالهجوم على ميناء طرابلس ، فقوبلوا بمقاومة شديدة من قبل اهـل الميـنـاء الذين اجبروهم على التراجع ، وتفادياً لذلك الموقف الصعب عزم أصحاب الميناء إلى عقـد الصلح معهم ، فأرسلوا مبعوثهم يقترح إطلاق سراح الأسرى الجنويين مقابل إيقاف اعتدائهم على الموانئ التابعة للدولة الجركسية ، إلا ان تلك المبادرة باءت بالفشل فتم اسـر المبعـوث والاسـتيلاء على احدى القرى التابعة للجراكسة ، واسروا من كان فيها ، وتدميرها بـشكل كامل [2] .

وفي سنة (٨٠٦هـ/١٤٠٣م) عاودت المراكب الجنوية وبالاشتراك مع قراصنة من القبارصة والروادسة بالقيام بحملة واسعة على سواحل بلاد الشام ، وهاجمت ميناء طـرابلس في ثلاثة مراكب فتصدى لهم اهل الميناء بكل قوة ، مما اضطرهم إلى التوجه إلـى بيـروت ومن ثم ساروا إلى ميناء صيدا واحرقوا في طريقهم مركباً قادماً من مينـاء دميـاط ، إلا ان المقاومة الشديدة التي أبداها أهلُ الميناء مكنتهم من ملاحقتهم حتى اخرجوهم من المنطقـة ، وفي أثناء ذلك قامت مجموعة اخرى من المراكب الجنوية بالهجوم على ميناء الاسـكندرية ، فأمر السلطان الناصر فرج الأمير برهان الدين ابراهيم كبير التجار بالتوجه إلـى الاسكندرية لغرض إيقـاف ذلك التهديـد ، وبعد تلك الحملـة اعدت حملـة اخـرى بقيـادة القائـد الجنوي ***De – Boncicaut*** متجهة إلى جزيرة رودس لتعزيز قوة الحملة بالعـدد والعـدة

[1] المقريزي ، السلوك ، ج٣ / ق٣ / ١٠٧٩ ؛ ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٢ / ١٩٩ ، ٢٣٤ .

[2] المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق ٣ / ١٠٧٩ ؛ الصيرفي ، نزهة النفوس ، ٢ /١٩٩ ؛ عاشور ، العـصر المملوكي ، ص ٢٦٩ ؛ تدمري ، تأريخ طرابلس ، ٢ / ١٦١ .

الحربية ، وفي الوقت نفسه عرض الجنويون عقد صلح مع القبارصة ، لغرض تامين سير الحملة ودعمها معنوياً ، ومقابل ذلك استعدت البحرية الجركسية لمواجهة تلك الحملة واتخذت الاحتياطات اللازمة كافة لغرض المواجهة ، وفي أثناء ذلك أرسل قائد الحملة الجنوية مبعوثاً إلى السلطان الجركسي يطلب منه عقد صلح بينهما ، غير ان المفاوضات لم تلق جواباً ايجابياً [(١)].

وعلى ما يبدو ان التغيير المفاجئ في السياسة الجنوية تجاه الدولة الجركسية ، ما هو إلا خدعة لغرض الكشف عن مدى قوتهم من خلال قَبولهم ورفضهم لذلك الصلح ، فضلاً عن ذلك حاولوا ابعاد الشك عن نواياهم فهاجمت قواتهم أنطاليا في آسيا الصغرى ، وبعد عودتهم إلى ميناء فاما جوستا أرسلوا عشرة مراكب لمهاجمة ميناء الاسكندرية سنة (٨٠٦هـ/١٤٠٣م) إلا ان الاستعداد الكامل للبحرية الجركسية تمكن من التصدي لهم [(٢)] .

وبعد الحملة الفاشلة التي اعدها القائد الجنوي ضد ميناء الاسكندرية توجه بعد ذلك إلى ميناء بيروت وفي أثناء طريقه إلى الميناء تم الاستيلاء على مركب مملوكي كان منطلقاً من ميناء دمياط إلى ميناء بيروت ، وبعد وصول الحملة تمكن البيروتيون بقيادة الأمير شيخ المحمودي نائب الشام من مقاومة القراصنة الجنويين ، واضطروهم إلى تغيير مسارهم نحو ميناء صيدا فابدى اهل الميناء استعداداً كاملاً فاضطروا إلى الانسحاب إلى داخل البحر من دون تحقيق هدفهم الذي يتمثل بالسلب والنهب للمراكب التجارية [(٣)] .

وبعدَ ادراك الجنويين انه لا جدوى من الهجمات التي تشنها على الموانئ المصرية ، وذلك لما كانت تلاقيه من مقاومة البحرية الجركسية ، لذا فقد استخدمت سياسة الحرب الاقتصادية بسيطرتها على المراكب التجارية الأوربية كافة المتجهة إلى الموانئ المصرية والشامية ، ومنها استيلاؤها على احد المراكب التابعة للتجار الكتلان ، كما استولوا على مركب لتجار البنادقة كان عائداً إلى ميناء بيروت [(٤)] .

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ج٣ / ق٣ / ١١١٤، ١١١٦ ؛ ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٢ / ٢٥٨ .

(٢) عبد السيد ، قيام دولة ، ص ١٥٢ .

(٣) المقريزي ، السلوك ، ج٣ / ق٣ / ١١١٥ .

(٤) ابن يحيى ، تأريخ بيروت ، ص ٣٤ ؛ تدمري ، تأريخ طرابلس ، ٢ / ١٦٤ .

وعلى ما يبدو ان هذه السياسة أيضاً لم تحقق هدف الجنويين ، فلم يبق امامهم غير الامتثال إلى الحل السلمي المؤقت لكي يعيدوا تشكيل قوتهم من جديد ، فسعوا إلى طلب عقد الصلح مع السلطان فرج ، وتم ذلك في سنة (٨١٠هـ/١٤٠٧م) ونص العقد على ان تتعهد جنوة بدفع مبلغ من المال يقدر بحوالي ثلاثين ألف دينار تعويضاً عما سببته من تخريب للموانئ التابعة للدولة الجركسية ، وفي حالة تكرار اعمالها العدائية ضدها ، فسيتم القاء القبض على جميع التجار الافرنج بمصر وبلاد الشام [1] .

ومن الجدير بالذكر ان ذلك الصلح كان حالة مؤقته من لدن الجنويين ليستعيدوا قوتهم من اجل مواجهة القوة الجركسية ، لذا شهد الربع الأول من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي بداية ثانية للقراصنة الجنويين في معاودة اعتدائهم على الدولة الجركسية في سنة (٨١٣هـ/١٤١٠م) إذ تمكنوا من الاستيلاء على ميناء يافا ، واسروا عدداً من المسلمين والاستحواذ على مركب قادم من مصر باتجاه الميناء نفسه [2] ، واستمراراً لمنهجهم العدائي ضد الدولة الجركسية ، فقد اتجهوا إلى ميناء دمياط للاستيلاء عليه ، فتصدت لهم البحرية الجركسية التي ارغمتهم على الرجوع عن هدفهم والتوجه إلى منطقة اخرى تسمى الطينة القديمة واستولوا عليها ، إلا ان البحرية الجركسية تداركت الموقف واخرجتهم منها ، فيذكر المقريزي إزاءَ تلك الأحداث قائلاً : ((**ثم مضوا إلى دمياط ، فتكاثر المسلمون على الفرنج ، واخذوا منهم غراب [مراكب صغيرة وسريعة] المسلمين بعد قتال شديد ، وقتلوا منهم افرنجيين واخذوا [سلاحاً] فانهزم بقيتهم ، وحمل الراسان والسلاح إلى السلطان**)) [3]

واستمرت العلاقات العدائية بين الجانبين وصولاً إلى عهد السلطان الشيخ المؤيد ، الذي شهد عهده الكثير من الاعتداءات على الموانئ المصرية ، فقد قام القراصنة الجنويون سنة (٨١٩هـ/١٤١٦م) بالهجوم على نستراوة [4] ،فنهبوا ، واحرقوا ومن ثم واصلوا سياستهم

---

[1] ابن يحيى ، تأريخ بيروت ، ص ٤٠ ؛ عبد السيد ، قيام دولة ، ص ١٥٣ .

[2] المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق ١ / ١٤٣ .

[3] المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق١ / ١٩٤ ؛ ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٢ / ٤٩١-٤٩٢ .

[4] نستراوة : جزيرة تقع بين دمياط والاسكندرية ، وقيل أيضاً هي جزيرة ذات اسواق في بحيرة منفردة . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ٥ / ٨٤ .

العدائية ، فاتجهوا إلى ميناء يافا للقيام بالعمل ذاته ، وبذلك تمكنوا من الدخول إلى الميناء وأسر خمسين امرأةً وطفلاً ، لكنهم لم يتمكنوا من البقاء فترة طويلة في الميناء ، لان هدفهم هو السلب والنهب وجمع الأموال ، وقد علق آبن حجر العسقلاني على سياستهم المادية واصفاً وضع اسرى ميناء يافا الذي تم احتجازهم ذاكراً ((**فاسروا من المسلمين نساء واطفالاً ، فحاربهم المسلمون ثم افتكوا [فدية] منهم الاسرى بمال**)) [1] .

وممّا هو ملاحظ في سير الأحداث ان كثرة الموانئ التي أستولى عليها الجنويون قد شجعهم على الاستمرار بسياستهم العدوانية تجاه المماليك الجراكسة ، لذلك توجهوا إلى ميناء الاسكندرية بعد انسحابهم من ميناء يافا واستولوا على مراكب تعود للتجار الجراكسة[2] .

تكشف لنا جميع تلك الاعتداءات المستمرة على الموانئ المصرية عن حقيقة لا يمكن تجاهلها ، وهي احساس الجنويين بضعف البحرية الجركسية ، فضلاً عن وجود خطر آخر كان مهدداً للجراكسة ، وتمثل بالقبارصة ، وعلى الرغم من ذلك فان الجراكسة لم يردوا على تلك الاعتداءات رداً عسكرياً ، إلا انها اتخذت اجراءات اخرى من أجل تخفيف الاضرار التي تعرضت لها موانئها من جراء القرصنة الجنوية المستمرة ، لذلك قامت بحفر خندق حول الاسكندرية سنة (٨٢٠هـ/١٤١٧م) لمنع وصول القراصنة الجنويين إلى الميناء ، وعلى الرغم من ذلك استمرت الهجمات الجنوية على الموانئ المصرية ومنها ميناء الاسكندرية في سنة (٨٢٥هـ/١٤٢١م) واستولوا على مركب محمل بالبضائع تقدر قيمتها بحوالي مئة ألف دينار ، ثم قاموا بحرقه بعد سلب ونهب مافيه على الرغم من مقاومة أهل الميناء ، إلا انهم لم يتمكنوا من فعل شيء [3] ، ورداً على تلك الاعمال العدائية امر السلطان برسباي باغلاق كنيسة القيامة ، وكرد فعل على هذا الأمر السلطاني امر ملك الحبشة اسحق بن داوُد بن سيف

[1] أنباء الغمر ، ٣ / ٩٠ .

[2] المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق١ / ٣٥٧ ، ٣٦٠-٣٦١ .

[3] آبن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٣ / ١٣٨ ؛ آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٤ / ٢٤٩-٢٥٠ .

ارعد بقتل وتعذيب عامة المسلمين المتواجدين في بلاده [1] ، والسؤوال هنا لماذا هذا الإجراء الذي قام به ملك الحبشة ؟ وللاجابة عن هذا السؤال فاننا أمام احتمالين :

الأول : أراد ملك الحبشة من وراء هذا الإجراء الضغط على الدولة الجركسية بالتخلي عن قرارها ، وان تعيد فتح كنيسة القيامة للحجاج الأوربيين .

الثاني : وهو الأهم والأخطر وهو القضاء على الإسلام علماً انهم كانوا متعاونين مع الاراغوانيين من أجل تحقيق مشروعها الذي تمثل بالقضاء على الدولة الجركسية في مصر ، وخاصة انها كانت تمثل مقر الخلافة الإسلامية ، لكي يتسنى لهم السيطرة على الاراضي المقدسة ، ولتتكرر مأساة الحروب الصليبية مرة ثانية .

ومن الجدير بالذكر ان الدولة الجركسية كانت تتخذ سياسة التهديد لغرض الضغط على الجنويين ، إلا ان تلك السياسة وحدت الأحباش والجنويين لكونهم من طائفة دينية واحدة وشجعتهم على الاعتداء المستمر على الدولة المملوكية ، وبالفعل هذا ما حدث في سنة (٨٢٧هـ/١٤٢٣م) استولوا على مركبين في ميناء دمياط محملين بالبضائع ، إلا ان الدولة الجركسية ردت على ذلك الاعتداء بامر من السلطان برسباي ، كما يذكر ابن تغري بردي قائلاً ((**بايقاع الحوطة على أموال تجار الفرنج التي ببلاد الشام والاسكندرية ودمياط والختم عليها ، وتعويقهم عن السفر إلى بلادهم حتى ترد الفرنج ما أخذوه من المسلمين ...**)) [2] .

وعلى ما يبدو ان السلطة الجركسية حاولت استخدام اسلوب الضغط من خلال حجز اموال التجار الجنويين ، لكن ذلك الإجراء لم يجد نفعاً ، وذلك لاستمرار الاعتداءات البحرية الجنوية تساندها القوات الكتلانية بهجومهم على ميناء طرابلس الشام في سنة (٨٣٦هـ/١٤٣٢م) فتم الاستيلاء على مركب محمل بالبضائع والرجال ، وفي غضون ذلك قاموا أيضاً بالاستيلاء على مركب آخر قدم من ميناء دمياط إلى بلاد الشام ، وبناءاً على تلك الاعمال العدائية أُصدِر أمر سلطاني بحجز أموال التجار الجنويين والكتلان ومصادرتها ، وهذا ما زاد من تازم العلاقة بين الجانبين ، فقام القراصنة الجنويون بالسيطرة على ميناء فاما

---

[1] المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٩١٦ ، ٩٤٩ ؛ الصيرفي ، نزهة النفوس ، ٣ / ٢٠٣ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٤ / ٢٦٠ .

[2] النجوم الزاهرة ، ١٤ / ٢٦٦ .

جوستا التابع لجزيرة قبرص ، وذلك في اواخر القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي في الوقت الذي كانت فيه الجزيرة تحت السيادة المملوكية [1] .

وعلى الرغم من استمرار التوتر الذي ساد العلاقات المصرية الجنوية إذ بدأت تأخذ شكلاً ودياً بسبب قيام قراصنة الكتلان بالهجوم على ميناء الاسكندرية سنة (٨٤٨هـ/١٤٤٤م) عندها خشي الجنويون من سيطرة القراصنة الكتلان على البحر وما يعقبه من فقدان مكانتهم السياسية والاقتصادية ، مما أدى إلى قيام تحالف جركسي جنوي ضد الانتهاكات الكتلانية [2] هذا من جانب ، ومن جانب آخر خوف الجراكسة ايضاً من فتح جبهتين عليهم في آن واحد .

وباجتماع تلك الاسباب أدى إلى التقارب السلمي بينهما ، لكن ذلك التحالف لم يكن خالص النية من قبل الجنويين ، لأنهم كما اشرنا سابقاً كانوا يدركون مدى ضعف البحرية الجركسية ، وخاصةً ان الجراكسة لم يتمكنوا من فتح جزيرة رودس ، على الرغم من الحملات البحرية الثلاثة ، وهذا ما شجع الجنويين على الاستمرار في سياستهم العدائية ضدهم، فضلاً عن ذلك محاولة الفونسو الخامس ملك اراغون اثارة القبارصة ضد الدولة الجركسية ، وكذلك تشجيعه لقراصنة الكتلان في مواصلة قرصنتهم في البحر المتوسط ، وخاصة بعد استيلائه على مملكة نابلي سنة (٨٤٦هـ/١٤٤٢م) [3] .

وتجري الأحداث وصولاً إلى عهد السلطان جقمق الذي شهد عهدُهُ تأزماً في العلاقات بينهما ففي سنة (٨٥٥هـ/١٤٥١م) تعرض ميناء صور إلى هجوم جنوي ، فتصدت له البحرية الجركسية واستطاعت الحاق الهزيمة بهم ، وفي الوقت ذاته هاجمت مراكب جنوية أخرى ميناء الطينة في ساحل مصر [4] ، وتواصلاً لسير الأحداث ففي سنة (٨٦٠هـ/١٤٥٦) وبالذات في عهد السلطان الاشرف اينال الذي قام باعداد حملة من الأمراء قدرت بحوالي ثلاثمئة مقاتل ، وأمرهم بالتوجه إلى الجون [5] في خليج الإسكندرية لإحضار الأخشاب ، وفي

---

[1] المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٦٦٥ -٦٦٦ ، ٨٨٢ ؛ الصيرفي ، نزهة النفوس ، ٣ / ٤٩ .

[2] المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٩٩٤ .

[3] دراج ، المماليك والفرنج ، ص ٦٦ ؛ تدمري ، تأريخ طرابلس ، ٢ / ١٨٩ .

[4] السخاوي ، التبر المسبوك ، ص ٣٥١ ؛ آبن اياس ، بدائع الزهور ، ٢ / ١٠٩ .

[5] الجون : وهو موقع تتجمع فيه المياه . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ٢ / ١٨٩-١٩٠ .

حالة لقائهم بالصليبيين يتوجب عليهم المحاربة ، وبالفعل عند وصول الحملة التقت مجموعة من القراصنة الجنويين ، فتحارب الطرفان ، وبالتالي تمكن القراصنة من قتل عدد من الجند وسلبوا ما كان معهم من سلاح والات حرب واستولوا على المراكب الثمانية عشر ، فبلغ ذلك السلطان الذي أغاظَهُ كثيراً ذلك الحدث ، فاصدر أمراً بالقاء القبض على الرهبان المقيمين في كنيسة القيامة وعلى سائر الافرنج المتواجدين في الاسكندرية ودمياط وغيرها من السواحل [١] وفي الوقت ذاته وصلت رسالة من نائب الشام أوضح فيها بان الصليبيين توجهوا إلى ساحل بلاد الشام بحملة مكونة من ثلاثمئة مركب تقريباً ، انتقاماً لسقوط القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح العثماني [٢] ، وممّا زاد من خطورة الموقف على الدولة الجركسية هو السيطرة التامة على ميناء فاماجوستا الذي يعد من اهم الموانئ القبرصية التابعة للدولة الجركسية ، ولاهمية ذلك الموقع أصبح مقراً للقراصنة لغرض شن الهجمات ضد الموانئ المصرية والشامية ، وهذا ما شجعهم على التحالف مع القوات الأوربية الأخرى والتي تحركت للهجوم على مدينة بافوس [٣] ، ممّا اضطر حاكم الجزيرة حانبك الابلق إلى طلب المساعدة من السلطان المؤيد لحماية الجزيرة [٤] ، وبسبب عدم استقرار الاوضاع داخل الدولة الجركسية تاخرت عملية وصول الإمدادات العسكرية للجزيرة ، وعلى الرغم من ذلك فان اهالي المدينة تصدوا لهم وأجبروهم على التراجع عن المدينة ، لكن ذلك لم يوقف الاعتداءات الجنوية على الموانئ المصرية ، فعندما جهز حاكم قبرص شحنة من الصوف المقرر دفعها كجزية للسلطان الجركسي هجم الجنويون واستولوا عليها ، ووفي أثناء ذلك أرسل صاحب طرابلس احمد بن قليب الشهابي مبعوثاً يحمل كتاباً لحاكم جزيرة قبرص يعلمه بان قراصنة جنوة قد سيطروا على الشحنة المعدة سنوياً للدولة الجركسية ، وقد وصلت إلى ساحل بيروت وهي بحوزتهم ، ويطلب منه ملاحقتهم واستعادة ما استولوا عليه ، فضلاً عن ذلك طلب بان

---

(١) آبن اياس ، بدائع الزهور ، ٤ / ١٩٢.

(٢)آبن اياس ، بدائع الزهور، ٤ / ١٦٤ ؛ تدمري ، تأريخ طرابلس ، ٢ / ١٩٠ .

(٣) بافوس : اسم مدينة تقع في الساحل الجنوبي لجزيرة قبرص . ينظر : آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٦ / ٢٢٤ .

(٤)آبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٦ / ٢٢٤ .

يرسل له السلطان قوات بحرية ليستعينَ بها على قتال الجنـويين فـي مينـاء فاماجوسـتا ، فاستجاب السلطان لطلبه وارسل إلى نواب بلاد الشام يأمرهم بإرسـال ستمئة مقاتـل إلـى جزيرة قبرص، إلا ان الوضع المضطرب في بلاد الشام والمتمثل بصراعات الأمراء حـول تولي المناصب حال من دون تنفيذ ذلك الطلب [1] .

لذلك فان الدولة الجركسية كانت على الرغم من كل الانتهاكات المستمرة مـن قبـل الجنويون وسائر القراصنة الاوربيين بحاجة إلى سلطان حازم لديه القوة والقدرة الكافية لوضع حد لتلك الاعتداءات وبالفعل تولى عرش السلطنة السلطان خشقدم الذي اسـتطاع بـدوره ان يضع حلاً رادعاً لهذا الأمر الذي شكل تهديداً مستمراً لكيان الدولة الجركسية ، فأرسلت حملة كان هدفها فتح ميناء فاماجوستا ، وتحريره من أيدي القراصنة الجنويين ، فحاصرته في سنة (٨٦٦هـ / ١٤٦١م) إلا انهم انتظروا طويلاً حتى تمكنت قوتهم البحرية من السيطرة على مركبين جنويين فاستدعت قائديهما لاستجوابهما عن الاوضاع الداخلية للميناء فـابلغوا قائـد الحملة عن مدى تدهور وسوء الاوضاع الداخلية للميناء ، بحيث وصل الأمر من الاضطراب إلى قيام الجنويين بقتل قائدهم ، وهذا ما شجع الحملة الجركسية على اسـتمرار محاصـرتها للميناء ، حتى تمكنت من دخوله وطرد الجنويين منه في سنة (٨٦٨هـ / ١٤٦٣م) [2] .

بعد أن تم البحث في العلاقات المصرية الجنوية توصلنا إلى نتيجة مهمة وهي ، على الرغم من كثرة الهجمات الجنوية على الموانئ الجركسية إلا انها لم تحقق الهدف الذي كانـت تصبو إليه لان اسلوب قرصنتهم كان يعتمد على المباغتة بين السلب والنهب والتخريب ومن ثم الانسحاب ، ومقابل ذلك العزيمة والاصرار لدى البحرية الجركسية التي حددت من نطـاق اعمالهم العدائية ، وبالتالي ان العلاقات المصرية الجنوية لم تشهد أي اعمال عدائية بعد سـنة (٨٦٨هـ / ١٤٦٣م) وبقي الأمر على هذا المنوال حتى سقوط الدولة الجركـسية ، وقيـام الدولة العثمانية واخضاع مصر لنفوذها .

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ٢ / ٣٦٦ ؛ تدمري ، تأريخ طرابلس ، ٢ / ١٩١-١٩٢ .

(٢) تدمري ، تأريخ طرابلس ، ٢ / ١٩٢ .

٢.العلاقات المصرية ـ البندقية [١] (٨١٨-٩٢٢هـ-١٤١٥-١٥١٦م)

قبل البدء بالحديث عن العلاقات السياسية بين المصريين والبنادقة لابد من التطرق إلى معرفة نشأة دولة البنادقة وكيفية تمكنها من اقامة علاقات مع دول الشرق عامة ودولة المماليك خاصة .

فمدينة البندقية التي أنشأها اللاجئون هرباً من قتل الهون واللومبارديين بصورة خاصة في سواحل بحر الادرياتيك وقيل ان المدينة سميت فينسيا نسبة إلى قبيلة ***Veneti*** التي كانت مسيطرة على الاقسام الشمالية الشرقية من ايطاليا في التاريخ الروماني المبكر ، إلا ان اطلاق التسمية كان في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي [٢] .

ففي بداية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ظهرت البندقية كمدينة مستقلة تتمتع بنفوذ سياسي واقتصادي مستقل ، فمنذ بدايات الحروب الصليبية قامت بتكوين علاقات مع الشرق بحيث أسهمت بنقل الجند إلى المشرق العربي الاسلامي [٣] ، إلا ان المصادر لم تذكر عن بداية العلاقة بين المماليك الجراكسة والبنادقة ، على الرغم من انها كانت ودية منذ البدء ، وقد يعود ذلك إلى انشغال الجانبين بالاوضاع الخاصة بهما ، فالجراكسة كانوا يواجهون الخطر المغولي الذي هدد المنطقة باسرها ، واصبح مصدر قلقها الدائم ، إلا ان البنادقة لم يهتموا بالامور السياسية ، وانما كان همهم الدائم هو الجانب الاقتصادي ، ولهذا السبب كانوا حريصين على علاقتهم مع المماليك الجراكسة خوفاً على مصالحهم التجارية ، ولذا اظهروا النوايا الحسنة تجاه الدولة الجركسية واوضحوا لهم بأنها غير مسؤولين عن الأحداث والانتهاكات العدائية ضدهم ، وتأكيداً لحسن النية أرسل دوق[٤] البندقية في سنة (٨١٨هـ/١٤١٥م) وفداً يحمل كتاباً وهدايا إلى السلطان المؤيد ذاكراً فيه

---

[١] البندقية : هي مدينة ومرفأ لايطاليا ، وتتميز بموقع ذي أهمية كبيرة بالنسبة للعالم ، إذ تقع على رأس بحر الادرياتيك ما بين الجبال والبحر بحيث تكون الجزء الاكبر من سهل لومبارد . ينظر :

E. B. " Venice " , Vol. ٢٣, p. ٥٨ .

[٢] عبد القادر أحمد اليوسف ، العصور الوسطى الأوربية(المكتبة المصرية ــ بيروت:١٩٦٧م) ، ص٢٩٣ .

[٣] عاشور ، أوربا العصور ، ١ / ٣٣٢-٣٣٣ ، ٣٣٥ .

[٤] دوق البندقية : كل ملك منهم يسمونه ((دوك)) بالكاف المشوبة بالجيم فيقال ((دوك البندقية)) وهذا اللقب سار عليه اغلب ملوكهم . ينظر : القلقشندي ، صبح الاعشى ، ٥ / ٤٥٤ .

بان البندقية سوف تستمر بعلاقاتها السلمية مع السلطان ودولته وانها تتعهد ايضاً بعدم القيام باي اعمال عدائية أو تحالف ضدهم [1] .

وبعد أن تم فتح جزيرة قبرص من قبل الدولة الجركسية واصبحت تابعة لها عدا جزء صغير بقي تحت السيطرة الجنوية ، لكن بعد تمكن البنادقة من حكم الجزيرة استطاع حاكم المدينة جيمس من فرض سيطرته عليها بالكامل ، وفي أثناء ذلك تزوج من كاترينا كورنارو في سنة (٨٧٦هـ/١٤٧١م) ونتج عن ذلك الزواج انتقال سيادة الجزيرة إلى البنادقة بعد وفاة الملك جيمس ، وقد استمر حكمهم للجزيرة مدة خمس عشرة سنة، واثناء ذلك استمروا بدفع الجزية المفروضة على الجزيرة للجراكسة خلال فترة حكمهم فيها [2] .

وعلى الرغم من كون العلاقة بين المماليك الجراكسة والبنادقة في الظاهر تبدو ودية ، إلا ان الفتور كان مخيماً عليها ، وهذا يعود إلى عدم استقرار الوضع السياسي للدولة الجركسية بسبب تعرضها للاعتداءات الخارجية المستمرة ، مما حدا بالسلطان إلى اصدار مرسوم في سنة (٨٧٠هـ/١٤٦٥م) ينص بالقاء القبض على التجار البنادقة المقيمين في مصر وبلاد الشام ، ومصادرة اموالهم وبضائعهم ، وكان لسياسة الضغط التي اتبعها السلطان خشقدم مؤشر سلبي لفتور العلاقة بين المماليك والبنادقة ، وعلى الرغم من ذلك فان البنادقة حاولوا الاحتفاظ بالعلاقات الودية التي تربطها بالدولة المملوكية ، ففي سنة (٨٩٥هـ/١٤٨٩م) أرسل دوق البندقية مبعوثه بيرو دويدو لغرض عقد اتفاقية من اجل دفع الجزية السنوية المفروضة على الجزيرة بعدما اصبحت تحت سيطرتهم [3] .

ومن الملفت للنظر ان الدولة الجركسية لم تكن مطمئنة في علاقاتها مع البنادقة بل كانت قلقة وحذرة ليس من البنادقة فحسب بل من سائر الدول الأخرى ، وخاصة عقب الهجمات العدائية التي قام بها البرتغاليون والعثمانيون في عهد السلطان قانصوة الغوري ، إثر قيام فرسان الاسبتارية بالهجوم على احدى السفن التابعة لتجار الجراكسة بالقرب من جزيرة قبرص والاستيلاء عليها ، لذلك عدّت الدولة الجركسية ذلك الاعتداء على السفن التجارية

---

[1] المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٣٢٥ ؛ آبن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٣ / ٧٥ .

[2] عاشور ، قبرص والحروب ، ص ١٢٦ ؛ طرخان ، مصر في عصر ، ص ١٠٤ .

[3] دراج ، المماليك والفرنج ، ص ٩٩ ؛ تدمري ، تأريخ طرابلس ، ٢ / ١٩٣ .

كان مدبراً من لدن البنادقة ، بسب وجود نزاع تجاري بينهما منذ سنة حول اجبار تجارهم على شراء مادة البهار بثمن مرتفع حدده السلطان لكنهم لم يشتروه ، لذلك امر السلطان بالقاء القبض على قنصل البندقية وتجارها بالاسكندرية ، وبمقابل ذلك سارعت البندقية بإرسال مبعوثها إلى الدولة الجركسية لحل الأزمة السياسية بينهما ، غير ان المبعوث وافته المنية أثناء ذلك ، لكن السلطان الغوري حرص بدوره ان يتوصل إلى اتفاق معهم ، وذلك للخطر البرتغالي الذي كان يهدد كيان دولتهم سياسياً واقتصادياً ، فاوفد اليهم في سنة (٩١٢هـ/١٥٠٦م) الأمير تغري بردي كبير المترجمين لتحسين العلاقة معهم ، بعد الفتور الذي اصابها ، ولمباحثتهم بموضوع إمدادهم بالأخشاب والأسلحة لتعزيز قوتهم البحرية من اجل متابعة حربها ضد البرتغاليين [1] ، ومن خلال تلك المفاوضات التي ركزت على طلب الجراكسة المساعدة من البنادقة بالإمدادات الحربية ، فان حكومة البندقية وتحت ضغط الرأي العام الذي يميل إلى تقديم العون للماليك ، قامت بتشكيل لجنة عرفت بـ (لجنة البهار) عهد اليها بحث الوسائل التي تمكنها من اجابة ذلك المطلب ، وخرجت اللجنة من جراء مباحثاتها ببعض القرارات منها إرسال رسالة إلى قنصلها بالاسكندرية لابلاغ السلطان ، بانها مستعدة لتقديم العون لبناء اسطوله ، من دون ان يؤدي ذلك إلى اظهارها أمام الأوربيين بمظهر الدولة المساعدة بصورة علنية ، لكن بعد أن ادركت البندقية بان الدولة الجركسية غير قادرة على حماية نفسها ، وخاصة أمام الخطر البرتغالي ، ارتأت ان تجعل مصلحتها التجارية فوق كل الاعتبارات الأخرى ، لذا وجدت في اطماع الشاه الصفوي التوسعية خير مشجع لاستثارة الشاه بالتعاون معها ضد الدولة الجركسية [2] ، ففي سنة (٩١٦هـ/١٥١٠م) وصلت

---

(1) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ٤ / ١٦٤ ؛ دراج ، المماليك والفرنج ، ص ١٣٩-١٤٠ .

(2) إنَّ تحالف البنادقة مع الدولة الفارسية ليس بالامر الجديد في تاريخها الدبلوماسي ، فقد تحالفتا منذ ثلث قرن تقريباً ، إذ تحالفت البندقية مع حسن الطويل الذي تمكن من السيطرة على غرب اسيا بعد أن تمكن من القضاء على منافسيه من بقايا السلاطين التيموريين وامراء التركمان من قبيلة الشاه السوداء ، وكان العداء المشترك للسلطان العثماني هو الدافع لتحالفهما ، وخاصة بعد التوسع العثماني في اسيا واوربا الذي هدد كيانهما . للمزيد من التفاصيل ينظر : دراج ، المماليك والفرنج ، ص ١٤٥-١٤٦ .

المعلومات من نائب البيرة [1] ، بأنه قبض على شخصين معهم رسائل مرسلة من قبل الشاه الصفوي إلى بعض ملوك أوربا بالتحالف معه ضد المماليك الجراكسة ، وان يتقدموا بسفنهم من ناحية البحر في الوقت الذي يتحرك فيه الشاه بجيشه من ناحية البر [2] .

وعلى ما يبدو ان المبعوثين اللذين تم القبض عليهما كانا من البنادقة يحملان مكاتبات إلى دوق البندقية والى كل من القنصل البندقي في دمشق توماسو كونتاريني ، والقنصل البندقي في الاسكندرية بيترو زيتو ، مما اثار غضب السلطان لذلك أصدر أمراً بالقاء القبض عليهما وعلى جميع التجار البنادقة في مصر وبلاد الشام وحجز أموالهم كافة ، فضلاً عن تهديده باعدامهم جميعاً ان كرروا فعلتهم [3] ، لذلك عزم السلطان على القيام بزيارة إلى ثغر الاسكندرية ، ليطمئن على الوضع هناك ، ومعرفة مدى القوة التي يمتلكها حراس الابراج ، خوفاً من هجوم الغزاة عليهم ، فامر بتوزيع السيوف والخيول عليهم [4] . وللسؤال عن الاسباب التي دعت إلى تحالفهما ضد الدولة الجركسية ، لا يمكننا إلا الاستدلال ببعض التفسيرات التي تستمد اصولها من مجريات الأحداث انذاك ، فربما كانت البندقية قد لاقت معاناة من الضغوط السلطانية ضد تجارها ، فضلاً عن ذلك ان اسواق مصر وبلاد الشام لم تعد تكفي لامدادها من متاجر الشرق الاسلامي ، بما يكفل لها مصالحها التجارية ويجعلها تحتفظ بالسيادة التجارية التي انفردت بها من دون منازع في حوض البحر المتوسط في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي .

إنّ اجتماع كل تلك الأسباب كان محفزاً على التفكير في محاولة أن يسلكوا طريقاً تجارياً جديداً يمر بالخليج العربي والعراق ، إلا ان تواجد القوات البحرية الجركسية مع قوات الدولة العثمانية حال دون ذلك ، فضلاً عن ذلك ان استيلاء البرتغاليين سنة

---

(1) البيرة : قرية صغيرة تقع على ساحل بحر الأندلس ولها مرسى ترسو فيه السفن مابين مرسية والمرية . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ١ / ٥٢٦ .

(2) آبن اياس ، بدائع الزهور ، ٤ / ١٩١ ، ٢٠٥ .

(3) آبن اياس ، بدائع الزهور ، ٤ / ٢٠٥ ؛ دراج ، المماليك والفرنج ، ص ١٤٥ ؛ فهمي ، طرق التجارة ، ص ٣١ .

(4) آبن اياس ، بدائع الزهور ، ٤ / ١٩٣ .

(٩١٨هـ/١٥١٢م) على قاعدة هرمز التجارية الواقعة على رأس الخليج العربي انهت آخر خيط لاملهم المنشود [١] .

وبعد أن علمت البندقية عن طريق عملائها بالعلاقة الودية المصرية الفرنسية بادرت باعادة علاقاتها الودية مع الجراكسة بعد أن شهدت توتراً فأرسلت بعثة في سنة (٩١٨هـ/١٥١٢م) بقيادة سفيرها دومينيكو ترفيزان الذي عرف بمهارته السياسية حاملاً هدايا إلى السلطان الغوري ، وهي عبارة عن بلور وجوخ واثواب ، مؤكداً حسن نية دولته ورغبتها بعقد معاهدة تجارية مع السلطان وكشف النقاب عن حقيقة التآمر مع الشاه اسماعيل الصفوي وتبرئتهم منها ، وكذلك رغبتهم باعادة فتح كنيسة القيامة والسماح للرهبان بالعودة إلى اديرتهم [٢] ، وتعزيزاً لما بينته البعثة للسلطان قامت بإرسال سفنها إلى ميناء الاسكندرية لمزاولة التجارة هناك ومعاقبة قنصلهم بالاسكندرية بعد أن ثبتت خيانته ، وبهذا التصرف الدبلوماسي تمكن السفير البندقي من اعادة العلاقة مع المماليك الجراكسة واقناع السلطان باطلاق سراح جميع تجار الإفرنج والرهبان وفتح كنيسة القيامة ، كما نجح في عقد معاهدة تجارية ، وهي تعد آخر معاهدة تم عقدها بين الجانبين ، وعلى هذا احتفظت البندقية بجميع الامتيازات الممنوحة لتجارها ، وان لها الحق في نقل الحجاج الأوربيين إلى الأماكن المقدسة، مقابل ذلك تضمنت المعاهدة شروطاً منها : ان تتعهد البندقية بتخصيص عدد من سفنها لمطاردة القراصنة في المياه الشرقية للبحر المتوسط ، وبذلك استمرت العلاقات المصرية ــ البندقية على حالتها السياسية من دون وقوع احداث عدائية تذكر حتى سنة (٩٢٢هـ/١٥١٦م) [٣] .

---

[١] دراج ، المماليك والفرنج ، ص ١٤٦ .

[٢] آبن اياس ، بدائع الزهور ، ٤ / ٢٥٩ ؛ سليم ، قانصوه الغوري ، ص ١٢٢ .

[٣] المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٨٠٢ .

ثالثاً : العلاقات المصرية ـ الفرنسية (٨٢٥-٩٢٢هـ/١٤٢١-١٥١٦م)

لقد كان لفرنسا موقع جغرافي مهم إذ يحدها من الجنوب البحر المتوسط واسبانيا ، ومن الشرق ايطاليا ، اما من الشمال فيحدها بحر المانش وخليج كالي وغرباً المحيط الاطلسي [١] وقبل ان نعرف ماهية العلاقة بين الجراكسة وفرنسا لابد لنا من التعرف على اهم الاوضاع السياسية التي كانت تعيشها فرنسا ، من اجل تحديد بداية علاقتها مع الجراكسة وهل اتسمت بالعدائية ام بالسلمية ؟ .

لقد كانت فرنسا في تلك الحقبة تعيش في وضع غير مستقر نتيجة حربها مع انكلترا التي تعرف بحرب المئة عام [٢] ، لذلك كانت علاقتها مع الدولة الجركسية محدودة ، وغلب عليها الطابع السلمي منذ البداية ، ولم تذكر المصادر شيئاً عن طبيعة تلك العلاقات قبل قيام الدولة الجركسية غير ان المؤشر التاريخي لبدء تلك العلاقات حدث في بداية تسلم السلطان برسباي السلطنة ، إذ استقبل بدوره المبعوث الفرنسي محملاً بالهدايا لفخامته ، وهذا ما يدلُّ على ان العلاقات احتفظت بطابعها الودي ، إلا ان الأحداث الخارجية للجراكسة وعلاقتها مع الدول الأخرى والتي كانت متأرجحة بين العداء والسلم ، فرض عليها ان تتخذ الحيطة والحذر في علاقاتها مع الفرنسيين ، ففي عهد السلطان الغوري شهدت العلاقات توتراً ، وخاصةً بعد وصول المراكب الفرنسية وهي محملة باثواب الحرير والصوف والسلع الأوربية الأخرى ، وفي أثناء عودتها تعرضت إلى عملية قرصنة من قبل الفرسان الرودسيين ، ونتيجة لذلك ظن السلطان بان هناك اتفاقاً بين قادة المراكب والقراصنة ، لذلك اصدر السلطان امراً بالقاء القبض على القنصل الفرنسي فيليب دي بيرتياس ***Philip de Peretas*** ، فضلاً عن ذلك حجز الرعايا الفرنسيين ومصادرة اموالهم [٣] .

---

(١) التونسي ، صفوة الاعتبار ، ص ٨٩ .

(٢) بعد اعتلاء كابيه على العرش الفرنسي سنة (٧٢٩هـ/١٣٢٨م) حدثت في عهده من سنة (٧٣٨-٧٥٧هـ/١٣٣٧-١٣٥٦م) اضطرابات سياسية . للمزيد من التفاصيل ينظر : اليوسف ، العصور الوسطى ، ص ٢٦٠ ؛

J. B. Bury ,The Cambridge Medieval History ,(Great Britain – London : ١٩٦٤), Vol. VI , p. ٧٦٧.

(٣) المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق ٢ / ٦١٨ .

وبعد أن ضاقت الدولة الجركسية ذرعاً من سياسة البنادقة المزدوجة ، والتهديد الرودسي المستمر للدولة الجركسية نتج عن ذلك أمران أولهما : تقارب ودي بينهم وبين البنادقة ، وثانيهما قام القنصل الفرنسي بابلاغ السلطان الجركسي ، بان ملك فرنسا لويس الثاني عشر ، هو الملك الوحيد من ملوك الإفرنج الذي يستطيع مساعدته من الخطر الرودسي المستمر على دولته ، واعلامه بان وزير الدولة الفرنسية كان أخاً لرئيس فرسان الاسبتارية امري دي امبوزا ***Aimrey de Amboise*** ، لذا حاولت الاسبتارية تقوية العلاقات مع الدولة الجركسية من خلال قيامها بدور الوسيط بينها وبين جزيرتهم وحل المشاكل بينهما ، وتنفيذاً لذلك تحركت خمسة مراكب فرنسية من مدينة راجوزا [1] نحو جزيرة رودس ، إذ حاول الوفد من اعادة المراكب إلى الدولة الجركسية ، لكن من دون جدوى سوى اطلاق سراح الاسرى بمبلغ كبير من المال [2] ، وبناءاً على دور الوساطة الذي قامت به فرنسا بين المماليك الجراكسة والروادسة ، فقد تم الاقرار من قبل السلطان بعقد معاهدة تنص على حرية التجارة للتجار الفرنسيين في الموانئ المملوكية ، وفتح كنيسة القيامة ، والسماح لحجاجهم بزيارة الاراضي المقدسة ، وتنفيذاً لذلك اسرع ملك فرنسا بإرسال مبعوثه اندريه لوري في سنة (٩١٨هـ/١٥١٢م) لتطبيق تلك المعاهدة [3] .

وتوثيقاً للعلاقات بينهما قدمت مساعدة مادية للجراكسة لغرض مواجهة القوات البرتغالية ، فضلاً عن ذلك تعهدت بان يقوم فرسان الاسبتارية برودس بارجاع المراكب المملوكية التي تم الاستيلاء عليها [4] .

ومن خلال ما تم بحثه في العلاقات المصرية الفرنسية ، يتبين لنا بان العلاقة كانت وبقيت ودية طوال حكم الدولة الجركسية ، ويعود ذلك إلى مجموعة من الامور منها :

---

[1] راجوزا : هي مدينة وعاصمة لمقاطعة راجوزا وتقع في جبال ايبلي (هايبلي *Hyblaei*) فوق ممر نهر ارمينيوا *Irminio* على بعد حوالي ١١٢كم جنوب غرب سيروقوص *Syracuse* .ينظر :
E. B. " Ragusa " , Vol. ١٨, p. ١١٠٣-١١٠٤.

[2] دراج ، المماليك والفرنج ، ص ٥٠ .

[3] دراج ، المماليك والفرنج ، ص ٥٠ ؛ فهمي ، طرق التجارة ، ص ٩٧-٩٨ .

[4] سليم ، قانصوه الغوري ، ص ١٢٣ .

١.ما يخص الموقع الجغرافي من ناحية بعد المسافة بينهما .

٢. ان فرنسا فضلت اتخاذ الحيادية في علاقتها مع الجراكسة ، فضلاً عن كونها لم تشترك بأي أعمال عدائية تهدد الدولة الجركسية .

٣. والأمر الأخير والأهم في الموضوع هو معرفة فرنسا بقوة الدولة الجركسية وانها صاحبة السيادة في المنطقة من دون منازع لما تمتلكه من قدرة وقوة على الرد الحازم في اية لحظة تشعر فيها ان كان هناك خطر يهدد كيانها السياسي ، وعلى هذا الاساس حاولت فرنسا الاحتفاظ باستمرار علاقتها الودية مع الجراكسة حتى السيطرة العثمانية على الدولة المملوكية .

الفصل الثالث : العلاقات الاقتصادية (التجارية) المصرية الأوربية

أولاً : عوامل ازدهار تجارة مصر الخارجية في عصر المماليك الجراكسة

أ . الموقع الجغرافي

ب. سياسة الدولة

ج. المعاهدات والاتفاقيات التجارية

د. حماية الطرق التجارية

هـ. طرق التجارة بين الشرق والغرب

و . المراكز التجارية (الموانئ)

ثانياً العلاقات المصرية ـ الإيطالية(٧٨٧-٩٢٢هـ/ ١٣٨٦-١٥١٦م) .

أ: العلاقات المصرية ـ البندقية (٧٨٨-٩٢٢هـ/١٣٨٦-١٥١٦م)

ب : العلاقات المصرية ـ الجنوية (٧٨٧-٩٠١هـ/١٣٨٥-١٤٩٥م)

ج : العلاقات المصرية ـ الفلورنسية (٨٢٦-٩١٥هـ/١٤٢٢-١٥٠٩م)

ثالثاً : العلاقات المصرية ـ الكتالونية (٨٣٦-٩٠٨هـ/ ١٤٣٢-١٥٠٩م)

رابعاً : العلاقات المصرية ـ الفرنسية (٨٦١-٨٧٧هـ/١٤٥٦-١٤٧٢م)

لاشك أن أي ازدهار حضاري في أي بلد يتطلب توافر عدة مقومات تسهم في تــوفير الأرضية الخصبة ، وبما ان التجارة هي احدى المعالم الحضارية لتقدم الــبلاد ذات الموقــع التجاري المميز ، فمن الضروري الوقوف جلياً على الابعاد الاقتصادية لها [١] .

لقد كان لدولة المماليك الجراكسة علاقات خارجية واسعة النطاق مع عدد كبير مــن الدولة المعاصرة لها ، وتنوعت تلك العلاقات بين ما هو سياسي وما هو اقتــصادي ، إلاّ ان محور دراستنا سينصب على الجانب الاقتصادي ، الذي يتضمن كل من القطــاع الزراعــي والحرفي والتجاري ، وكل تلك القطاعات شكلت المقومات الاساسية للاقتــصاد المملــوكي ، وممّا هو ملاحظ ان القطاع الزراعي ارتبط بالجيش لكون المماليك استحدثوا نظاماً اقطاعيــاً بُنيَ على أُسس تتلائم مع الحكم العسكري ، لكن القطاع الحرفي ارتــبط بالوضــع الــسياسي الداخلي للدولة الجركسية ، اما القطاع التجاري الذي يعد من اهم القطاعات للمماليك الجراكسة لانه كان مرتبطاً بالسياسة الخارجية ، فضلاً عن السياسة الداخلية لها [٢] .

إلا ان تعرضَ القطاعين الحرفي والزراعي إلى الفــساد والاهمــال جعــلّ الدولــة الجركسية تصب جل اهتمامها الأول والاخير على القطاع التجاري ، الذي لم تبرز اهميته إلا في أوآسط القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، وهذا يعود إلى عدة عوامل كان لها تأثير على عدم انتباه المماليك إلى الجانب التجاري قبل ذلك الحين ومن هذه العوامل : العداء السياسي والعسكري المستمر مع القوى الأوربية ، وكذلك تشجيع المغول للتجارة البرية عــن طريق بلاد فارس وارمينيا وموانئ البحر المتوسط ، فضلاً عن ذلك قرارات الحرمــان [٣] ، التي أصدرتها البابوية وخاصة بعد سقوط الامارات الصليبية في بلاد الشام والتي نصت فيها

[١] ياسر عبد الجواد حامد المشهداني ، العلاقات المصرية ــ الهندية (٦٤٨-٩٢٣هــ/ ١٢٥٠-١٥١٧م) دراسة في الجوانب السياسية والحضارية (رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية التربية - جامعة الموصل : ٢٠٠٠م) ، ص ٤١ .

[٢] ضومط ، الدولة المملوكية ، ص ٨٣ -٨٤ ، ١٧٩ ، ٢٠١ .

[٣] لقد نجحت التحريمات البابوية لفترة من الزمن والتي استمرت حتى النصف الأول من القرن الرابع عــشر الميلادي ، وذلك بسبب التطورات السياسية والاقتصادية التي حصلت في الشرق . للمزيد من التفاصيل . ينظر : ضومط ، الدولة المملوكية ، ص ٢٠٤-٢٠٥ .

على تحريم المتاجرة مع المماليك المسلمين [1] ، لذلك اتسمت العلاقات بين الشرق والغرب قديماً وحديثاً بالطابع العدائي تارةً والسلمي تارةً أخرى ، وعلى الرغم مما تركته الحروب الصليبية من اثار سلبية على جانبي البحر المتوسط ، فان العلاقات التجارية لم تنقطع نهائياً ، إذ ان الاقتصاد يرتكز على وحدات يكمل بعضها البعض الاخر ، ومنذ ذلك الحين استحدثت الدولة الجركسية نظاماً للتجارة له قواعد ثابتة للمبادلات التجارية القائمة بين آسيا وأفريقيا وأوربا [2] .

وقبل ذكر عوامل ازدهار تجارة المماليك الجراكسة لابد من التركيز على ابرز الأحداث التي شهدتها تلك الحقبة والتي كانت سبباً في ازدهار تجارة المماليك لمدة لا تزيد عن أربعين سنة ، فالحدث الأول سقوط القسطنطينية سنة (٨٥٧هـ/١٤٥٣م) بايدي الأتراك العثمانيين نتج عنه اضطراب التجارة بين الشرق والغرب ، فبعد ان كان التجار الاوربيون يسلكون الطرق البرية والبحرية من اسيا إلى أوربا عبر البحر الاسود والاناضول والمضايق ، اصبح المرور بتلك الطرق أمراً صعباً ، فضلاً عن سوء معاملة السلطات العثمانية للتجار الايطاليين واغلاق البحر الأسود أمام تجارهم ، الأمر الذي أدى إلى مغادرة قسم منهم إلى بلادهم ، اما القسم الاخر فقد اتخذ طريقاً بديلاً أكثر أمناً على تجارتهم متجهاً إلى البلاد الجركسية [3] .

اما ما يخص الدولة العثمانية التي أولت كل اهتمامها للعمليات الحربية من اجل السيطرة والتوسع ، لذلك لم تعطِ اية اهمية للتجارة ، بل انها قامت بالقاء القبض على الجاليات

---

[1] توفيق سلطان اليوزبكي ، تأريخ تجارة مصر البحرية في عصر المماليك (مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر – جامعة الموصل : ١٩٧٥م) ، ص ٣٩ ؛ سير مارس ارنولد ، تراث الاسلام (دار الطليعة– بيروت : ١٩٧٢م) ، ص ٢ ؛ سعد ، تأريخ مصر ، ص ٣٦٨ ؛

١. *R. H.C. Davis , A History Of Medieval Europe (Great Britain – London : ١٩٦٦), p. ٣٩١ ; Arnold Hottinger , The Arabs their history Cultuer and plece in the Modern World(Great Britain – London : ١٩٦٠), part. I , p. ١١٠ , ١١٣.*

[2] علي السيد علي محمود ، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين (عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية – الاسكندرية: ١٩٩٦م) ، ص ١٣١ ؛ المشهداني ، العلاقات المصرية ، ص ٤١ .

[3] كاهن ، الشرق والغرب ، ص ٢٤٨ ؛

Aliyahu Ashtor , Studies On The Levantine Trade In The Middle Ages (Great Britain – London : ١٩٧٨), p. ٢١ ; Bury , The Cambridge , Vol. VIII , p. ٢٣١.

الأجنبية ، وخاصةً التجار الايطاليين الذين احتكروا التجارة في المنطقة منذ امد بعيد [1] ، وفيما يتعلق بالجانب الأوربي ، وخاصة البابوية التي كانت تفرض قيوداً معينة من ابرزها ، منع المتاجرة مع الدول الإسلامية ، إلا ان ما حصل للتجار الايطاليين بعد سقوط القسطنطينية جعلها تتساهل في فرض بعض القيود المفروضة على بضائع معينة فاعطتهم الحرية في التعامل مع الدولة الجركسية ، وخاصة في مجال استيراد البخور والتوابل [2] النفيسة ***The Fine*** [3]***Spices*** ذات القوة الشرائية العالمية [4] والحرير والمصنوعات الخزفية [5] تعويضاً

---

[1] لقد حاولت الممالك الإيطالية التقرب من الدولة العثمانية خلال فترة صراعها مع البيزنطيين ، وفي أثناء ذلك راسلت الممالك الإيطالية أيضاً البيزنطيين سراً من اجل عدم فقدان مصالحها التجارية . للمزيد ينظر : فهمي ، طرق التجارة ، ص ٣٨ .

[2] لقد كان تركيز التجارة الأوربية على محصولين اساسيين في تجارتهم منها البخور والتوابل التي لا يمكن الاستغناء عنهما ، لأهميتها الدينية والدنيوية ، فالكنائس والأديرة كانت تحتاج إلى البخور وخاصةً في اوقات الصلاة والاحتفالات الدينية ، وهذا يرفع من شأن الكنيسة ، اما التوابل فهي لا تقل اهمية عن البخور ، فهي تتعلق بالناحية الغذائية ، لاستخدامها في حفظ الاطعمة . للمزيد من التفاصيل ينظر : عاشور ، بحوث ودراسات ، ص ١٣١-١٣٢ .

[3] *Spices* : فان مصطلح *Spices* هو لحد ما يستخدم لغير ما يقصد به كتوابل ، لانه في العصور الوسطى كان يشار بهذا المصطلح على مجموعة متنوعة من المنتجات ، ففي احدى المعاهدات المبكرة في القرن الرابع عشر تم ادراج (٢٨٨) نوعاً مختلفاً من هذه المنتجات التي تشمل (القطن والنحاس والتمور والصمغ العربي والخردل وزيت الزيتون والبهارات والرصاص والشمع ...الخ) وكانت تلك المواد تأتي من الشواطئ الجنوبية أو الشرقية للبحر المتوسط ، وكان لها مردود مالي كبير في الشمال . ينظر :
Divas , A history , p. ٣٩٥ .

[4] لم تحدد القيمة الشرائية لتلك المواد حتى بدايات القرن السابع عشر الميلادي / إذ كانت السلع تقدر بموازين ومقاييس أو معايير تختلف حسب الزمان والمكان ، فقد كانت مادة الفلفل تقدر بثلاثمئة رطل في الهند ، بينما يساوي مئة رطل في منطقة البحر المتوسط . ينظر : عثمان ، تجارة المحيط ، ص ٢١٥ .

[5] عاشور ، بحوث ودراسات ، ص ١٣١-١٣٢ ؛

Pirnne , Economic and the Social History of Medieval Europe (Great Britain– London : ١٩٦٦) , p. ١٤٤ – ١٤٥ .

لما فقدوه من أسواق القسطنطينية في المجـال التجاري ، ومن البضائع التي منع التعامل بها، وخاصة التي تدخل في الأعمال الحربيـة كالأخشاب التي تدخل في صناعة السفن [١] .

ومما هو معلوم ان تأخر وسائل الانتاج في المدن الأوربية طوال العصور الوسطى كان حافزاً لاتجاههم نحو الشرق من اجل الحصول على البضائع التي يحتاجونها مقابل ذلك بدأ الإقطاع الأوربي بالتلاشي تدريجياً ، فتحول النظام الإقطاعي الأوربي من زراعي إلى تجاري في أواخر القرون الوسطى حتى اندفع الاوربيون في طلب السلع الشرقية ، فوصلت إليهم عن طريق قنوات الاتصال التقليدية التي هي على وجه التحديد عبر آسيا الوسطى وروسيا والخليج العربي والبحر الأحمر ، ومنه إلى سواحل البحر المتوسط ومن ثم تنقل إلى أوربا [٢] .

أما بخصوص الحدث الثاني فيتعلق بالسياسة التعسفية التي استخدمها حاكم اليمن ضد التجار الأوربيين في ميناء عدن ، منها فرض الضرائب الباهضة الثمن على البضائع التي يحملها التجار ، فضلاً عن التفتيش الدقيق الذي تقوم به السلطات اليمنية [٣] ، ولذلك ارتفعت أسعار السلع في أسواق مصر لعدم وصولها إلى الموانئ المصرية وهذا ما قلل من فرص الربح المجزي للدولة والتجار في مصر ، علماً ان نسبة كبيرة من التجار في عدن كانوا من المصريين ، الذين تلقوا تحذيراً من سلطانهم في سنة (٨٥٧هـ/١٤٥٣م) من إرساء سفنهم في ميناء عدن ، والطلب منهم الاقامة في ميناء جدة [٤] ، فضلاً عن تذمر التجار الأوربيين

---

[١] فهمي ، طرق التجارة ، ص ٣٩ ؛ عبد الأمير محمد أمين ، دراسات في النشاط التجاري والسياسي الأوربي في اسيا (١٦٠٠-١٨٠٠م) (منشورات الجامعة الاردنية - عمان : ١٩٨٧م) ، ص ٦ .

[٢] عاشور ، بحوث ودراسات ، ص ١٣١ -١٣٢ ؛ الحجي ، العلاقات بين المماليك ، ص ٣٦٠ ؛ أمين ، دراسات في النشاط ، ص٧ .

[٣] عندما تصل إحدى السفن إلى ميناء عدن ، يصعد إليها عمال الميناء وينزع قلاعها ودفتها ومرساتها حتى لا يسمحوا لها بالابحار قبل دفع الضرائب ، ثم يصعد رجل يفتش الرجال تفتيشاً دقيقاً مهيناً وكذلك تفتش النساء امراة . ينظر : المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٦٨١ ؛ عثمان ، تجارة المحيط ، ص ١٧٥ .

[٤] ازدادت أهمية ميناء جدة في التجارة المصرية الهندية منذ سنة (٨٢٥هـ/١٤٢٢م) إذ أصبحت السفن التجارية القادمة من الهند تبحر مباشرةً من دون المرور بميناء عدن ، وبذلك ازدهر ميناء جدة ، الأمر الذي حفز السلطة المملوكية من الاشراف المباشر على الميناء من لدن كل سلطان جركسي يتولى السلطنة

أيضاً من تلك السياسة ذات المصلحة الواحدة ، وخاصة عندما كان لا يسمح للسفن القادمة من الشرق الأقصى من الهند والصين إلى ان تصل إلى شمال ميناء عدن في البحر الأحمر ، إلا أن آخر ما تصل إليه السفن هو ميناء عدن ومن ثمة تنقل البضائع شمالاً اما عن طريق القوافل في شبه الجزيرة العربية أو عن طريق السفن إلى موانئ مصر والحجاز (١) مما أدى إلى تقليل أهمية طرق التجارة الأسيوية في القرن الثامن الهجري / الرابع العشر الميلادي ، وانتعاش طريق البحر الأحمر في مصر ، الأمر الذي اتاح الفرصة لسلاطين الجراكسة من استثمار الطرق التجارية والاستفادة من التجارة من اجل تثبيت اركان دولتهم وبهذا اصبحت التجارة عنصراً مهماً من عناصر العلاقات الاقتصادية للدولة الجركسية (٢) .

أولاً : عوامل ازدهار تجارة مصر الخارجية في عصر المماليك الجراكسة

بعد أن توضحت الأحداث التي سبقت عوامل ازدهار التجارة الجركسية لابد من التركيز على أبرز العوامل التي تمكنت من خلالها الدولة الجركسية من السيطرة على تجارة الشرق والغرب حتى أواخر القرن التاسع الهجري / الخامس العشر الميلادي (٣) ، ومن أبرز تلك العوامل :

أ ـ الموقع الجغرافي

لقد كان لموقع مصر الجغرافي أثرٌ إيجابي في حياتها الاقتصادية والسياسية (٤) ، إذ يحدها من الغرب الصحراء الليبية ، ومن الجنوب بلاد النوبة ، اما من الشمال فيحدها البحر

لغرض جمع الضرائب ، وبهذا صار يتوجه كل عام امير مملوكي للجباية بأمر من السلطان . ينظر : المشهداني ، العلاقات المصرية ، ص ٥١-٥٢ .

(١) فهمي ، طرق التجارة ، ص ١٣٨ ؛ عثمان ، تجارة المحيط ، ص ١٧٤-١٧٦ .

(٢) حسن ابو طالب ، علاقات مصر العربية ١٩٧٠-١٩٨١ مرحلة السادات (مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت : ١٩٩٨م) ، ص ١٩٤ ؛

Tom Little , Modren Egypt (Great Britain - London : ١٩٦٧), p. ٢٤.

(٣) *Syduey Netteton Fisher , The Middle East Ahistory (Great Britain - london : ١٩٦٠), p. ١٤٣.*

(٤) اليوزبكي ، تأريخ تجارة ، ص ٣ ؛ عاشور ، العصر المملوكي ، ص ١ .

المتوسط وبلاد الشام ومن الشرق البحر الأحمر [1] ، ممّا مكنها من السيطرة بشكل واضح على منطقة حوض البحر المتوسط [2] فضلاً عن ذلك جعلها حلقة وصل بين تجارة الشرق والغرب في اواخر العصور الوسطى [3] وبحكم ذلك الموقع أصبحت التجارة المورد الرئيس لدولة المماليك الجراكسة ، وذلك لقيامها بفرض رسومٍ كمركية على البضائع التجارية الداخلة إلى الموانئ المصرية [4] ، وبذلك بسطت دولة المماليك نفوذها على ثلاثة بحار هامة وهي البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ومدخل المحيط الهندي [5] مما مكنها من تكوين علاقات تجارية مع معظم دول أوربا المتمثلة بالممالك الإيطالية والأسبانية وفرنسا [6] وبهذا شغلت الدولة الجركسية مكانة سياسية واقتصادية هامة طوال فترة حكمها وبهذا أصبحت سوقاً اقتصادياً مفتوحاً للتبادل التجاري [7] .

---

(1) الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ٣٩ ؛ آبن حوقل ، صورة الارض ، ص١٢٦ ؛
Camille Mirepoix , the Missle East the Arab States(No. p. – London : No. Dt.) , p ١٩.

(2) نور الدين حاطوم ، تأريخ العصر الوسيط (دار الفكر الحديث – بيروت : ١٩٦٧) ٤٣٣ .

(3) محمد ماهر حمادة ، الوثائق السياسية والادراية للعصر المملوكي (٦٥٦-٩٢٢هـ / ١٢٥٨-١٥١٦م) دراسة ونصوص (منشورات مؤسسة الرسالة – بيروت : ١٩٨٠م) ، ص ٦٢-٦٣ ؛ عبد علي الخفاف ، جغرافية العالم الاسلامي اسس عامة في المحيطين الطبيعي والبشري (دار الشروق – الاردن : ٢٠٠٣م) ، ص ١٧ .

(4) ارنولد ، تراث الاسلام ، ١ / ٩٢ ؛ اليوزبكي ، تأريخ تجارة ، ص ٣٩ .

(5) البغدادي ، الافادة والاعتبار ، ص ٦٦ – ٦٧ ؛ الانصاري ، نخبة الدهر ، ص ٢٢٩ ؛
Mirepoix , The Missle , p. ١٩.

(6) محمد محمد ابراهيم الديب ، الجغرافية السياسية اسس وتطبيقات (المطبعة الفنية – مصر : ١٩٧٣م) ، ص ٤٩ ؛ محمد كريم ابراهيم ، العلاقات التجارية بين عدن والهند خلال القرنين السادس والسابع الهجريين / الثاني والثالث عشر الميلاديين (مجلة المؤرخ العربي – دار الخليج : ١٩٨٧م) ، ع٣٣ ، ص ٢٢٥ .

(7) كارل بروكلمان ، تأريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه أمين فارس وآخر (دار العلم للملايين – بيروت : ١٩٧٧م) ٢ / ٢٥٠ ؛ عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الولايات العربية ابان العصر العثماني (١٥١٧- ١٧٨٩) (المجلة العربية للعلوم الانسانية – الكويت : ١٩٨٣ م) ، ع١٩ ، ص ١٧ .

ب ـ سياسة الدولة

لقد كان لسياسة الدولة أهمية كبرى في ازدهار تجارة مصر الخارجية من خلال الإجراءات التي كان يتخذها سلاطين الجراكسة الذين سعوا إلى تشجيع حركة التبادل التجاري في الموانئ المصرية ، فضلاً عن منح التجار الأوربيين الكثير من الامتيازات الاقتصادية والتسهيلات الادراية والضمانات القضائية [1] وذلك يتطلب أمرين ، الأول : تأمين طرق التجارة من القراصنة من أجل إيصال بضائع الشرق سليمة إلى موانئ الدولة الجركسية في البحر عبر ميناء عيذاب [2] ، والبحر المتوسط من خلال مينائي دمياط [3] والاسكندرية [4] أما الأمر الاخر فهو تشجيع التجار الأوربيين على جلب بضائعهم إلى موانئ الدولة الجركسية مقابل حصولهم على حاصلات الشرق [5] .

[1] عاشور ، بحوث ودراسات ، ص ١٣٧ ؛ الحجي ، العلاقات بين سلطنة ، ص ٣٦٠ .

[2] ميناء عيذاب : يقع على ساحل البحر الأحمر الغربي ويعد مرسى للسفن القادمة من الهند والصين ، وقد اختلف المؤرخون الأقدمون في أمر تبعيتها ، فقسم ينسبه إلى البجاة احدى نواحي الحبشة ، والقسم الاخر ينسبة إلى مصر وهو الاصح ، ومنه تسير المراكب التجارية القادمة من ميناء عدن إلى الموانئ المصرية . ينظر : محمد بن احمد بن جبير ، رحلة آبن جبير (دار صادر - بيروت : ١٩٦٤م) ، ص ٤٨ ؛ ياقوت الحموي ، معجم ، ٤ / ١٧١ .

[3] ميناء دمياط : وهو اشهر الموانئ البحرية المهمة على النيل ، يقع شرق مصر نهاية البحر الأحمر ، تعرض لعدة هجمات من لدن الصليبيين أثناء الحكم الايوبي لمصر ، إلا ان تمت اعادة بنائه في العصر المملوكي ، إذ تنقل منه البضائع إلى منطقة الفرما ثم السويس ، ويعد مخرج التجارة المصرية إلى البحر المتوسط . للمزيد من التفاصيل ينظر : الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ٣٠ ؛ آبن شاهين ، زبدة كشف ، ص ٣٥ .

[4] ميناء الاسكندرية : من اشهر الموانئ في البحر المتوسط ، إذ يعد منفذاً للتجارة المصرية ، ويعد كذلك من اكبر الأسواق العالمية لتصدير التوابل الهندية ، وكان يسمى بمخزن العالم . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ١ / ١٨٧ .

[5] عاشور ، العصر المملوكي ، ص ٢٩٦-٢٩٩ ؛ بحوث ودراسات ، ص ٣٣ ، ١٣٦ .

وتنفيذاً للأمر الأول الذي يخص حماية المراكب التجارية القادمة من الموانئ المصرية، فقد اصدرت الدولة الجركسية امراً يقضي بتحطيم المركز التجاري في عدن [1] وخاصة بعد سقوط مدينة القسطنطينية ليتسنى وصول المراكب التجارية إلى ميناء عيذاب وجدة ، فضلاً عن اتخاذ اجراء آخر ينص على تخصيص رسوم كمركية على المراكب الداخلة إلى الموانئ المصرية ، ومقابل ذلك فرض غرامة مالية عالية على المراكب التجارية المخالفة لذلك الامر ، أي سوف تكون الضريبة ١٠% للسلع الواردة من الشرق إلى ميناء جدة أما في حالة توجه التجار ببضائعهم إلى ميناء عدن عندئذ ستضاعف الضريبة على البضائع التجارية ، وان تطلب الأمر فستتخذ الدولة أسلوباً مشدداً يقضي بالمصادرة عند الحاجة هذا من ناحية [2] ، ويعلق المقريزي على ذلك قائلاً ((**وجعل عقوبتهم ان من اشترى بضاعة من عدن وجاء بها إلى جدة ، ان كان من الشاميين أو المصريين ، ان يضلعف عليه العشر بعُشْرَيْن ، وان كان من اهل اليمن ان تؤخذ بضاعته باسرها**)) [3] ، أما من ناحية أخرى تشجيع التجار الأوربيين على جلب بضائعهم إلى الموانئ المصرية فقد قامت الدولة الجركسية بتقديم الخدمات والتسهيلات لتجار أوربا ، وذلك ببناء الفنادق والخانات ليتسنى لتجار أوربا السكن فيها ، وتعيين قنصل داخل الفندق يشرف على شؤون التجارة ومصالحهم ، فضلاً عن ذلك اعفائهم من دفع الرسوم السنوية [4] ترتب على ذلك كله توافد عدد كبير من التجار الأوربيين إلى الدولة الجركسية ، لارتياحهم من التسهيلات التي قدمت لهم من لدن السلطات الجركسية التي تخدم مصالحها التجارية ، فضلاً عن حسن المعاملة التي تلقوها من لدن العاملين في الموانئ [5] ، ومما يثبت ذلك زيارة الأمير الفرنسي لمصر في سنة

---

(1) ميناء عدن : وهو من اكبر المراكز التجارية ، ويعد مدخل البحر الأحمر الجنوبي ، ويبعد عن باب المندب ١٠٠كم . للمزيد ينظر : ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٧ / ٣٢ ؛ وينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ٤ / ٨٩ .

(2) عثمان ، تجارة المحيط ، ص ١٧٦ ؛

Lane – Pool , History , p. ٣٤٠ .

(3) السلوك ، ج٤/ق٢ / ٩٢٩ .

(4) فهمي ، طرق التجارة ، ص ١٣ .

(5) ضومط ، الدولة المملوكية ، ص ٢٢٣ ؛ اليوزبكي ، تأريخ تجارة ، ص ٥٣ .

(٧٩٨هـ/١٣٩٥م) واطلاعه على واقع التسهيلات المقدمة من قبل الدولة الجركسية [١] ، فضلاً عن ذلك فإن هنالك أُموراً اخرى ساعدت على ازدهار تجارة المماليك الجراكسة منها اهتمام السلاطين بالجانب الامني الخاص بالاسواق التجارية من اجل توسيع نطاق التجارة لاستقبال اكبر عدد ممكن من التجار الأوربيين [٢] ، إلى الأسواق الجركسية التي كانت على ثلاثة أنواع منها المحلية والموسمية والسنوية ، علماً ان الأسواق المحلية كانت دائمية ، اما الأسواق الموسمية فكانت تفتح في فترة ورود التوابل من الأسواق الهندية ، إلا ان الأسواق السنوية فقد كانت تفتح في مناسبات الأعياد فقط [٣] .

وعلى الرغم من ذكر عوامل وامور ساعدت على ازدهار تجارة مصر إلا ان سياسة السلاطين الجراكسة كانت عاملاً أساسياً لازدهارها ، ففي عهد السلطان اينال الذي اتخذ اجراءات امنية مشددة ، حفاظاً على الحركة التجارية التي كان لها مردودٌ إيجابيٌ على الدولة الجركسية وذلك بفرضه ضرائب على البضائع التي تكون قيمتها ٢٠،٠٠٠ دوك مقابل دفع رسم كمركي يقدر بحوالي ٤٠٠٠ [٤] ، فضلاً عن فرض الدولة الجركسية الحماية اللازمة على السلع التابعة للتجار الأوربيين ، واصدار أمر ينص على اعفاء السلع العائدة للتجار الاكثر إقامة ومتاجرة مع الدولة الجركسية من الضرائب الكمركية والسماح لهم بتوسيع وكالاتهم التجارية وانشاء مخازن وفنادق وتعيين وكلاء لقناصلهم في بعض الموانئ والمراكز التجارية للاشراف على عمليات البيع والشراء وتحصيل الرسوم الكمركية وتسليمها إلى السلطات الحاكمة ، ونتيجة لتلك السياسة السلمية التي اتبعها السلطان اينال شجعت الأوربيين بالوفود إلى الدولة الجركسية وباعداد كبيرة ولاسيما تجار البنادقة الذين منحوا حرية التعامل

---

(١) عاشور ، العصر المملوكي ، ص ٣٠١ .

(٢) ابن شاهين ، زبدة كشف ، ص ٤١ ؛ عمر عبد العزيز عمر ، تأريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢م) (دار المعرفة الجامعية – الاسكندرية : ١٩٨٤م) ، ص ٢٤-٢٥ ؛ عمر سلهم صديق آل صالح بك ، الحركة الصليبية في ساحل شرق أفريقيا (٦٦٩-٩٥٠هـ/١٢٧٠-١٥٣٤م) (رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب – جامعة الموصل : ٢٠٠١م) ، ص ١٢٣ .

(٣) فهمي ، طرق التجارة ، ص ٢٨١-٢٨٤ . عن الأسواق واسمائها ينظر : المقريزي ، المواعظ والاعتبار ، ٢ / ٩٤-١٠٧ .

(٤) فهمي ، طرق التجارة ، ص ١٢٦-١٢٧ .

التجاري إذ سُمح لهم بتداول نقودهم الخاصة من ناحية بهم والمعروفة بـ (الدوك البندقي) كعملة رسمية في عملية التجارة [١] .

ومن الجدير بالذكر ان السياسة التي اتبعها السلطان اينال قد سهلت الحركة التجارية في مصر ، وهذا ما كان له مردود ايجابي لدولته بفرضها الرسوم الكمركية على البضائع الداخلة والخارجة من موانئها .

أما في عهد السلطان قايتباي شهد عهده توتراً في العلاقات مع الدولة العثمانية التي حاولت بدورها بسط السيطرة على القبائل التركمانية ، وعلى الرغم من كل تلك الظروف السياسية المضطربة فقد اهتم السلطان الجركسي بالجانب التجاري الذي عدّهُ المورد الرئيس لدولته من أجل تثبيت أركانها الدولة والوقوف أمام الخطر العثماني المهدد لدولته من جهة الشمال ، وبناءاً على تلك الظروف السياسية التي انعكست على الجانب التجاري ، وعلاقة الدولة الجركسية بالدول الأوربية ، ففي سنة (٨٧٥هـ/١٤٧٠م) استقبل السلطان الجركسي قايتباي سفير ملك فرنسا لويس الحادي عشر الذي كان يحمل رسالة مضمونها تهنئة السلطان بتوليه عرش السلطنة ، وكذلك ابقاء الاتفاقيات التجارية السابقة مع الاحتفاظ الامتيازات كافة التي كانت في عهد السلاطين السابقين [٢] .

لقد واصل السلطان الغوري سياسة اسلافه من السلاطين الذين صبوا اهتمامهم على التجارة ، فكانت خطواته الاولى تهدف إلى إنشاء عدد من المراكب التجارية في مدينة رشيد ورصيف بولاق ، واوكل تلك المهمة إلى الأمير محمد يبك في سنة (٩١٤هـ/١٥١٠م) الذي كانت مهمته توفير الامن للموانئ المصرية وحماية السفن التجارية القادمة إلى الموانئ من هجمات القراصنة [٣] ، لتسهيل حركة العملية التجارية إلى أكبر حدٍ ممكن [٤] ، وتدعيماً

[١] فهمي ، طرق التجارة ، ص ٣٩ ؛ علماً ان الدولة الجركسية في عهد الناصر فرج ضربت عملتها على زنة الدنانير الافرنتية ، كتب على وجهها الأول ((لا اله إلا الله محمد رسول الله)) وفي الوجه الثاني اسم السلطان ، وفي وسطه سفط مستطيل بين خطين ، وعرفت بـ (الناصرية) . ينظر : القلقشندي ، صبح الاعشى ، ٣ / ٥٠٨ ؛ وينظر أيضاً الملحق رقم (٢) .

[٢] فهمي ، طرق التجارة ، ص ٥٢ .

[٣] فهمي ، طرق التجارة ، ص ١٢٦ ؛ اليوزبكي ، تأريخ تجارة ، ص ٤ ، ٣٩ .

[٤] زاهر رياض ، استعمار أفريقيا (الدار القومية – القاهرة : ١٩٦٥م) ، ص ١٢ .

للحالة الامنية التي كان بحاجة اليها الجانب التجاري الجركسي ، فقد تم تكوين قوى بحرية اخرى في منطقة السويس في سنة (٩١٧هـ/١٥١٣م) التي خصصت لمتابعة القراصنة المتواجدين في البحر الأحمر والمحيط الهندي ومهاجمتهم [١] ، ولهذا السبب توافد الكثير من التجار الأوربيين الى الدولة الجركسية ، فأصبحت على هذا ملتقى كل من تجار البنادقة والجنويين والكتلانيين والفلورنسيين [٢] .

ج ـ المعاهدات والاتفاقيات التجارية

كما ذكرنا سابقاً فقد كان لمصر في عصر المماليك الجراكسة الحظ الأوفر بالجزء الأكبر من التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وكانت تلك الروابط الاقتصادية عن طريق المعاهدات والاتفاقيات التجارية والاتصالات الدبلوماسية مع ملوك الدول الأوربية وحكامها [٣] ، فاتبع السلاطين سياسة عقد معاهدات مع الدول الأوربية من اجل تسهيل العملية التجارية ، وما ترتب على ذلك من فائدة للدولة الجركسية من دخول اكبر عدد من المراكب التجارية إلى الموانئ التابعة لها ، وبذلك يتم فرض ضرائب على البضائع بقدر قيمتها [٤] .

لقد أصبحت التجارة من ابرز المظاهر المهمة في الاقتصاد الجركسي لما لها من مردود مادي واسع ، ولهذا السبب حرص المماليك الجراكسة على بسط نفوذهم السياسي على موانئ البحر الأحمر والحجاز الذي يعد المنفذ التجاري لهم ، بناءاً على تلك المعاهدات والاتفاقيات الايطالية والاسبانية [٥] ، التي استمرت مدةَ خمسٍ وعشرينَ سنةً [٦] .

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ٥ / ٦٧ ؛ اليوزبكي ، تأريخ تجارة ، ص٩١ .

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ٥ / ٧٠ .

(٣) سعد ، تأريخ مصر ، ص ٤٠١ ؛ عاشور ، العصر المملوكي ، ص ٣٠٣ .

(٤) ابو حديد ، العصور الوسطى ، ص ١٣٢ ؛ اليوزبكي ، تأريخ تجارة ، ص ٧ .

(٥) حسن ، مصر في العصور ، ص ٤٩٤-٤٩٥ ؛ عبد الرزاق ذنون الجاسم ، العلاقات السياسية والاقتصادية بين المماليك وبلاد النوبة (٦٤٤-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م) دراسة في التاثيرات الحضارية (رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب – جامعة الموصل : ١٩٨٠م) ، ص ٦١ .

(٦) رياض ، استعمار أفريقيا ، ص ١٢ .

إنْ دلَّ هذا على شيء فانما يدل على المكانة السياسية التي كانت تتمتع بها الدولة الجركسية آنذاك ، وهذا ما انعكس على الجانب التجاري الذي حرص عليه سلاطين المماليك الجراكسة ، ففي سنة (٨١٤هـ/١٤١١م) وصلت إلى السلطان الناصر فرج رسالة من دوق البندقية بواسطة مبعوثه نيقولا البندقي التي نصت على مقترحات تخص الجانب الامني لتجار البندقية ، وهذا ما سهل عملية دخولهم في الموانئ المصرية بكل حرية وأمان ، واستمراراً لتلك المراسلات أرسل القبطان الجنوي رسالة في السنة ذاتها إلى السلطان الجركسي عبَّر فيها عن الثناء والشكر لحسن المعاملة لتجارهم من قبل السلطة الجركسية ، واوضح له انه بالمقابل سوف يتوجب على الجنويين حماية المراكب التجارية الأوربية الداخلة إلى الموانئ المصرية [١] .

وكان حصيلة تلك المعاهدات والمراسلات انتعاش الحركة التجارية واستمرارها خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين / الرابع والخامس عشر الميلاديين ، فضلاً عن كثرة توافد التجار الأوربيين إلى الدولة الجركسية مستفيدين من الوضع الامني الذي شهدته تلك الحقبة .

وممّا هو ملاحظ ان الوضع السياسي لكل دولة له تاثير على الجانب الاقتصادي للدولة وهذا ما تبين في عهد السلطان برسباي لما شهده عهده من حروب خارجية مع كل من قبرص ورودس ، وعلى الرغم من ذلك كان للتجارة دورٌ في العلاقات الجركسية الأوربية ، فقد استقبل السلطان المبعوث البندقي حاملاً معه رسالة تخص الناحية التجارية التي تؤكد على توثيق العلاقات التجارية بينهما واستمرارها ورحب السلطان بذلك ، فضلاً عن منحه اياهم امتيازات تجارية خاصة بتجارهم [٢] .

أما السلطان جقمق فقد اتبع سياسة اسلافه بما يخص العلاقات التجارية مع الدول الأوربية وأولى خطواته استئناف تلك العلاقات التجارية التي اثمرت عن تعهد السلطان للتجار البنادقة بإعطائهم حرية التجارة وعدم إجبارهم على فرض سعر البضائع والسلع [٣] ،

---

[١] جوزيف نسيم يوسف ، علاقات مصر بالممالك التجارية الإيطالية في ضوء وثائق صبح الاعشى (د/ م – الاسكندرية : ١٩٧١م) ، ص ١٠٥ –١٠٧ .

[٢] دراج ، المماليك والفرنج ، ص ٣١ .

[٣] السخاوي ، التبر المسبوك ، ص ٧١–٧٢ ؛ اليوزبكي ، تأريخ تجارة ، ص ٤٥ .

واستمراراً لسياسة العلاقات التجارية شهد عهد السلطان قايتباي في سنة (٩٠١هـ/١٤٩٥م) اتفاقاً مع التجار الفلورنسيون ، إلا انه في عهد السلطان قانصوة الغوري سنة (٩١٠هـ/١٥٠١م) حصل الفلورنسيين على امتيازات اوسع من ذي قبل منها السماح لهم بان يقيم القنصل الفلورنسي في مدينة الاسكندرية من اجل تسهيل عملية دخول تجارهم إلى موانئ الدولة الجركسية وخاصة الاسكندرية ودمياط ورشيد ، وبعد ثلاث سنوات تم تجديد الاتفاقية وأضيف اليها نصٌ آخر يفيد بحرية التجارة للتجار الفلورنسيين داخل الدولة الجركسية [١] .

وعلى ما يبدو ان السياسة التي اعتمدها سلاطين الدولة الجركسية بخصوص الاتفاقيات التجارية والامتيازات للتجار الأوربيين كانت تختلف من سلطان لاخر بحسب ما تقتضيه الظروف السياسية ، وكما أوضحنا آنفاً بان الحروب مع الصليبيين في جزيرة قبرص ورودس في عهد السلطان برسباي أثرت على الناحية التجارية ، إلا انه في عهد السلطان الغوري الذي يعد آخر سلاطين [٢] الدولة الجركسية ، أصبحت لدى التجار الأوربيين امتيازات تجارية واسعة وطويلة الأمد ، وذلك لدعم اقتصاد الدولة الجركسية .

ولاستكمال عوامل ازدهار التجارة الجركسية اتبعت الدولة الجركسية السياسة الودية مع الدولة التي كانت تشكل خطراً على تجارتها الخارجية ، ومن أبرزها الدولة العثمانية بزعامة السلطان سليم الأول الذي أرسل وفداً إلى السلطان الغوري ، للمباحثات في العلاقات السياسية بين البلدين [٣] عندئذ تم التوصل إلى إعلان مبدأ التعاون المشترك لحماية المراكب التجارية والسماح بحرية التبادل التجاري بين البلدين [٤] .

لقد تبين من خلال البحث في العلاقات والمعاهدات التجارية ان الدولة الجركسية تمتلك قوة سياسية وعسكرية استطاعت من خلالها ان تفرض سيطرتها على المنطقة بشكل عام ، فضلاً عن ذلك كانت الدول الأوربية قد اتخذت التجارة كمورد رئيس لنقل السلع الشرقية التي

---

[١] فهمي ، طرق التجارة ، ص ٤٣٩ .

[٢] لم يكن السلطان الغوري هو آخر سلاطين الجراكسة بل كان السلطان الجركسي طومان باي ، وانما المقصود هنا كانت آخر العلاقات السياسية والاقتصادية كانت في عهد الغوري .

[٣] للمزيد من التفاصيل عن العلاقة العثمانية المملوكية ينظر : الزهيري ، العثمانيون في السياسة ، ص ٢٥ وما بعدها .

[٤] اليوزبكي ، تأريخ تجارة ، ص ٥٨-٥٩ ؛ الزهيري ، العثمانيون في السياسة ، ص٣٠ .

كانت بحاجة اليها وخاصة التوابل والبخور ، ومن طرف آخر فان الدولة العثمانية كانت تشكل خطراً من ناحية الشرق للدولة الجركسية ، إلا أنها في الوقت ذاتــه كانــت تــدرك القــدرة العسكرية التي تمتلكها البحرية الجركسية ، وان لها ثقلاً سياسياً في المنطقة لذلك فان الدولــة العثمانية اتبعت سياسة المهادنة مع الجراكسة .

د ــ حماية الطرق التجارية

لم يكد يخلو أي طريق بحري في العصور الوسطى الإسلامية من خطر القراصــنة ، الذين وجدوا من اعمال القرصنة خير وسيلة لسلب ونهب المراكب التجارية [١] وممّا هو مبين من سير الأحداث مدى الثقل السياسي للدولة الجركسية في المنطقة ، وكذلك القــوة والقــدرة العسكرية التي تمتلكها هذا ما اوقع على عاتق السلاطين الجراكسة مسؤولية حمايــة الطــرق التجارية لضمان وصول التجار الأوربيين إلى الموانئ المصرية [٢] ، لذلك فقد اعطوا اهميــة خاصة لحماية الطرق لكي يتوفر الأمان لسالكيها ، وللمراكب الحاملة للبضائع القادمــة مــن المحيط الهندي والبحر الأحمر [٣] ومن الأولويات التي قامت بهــا الدولــة الجركــسية هــي تحصينات الموانئ ، ففي عهد السلطان قايتباي الذي أبدى اهتماماً خاصاً بذلك ، فقد اصــدر أمراً إلى الأمير يشبك بن مهدي الدوادار الكبير ببناء بــرج أو قلعــة فــي اطــراف مدينــة الاسكندرية من اجل التمكن من مراقبة القراصنة ومنعهم من محاولة قيامهم بالاعتــداء علــى المراكب التجارية المتجهة إلى الموانئ المصرية [٤] ، لتحقيق هدف الامن والحماية والمحافظة على أهم مصدر اقتصادي للدولة الجركسية .

---

[١] المشهداني ، العلاقات المصرية ، ص ٤٢ .

[٢] عاشور ، حضارة ونظم أوربا في العصور الوسطى (دار النهضة العربية للطباعة والنــشر – بيــروت : ١٩٧٦) ، ص ٩١ .

[٣] زكي النقاش ، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحــروب الــصليبية (دار الكتاب اللبناني – بيروت : ١٩٥٧م) ، ص ٩٨ .

[٤] الحجي ، علاقات بين سلطنة ، ص ٣٥٨ .

هـ ــ طرق التجارة بين الشرق والغرب

إن للطرق التجارية أهمية في ازدهار تجارة مصر الخارجية في عهد المماليك الجراكسة التي تعددت بين الشرق والغرب [١] فمنها البري ومنها البحري [٢] ، فبعد ان فقد الاوربيون حرية الاتصال التجاري المباشر باقليم وسط آسيا ، وخاصة بعد انهيار القوى الصليبية في شرق البحر المتوسط في سنة (٦٩١هـ/١٢٩١م) حاولوا دعم الطريق البري من أوربا إلى بلاد فارس والهند مروراً بالدولة البيزنطية ، مبتعدين عن المرور بالاراضي المصرية ، ولكن ذلك الطريق سرعان ما اصبح غير ملائم بسبب التغيرات السياسية التي احدثها دخول المغول في بغداد وبسط نفوذهم إلى بلاد فارس ، وهنا برزت أهمية الموانئ المصرية لتبدأ مرحلة جديدة من تأريخ العلاقات التجارية الدولية [٣] ، وبذلك أصبحت القوافل التجارية تفضل الطريق البحري إلى شرق البحر المتوسط ، إلا في حالات معينة منها حين تعرضها لهجوم من قبل القراصنة ، عندئذٍ يلجأ التجار إلى الطريق البري السالف الذكر انطلاقاً من ساحل دلماشيا حتى القسطنطينية ومنها إلى اسيا الصغرى ، وما لبث ان فقد التجار الطريق التجاري بعد سقوط مدينة القسطنطينية ، وتوسع العثمانيون في شرق أوربا ووسطها حتى إيطاليا ، هذا ما حدا بالتجار إلى اتخاذ الطريق البحري القديم الذي ينتهي عند موانئ مصر وبلاد الشام حيث تتجمع السلع الهندية والصينية [٤] .

إلا ان سيطرة الدولة العثمانية على الطرق التي كان يسلكها تجار الغرب في تجارتهم مع الشرق ، لم يدع أمام التجار غير اربعة طرق رئيسة لتجارتهم برياً وبحرياً اقدمها طريق الصين ــ الهند والخليج العربي [٥] والثاني [٦] يبدأ من الشرق وصولا إلى البحر الأحمر ، الأخر يبدأ من وسط آسيا عبر الهند إلى بخارى ويتفرع إلى فرعين هما بحر قزوين وبلاد

---

[١] عاشور ، بحوث ودراسات ، ص ١٣٣ .

[٢] ضومط ، الدولة المملوكية ، ص ١٨٢ ؛ فهمي ، طرق التجارة ، ص ١٢٤ .

[٣] المشهداني ، العلاقات المصرية ، ص ٤١ .

[٤] فهمي ، طرق التجارة ، ص ١١٧ ؛ فاروق عمر ، تأريخ الخليج العربي في العصور الإسلامية الوسطى (الدار العربية – بغداد : ١٩٨٦م) ، ص ٢٢٤ .

[٥] عن هذا الطريق . ينظر : الشكل رقم (٥) .

[٦] عن هذا الطريق . ينظر : الشكل رقم (٦) .

البلغار والبحر الأسود ، أمّا الطريق الأخير [1] فهو طريق بحري يبدأ من الصين وصولاً إلى هرمز والخليج العربي انتهاءاً بميناء جدة على البحر الأحمر [2] ، وهذا ما خدم الدولة الجركسية من ناحية ازدهار تجارتها بصورة غير مباشرة [3] .

أمّا الأمر الآخر الذي ساعد أيضاً على ازدهار التجارة الجركسية فهو اضمحلال الطريق التجاري البري بين الصين من جهة ، وآسيا الصغرى وموانئ البحر الأسود من جهة أخرى ، فضلاً عن ذلك بروز ظاهره القرصنة من قبل سكان جزر البحرين ، ممّا جعل السفن تتجه إلى ميناء عدن [4] ، وكذلك فقد اتخذت المراكب طريقاً آخرَ عبر البحر الأحمر لبعده عن ميادين الحرب بين العثمانيين والأوربيين والتركمان ، وعلى هذا اصبح الطريق أكثر امناً لمرور المراكب التجارية منه ، ممّا انعكس ذلك ايجاباً على التجارة الجركسية بتوافد اعداد كبيرة من المراكب التجارية إلى الموانئ المصرية وهي محملة بالبضائع ، وبذلك اصبحت الدولة الجركسية الوسيط في عملية التبادل التجاري بين الشرق والغرب [5] .

و ــ المراكز التجارية (الموانئ)

تعد الموانئ رئة الحياة بالنسبة لاية دولة ، لذلك فهي تشكل عصب الاتصال بين البلدان ، وبها يدلّ عن مدى النشاط التجاري ، ويمكن عدها أحد أضلاع مربع النشاط التجاري [6] ، ومن تلك الأهمية أدّت المراكز التجارية دوراً حيوياً في عملية التبادل التجاري

---

(1) عن الطريق الاخير . ينظر : الشكل رقم (٧) .

(2) وبناءاً على ذلك يمكن حصر الطرق الاربعة بطريقين الأول : من البحر المتوسط ويشمل قبرص ورودس وكريت والبندقية ، والثاني من البحر المتوسط قبرص ورودس وبيزا وفلورنسا ومرسيليا وبرشلونة . ينظر : ضومط ، الدولة المملوكية ، ص ١٨٣ ؛ الخفاف ، جغرافية العالم ، ص ٢٠ .

(3) ضومط ، الدولة المملوكية ، ص ١٨٣ ؛ فهمي ، طرق التجارة ، ص ١٥٤ .

(4) عاشور ، بحوث ودراسات ، ص ١٣٤-١٣٥ .

(5) ابن شاهين ، زبدة كشف ، ص ٤١ ؛ عاشور ، بحوث ودراسات ، ص ١٣٤-١٣٥ .

(6) يرتكز النشاط التجاري على اربعة محاور هي :

أ. وسيلة النقل ومدى ملاءمتها .

ب. الموانئ ومدى صلاحيتها لحركة الملاحة .

العالمي في عصر المماليك الجراكسة ، ومن أبرز تلك المراكز ميناء دمياط والاسكندرية الواقعين على البحر المتوسط وميناء عيذاب ورشيد اللذين يقعان على البحر الأحمر ، وبحكم ذلك الموقع الجغرافي للموانئ أصبحت مصر حلقة وصل بين تجارة الشرق والغرب [1] وتأتي أهميتها لكونها مكاناً لتجمع السلع الهندية والصينية ومنها تنقل إلى أوربا [2] ، لذا كان من البديهي ان تظهر اثار الازدهار التجاري في الكثير من أسواق مصر وبلاد الشام ، بحكم وجود المراكز التجارية وما فيها من كثرة للبضائع التي كانت تنقل من تلك المراكز التجارية [3] ، وعلى الرغم من ان الملاحة كانت تتم في فترات معينة حسب دورة الرياح الموسمية ، خاصة بين أقصى موانئ المحيط في الشرق وأقصاها في الغرب وفي الساحل الغربي [4] ، إلا ان حركة التجارة بين تلك الموانئ مستمرة طول العام [5] ، فقد شهد عهد السلطان قايتباي اهتماماً خاصاً بالموانئ التجارية لكونه المشرف المباشر عليها ، مما أدى إلى الاقبال الكبير من قبل الأوربيين إلى تلك الموانئ ، ويعلق المقدسي على ذلك قائلاً

ج. السلع ومدى قابليتها للتداول .

د. اسلوب التعامل مع التجار . ينظر : عثمان ، تجارة المحيط ، ص ١٦٣ .

[1] ج. ج. شيشولم ، الجغرافية التجارية ، ترجمة : قلم الترجمة العلمية (مطبعة المعارف – مصر : ١٩١٢م) ، ١ / ٩٤-٩٥ ؛ عاشور ، مصر والشام ، ص ٢٦٨ ؛ اليوزبكي ، تأريخ تجارة ، ص ٢٤ .

[2] تدمري ، تأريخ طرابلس ، ٢ / ١٤٦ ؛ عمر ، تأريخ المشرق ، ص ٢٤ .

[3] محمود ، العلاقات الاقتصادية ، ص ١٣٤ .

[4] لقد أدت الرياح الموسمية دوراً هاماً في الازدهار التجاري ، فالرياح الموسمية الجنوبية الغربية تساعد في الوصول إلى الهند والصين ، والرياح الموسمية الشمالية الشرقية تساعد في الوصول إلى ساحل الجزيرة العربية والساحل الأفريقي ، وبذلك اطلق العرب على الرياح التي تهب من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي شتاءً اسم (الصبا) والتي تهب من الجنوب الغربي إلى الشمال الغربي صيفاً بـ (الدبور) ويجمع ذلك بيتان من الشعر وفي مطلعيهما :

مهب الصَّبا من طلع الشمس مائل ... إلى الجدي والشمال حتى مغيبها

وبين سهيل والمغيب تحققت ... دبورا ومطلعها إليه جنوبها

ينظر : عثمان ، تجارة المحيط ، ص ٨ ، ٨٧ .

[5] عثمان ، تجارة المحيط ، ص ١٦٤ .

: ((**وهـو بلد التجـارات يرتفع منه اديم جيد صـور على الماء ثخين لين ... هـذا مـن مصر**))[1] ، وبهذا يمكننا القول ان الحركة التجارية بتلك الموانئ كانت مزدهرة، فعند نشاط العملية التجارية بمصر تزدهر موانئ الساحلين العربي والافريقي، ولذلك اصـبحت مراكـز استقطاب للتجارة في المحيط الهندي إلى أوربا عبر البحر الأحمر[2] .

ثانياً : العلاقات المصرية ــ الإيطالية (٧٨٨-٩٢٢هـ/١٣٨٦-١٥١٦م)

لقد ارتبطت دولة المماليك الجراكسة مع الدول الأوربية عامة ، والممالك الإيطاليـة خاصة بعلاقات سياسية وتجارية وفقاً لمجريات الأحداث التي شـهدتها المنطقـة ، فالتجـارة الخارجية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالحالة السياسية ، فعند استقرار الوضـع السـياسي تـزداد العمليات التجارية ، وهذا ما انعكس ايجابياً على اقتصاد الدولة الجركسية من حيـث قيامهـا بفرض الضرائب على البضائع الداخلة إلى موانئها .

وقبل ان نبحث في حركة التبادل التجاري بين المماليك الجراكسة والممالك الإيطالية ، لابد لنا من التعرف على الوضع السياسي لكلا البلدين ، فالحالة السياسية للدولـة الجركـسية على العموم كانت مستقرة على الرغم من وجود اضطرابات واعتداءات خارجيـة ، إلا أنهـا استطاعت ان تحسم الموقف لمصلحتها بفضل قوتها العسكرية التي مكنتها من بسط سيطرتها على الطرق التجارية الواقعة على البحر المتوسط والبحر الأحمر[3] ، أما ما يخص الممالـك الإيطالية فان الوضع السياسي لها كان متوتراً نوعاً ما بسبب وجود صراعات بـين البنادقـة والجنويين حول سيطرة كل منهما على الحركة التجارية ، وهذا ما كان له دور واضـح فـي تأخر عملية التبادل التجاري لها مع الدولة الجركسية ، علماً ان الممالك الإيطالية دخلت إلـى الشرق منذ بداية الحروب الصليبية بصفة الممول لها بالمواد الغذائية والأسلحة ، وبهذا انطلقوا

---

(1) احسن التقاسيم ، ٢٠٣/١ .

(2) لقد كان في المحيط الهندي دائرتان تجاريتان : احداهما تنحصر بين الهند والصين وجزر جنـوب شـرق آسيا، والاخرى بين شبه الجزيرة العربية والساحل الأفريقي ، وبذلك آسهمت الموانئ الهندية في الحركـة التجارية العالمية في العصور الوسطى مساهمة فعالة . ينظر : عثمان ، تجارة المحيط ،ص ١٨٤-١٨٥ .

(3) الخربوطلي ، الاسلام في حوض ، ص ١٣١ ؛ كاهن ، الشرق والغرب ، ص ١٦٩ .

من مبدأ التوسع التجاري في الشرق [1] ، ونتيجة لذلك فقد حصلوا على امتيازات اقتصادية خاصة [2] ، منها حق الاقامة وقيامهم بدور الوسيط بنقل البضائع بين الشرق والغرب [3] ، عندئذٍ أدركت الممالك الإيطالية ان سيطرة الصليبيين على بلاد الشام سيمكنها من اختراق الحصار الذي فرضه المسلمون على تجارة الشرق [4] ،بسبب سيطرتهم على حوض البحر المتوسط [5] ، وبهذا أصبحت بلاد الشام المكان الرئيس لتجارتهم [6] .

ومن الملاحظ ان العلاقات الاقتصادية بالمدن الإيطالية المتمثلة بجنوة والبندقية وفلورنسا اتسمت بطابع خاص ، وهذا يعود إلى موقعها الجغرافي الذي اكسبها أهمية تجارية من حيث نقل البضائع التجارية من الشرق إلى الغرب ، فضلاً عن استمرار حركة العملية التجارية وعدم توقفها ، وبهذا أصبحت مصر قاعدة رئيسة للتجار الأوربيين [7] ، ولكونها

---

(1) عفاف سيد صبرة ، العلاقات بين الشرق والغرب ــ علاقة البندقية بمصر والشام في الفترة من (١١٠٠-١٤٠٠م) (دار النهضة العربية للطبع والتوزيع والنشر - القاهرة : ١٩٨٣م) ، ص ١٩ ؛ النقاش ، العلاقات الاجتماعية ، ص ١٨٥-١٨٦ ؛ يوسف ، علاقات مصر ، ص ٧٣ ، ٩٣ ؛ عاشور ، أوربا في العصور الوسطى (دار وهدان للطباعة - مصر : ١٩٧٨م) ، ٢ / ٤٤٢ ؛

P. M. Holt , Political and Social Change in Modren Egypt (Great Britain – London : ١٩٦٨), p. ٢١١ ; E. B. " Venice " , Vol. ٢٣, p. ٦٦.

(2) *Stevenson , the Crusaders , p. ٥.*

(3) النقاش ، العلاقات الاجتماعية ، ص ١٨٥-١٨٦ ؛ يوسف ، علاقات مصر ، ص ٧٣ .

(4) لقد تمكن العرب المسلمون من السيطرة على حوض البحر المتوسط من القرن الأول الهجري / السابع الميلادي ، وهذا ما أدى إلى قلة النشاط التجاري فيه ، إلا انه كان هنالك بعض المنافذ التجارية وهي القسطنطينية الأمر الذي ساعد على استمرار التجارة . للمزيد ينظر : عاشور ، أوربا في العصور ، ٢ / ٣٠٤ ؛ حضارة ونظم ، ص ٤٣٧ .

(5) عاشور ، أوربا في العصور ، ٢ / ٤٤٢ ؛ الحركة الصليبية ، ١ / ٢٧-٤٣ .

(6) محمد رفعت واخرون ، معالم تأريخ العصور الوسطى (مطبعة مصر ــ مصر : ١٩٢٦م) ، ص ١٥٨ ، ٢٥٦-٢٥٧ ؛ عاشور ، أوربا في العصور الوسطى (مكتبة الانجلو المصرية - مصر : ١٩٧٢م) ، ١ / ٤٦٣ ؛ الحركة الصليبية ، ٢ / ١١٩٩-١٢٠٠ .

(7) يوسف ، علاقات مصر ، ص ٦٣ ، ٩٣ ؛ عاشور ، بعض اضواء على العلاقات بين جنوة وتونس (مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة : ١٩٦٩م) ، مج٢٦ / ج١ / ٣٥-٣٦ .

واقعة على البحر المتوسط فقد أصبحت مركزَ تسوقٍ عالمي [١] ، الأمر الذي شجع الممالك الإيطالية على التنافس فيما بينها ، فادى ذلك إلى وقوع الكثير من المنازعات والحروب البحرية العديدة من اجل السيطرة على الأسواق التجارية ، وبسبب تلك المنازعات أصبحت منطقة الشرق الإسلامي ، ولاسيما مصر وبلاد الشام ذات أهمية تجارية [٢] .

ومن الجدير بالذكر ان العلاقات التجارية للممالك الإيطالية مع الدولة الجركسية قد بدأت منذ قيامها ، إلا انها كانت محدودة بسبب الظروف السياسية للجراكسة ، وبالمقابل كانت للتحذيرات البابوية في منع المدن الإيطالية من التعامل التجاري مع الدولة الجركسية ، وعلى الرغم من ذلك فقد استمر التعامل التجاري فيما بينهما حتى النصف الثاني من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي [٣] . ان هذا لا يعني انفراد الممالك الإيطالية بالنشاط التجاري ، بل أسهمت مدن أوربية أخرى أقل نشاطاً وعلاقةً مع دولة المماليك الجراكسة [٤] .

أ ــ العلاقات المصرية ــ البندقية [٥] (٧٨٨-٩٢٢هـ/١٣٨٦-١٥١٦م)

---

[١] احمد عطية الله ، القاموس الإسلامي (دار النهضة العربية – القاهرة : ١٩٦٨م) ، ص ١٦٨ ؛ عاشور ، حضارة ونظم ، ص ٢٤٠ ؛ يوسف ، علاقات مصر ، ص ٩٣ .

[٢] محمود ، العلاقات الاقتصادية ، ص ١٣٥ ؛ عاشور ، أوربا في العصور ، ٢ / ٣٠٤ ؛ صبرة ، العلاقات بين الشرق ، ص ١٩ ؛ يوسف ، علاقات مصر ، ص ٤٢ ؛ ميشيل بالار ، الجمهوريات البحرية الإيطالية والتجارة في الشام وفلسطين من القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر (بحث منشور في كتاب الصراع الإسلامي – الافرنجي على فلسطين في القرون الوسطى) ، تحرير : هادية دجاني شكيل (مؤسسة الدراسات الفلسطينية – بيروت : ١٩٩٤م) ، ص ٢٠٧ .

[٣] العريني ، الحضارة والنظم ، ١ / ١٣١ -١٣٣ ؛ يوسف ، علاقات مصر ، ص ١١٤ .

[٤] عاشور ، أوربا العصور ، ١ / ٤٦٣ .

[٥] ان العلاقات التجارية بين مصر والبنادقة تعود إلى ما قبل القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي . ينظر : صابر محمود دياب ، دراسات في العلاقات بين المدن الإيطالية والدولة الإسلامية (بين القرنين العاشر والثامن عشر الميلاديين) مجلة جامعة القاهرة بالخرطوم (دار الاتحاد العربي للطباعة – الخرطوم : ١٩٧٣م) ، ع ٤ ، ص ١١-١٢ .

تُعد مدينة البندقية من أكثر المدن الإيطالية اتصالاً وعلاقة بالشرق الإسلامي ، وذلك لموقعها الجغرافي المهم الذي أعطاها أهمية بحرية وتجارية ، لوقوعها على رأس بحر الادرياتيك الذي يُعَد أعظم بحر للتجارة في العصر الوسيط ، وبذلك تتوسط بين الشرق والغرب ، فضلاً عن كونها من أهم موانئ البحر المتوسط ، فهي تكاد ان تكون قلب أوربا ، مما منحها عدة ميزات منها رسو السفن لكثير من التجار الوافدين إلى الموانئ المصرية كالاسكندرية ودمياط وغيرها من موانئ شرق البحر المتوسط فيها [1] ، وهذا ما أدى إلى اهتمامها بالتجارة بعد استقلالها كمملكة ، وبذلك أصبحت أكبر قوة بحرية في العقد الاخير من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي [2] .

تمثلت العلاقات المصرية ــ البندقية بطابع تجاري بحت ، وبقيت على هذا المنوال من الاستمرار بالتطور إلى ان أصبحت الموانئ المصرية ، ولاسيما الاسكندرية منها مرسى دائم لسفن البنادقة [3] ، وبهذا أدركت البحرية البندقية مدى أهمية التجارة مع الدولة الجركسية ، فعملت جاهدةً على عقد علاقات تجارية مع سلطنة الجراكسة في مصر [4] ، وكان هذا تحديداً في سنة (٧٨٨هـ/١٣٨٦م) ويعود تأريخ بدء العلاقات الجركسية البندقية إلى المتغيرات السياسية في الشرق الإسلامي ، كالغزو التيموري [5] على بلاد ما وراء النهر وخرسان

---

[1] يوسف ، علاقات مصر ، ص ٦٤ / ٧٩ ؛ دياب ، دراسات في العلاقات ، ص ١١-١٢ .

[2] ول واير ديورانت ، قصة الحضارة ، ترجمة : محمد بدران (دار الجيل- بيروت : ١٩٨٨م) ، ١٩ / ٢١٢ .

[3] بالار ، الجمهوريات البحرية ، ص ٢٠٧ ؛ يوسف ، علاقات مصر ، ص ٦٤ ، ٧٩-٨٠ ؛ *George E. Kirk , Ashort history of the Midde East (Methuen Coltd - London : ١٩٦٤) , p. ٦٤ .*

[4] محمد أنيس ، الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤ -١٩١٤م) (مطبعة تكنوبرنت - القاهرة : ١٩٨٥م) ، ص ٤١ .

[5] لقد كانت العلاقات الجركسية التيمورية عدائية بسبب التوسع التيموري على حساب الدولة الجركسية ، إذ سيطروا على حلب سنة (٨٠٣هـ/١٤٠٠م) ودمشق ، فادى ذلك إلى هروب قنصل البندقية ، ويدعى بولو زينو . للمزيد ينظر : صبرة ، العلاقات بين الشرق ، ص ١١٦-١١٧ .

وطبرستان وتبريز في السنة التي تم ذكرها [١] ، ولذلك لم يتمكن تجار البنادقة السير بتجارتهم نحو منطقة البحر الاسود ، فوجدوا ان الطريق الاسلم والاصوب هو التوجه نحو طريق البحر الأحمر ، الذي يعد اكثر الطرق أمناً حفاظاً على تجارتهم ، فضلاً عن وجود الموانئ المهمة كالاسكندرية ودمياط اللذين يعدان المركز الرئيس للتجارة الجركسية [٢] .

بعد الأحداث التي طرأت على المنطقة والتي أثرت سلباً على التجارة الأمر الذي حفز التجار الأوربيين عامة والبنادقة خاصةً على البحث عن طريق اكثر امناً ، وهذا ما انعكس ايجابياً في مصلحة الدولة الجركسية لتوجه التجار إلى موانئها ، وهذ ما حصل حينما كتب التجار البنادقة إلى السلطان الجركسي طلباً ينص على منحهم امتيازات تجارية تضمن لهم المتاجرة في بلاده ، فأجابهم السلطان بالقَبول وعقد معاهدة معهم إزاء ذلك [٣] ، وتنفيذاً لتلك المعاهدة باشر تجار البنادقة بنقل بضائع الشرق واهمها البهار والتوابل وجلب ما تحتاجه الدولة الجركسية من أخشاب ورقيق [٤] .

وعلى ما يبدو ان الدولة الجركسية ارادت من وراء تلك المعاهدة ان تبني قوتها العسكرية ، وهذا ما اتضح من خلال عملية التبادل التجاري بين الجانبين ، وعلى الرغم من العلاقات التجارية الودية بين الجراكسة والبنادقة منذ البداية ، إلا انها ما لبثت ان خيَّمَ عليها الفتور ، ففي عهد السلطان الناصر فرج سنة (٨٠٦هـ/١٤٠٣م) فقد قدم اندريه جستنيان ***Andra Justinian*** قنصل البنادقة بشكوى للسلطان الجركسي يوضح فيها مدى المعاملة السيئة التي يقوم بها عمال الموانئ ضد تجار دولته ، على الرغم من أنهم كانوا يقدمون دعماً للتجارة الجركسية من خلال استمرارهم في العملية التجارية بنقل البضائع من الشرق إلى الغرب ، وهذا ما انعكس إيجاباً على الدولة الجركسية من خلال فرض الضرائب على البضائع التي تدخل موانئهم ، وأوضح له كذلك بأنه سيتم ابلاغ التجار البنادقة بالرحيل وعدم

---

[١] آبن عرب شاه ، عجائب المقدور ، ص ٨٤ ؛ عاشور ، العصر المملوكي ، ص ١٥٨ ؛ عبد السيد ، قيام دولة ، ص ١٢٦ .

[٢] آبن يحيى ، تأريخ بيروت ، ص ٧٩ ؛ صبرة ، العلاقات بين الشرق ، ص ١١٦ .

[٣] *Ashort Studies , p.* ٣٢٥

[٤] سالم ، تأريخ الاسكندرية ، ص ١٦٤ .

المتاجرة في بلادهم إذ لم تتبدل معاملتهم بشكل احسن ، وتعطى لهم مكانة مرموقة تليق بهم ، إلا ان السلطان لم يكترث للامر سواء برحيل تجارهم أم بعودتهم [1] .

والجدير بالذكر ان عدم اكتراث السلطان الجركسي لقرار القنصل البندقي ، قد يعود ذلك لأمور منها أولاً : تواجد تجار من دول أوربية أخرى يمكن التعامل معهم في عملية الحركة التجارية بدلاً من تجار البنادقة ، ثانياً : انشغال الدولة الجركسية بما هو أهم من التجارة وهو الخطر التيموري ، الذي هدد المنطقة وحاز على اهتمام السلطان الجركسي .

إلا ان توتر وتوقف العملية التجارية بين البلدين لم يكن مجدياً لكليهما ، وبما ان الدولة الجركسية كانت معتمدة على التجارة التي تعد المورد الرئيس للدولة ، وبها تثبيت مكانتها السياسية وتبني قوتها العسكرية ، فليس من مصلحتها ان توقف العمليات التجارية مع البنادقة ، وكذا الأمر مع البنادقة فهم أيضاً اعتمدوا على العملية التجارية لما تحققه لهم من مورد مالي هائل ، فانعكس ذلك الفتور السياسي سلباً عليهما ، إلا ان الصلح الذي قام به التاجر الكريتي بيلوتي ***Piloti*** في سنة (٨١١-هـ/١٤٠٨م) خفف من وطأة توتر العلاقات بينهما ، وبنود الصلح نصت على شروط فرضتها الدولة الجركسية ومن أهمها ، اخذ الضمانات الكافية لحماية تجار دولته من قبلهم [2] ، وبهذا فقد اعتمد حل المشاكل السياسية بين الجراكسة والبنادقة على تبادل المكاتبات عن طريق الرسل والسفراء [3] .

وعلى ما يبدو ان السلطان الجركسي حاول من خلال الصلح ان يضمن حقوق تجار دولته ، فضلاً عن ضمان حماية الطرق البحرية التجارية من قبل البنادقة . ومما ساعد أيضاً على توثيق العلاقات التجارية خاصةً بعد اضمحلال الفكرة الصليبية في السيطرة والاستيلاء على الشرق ، وكان هذا في اواخر القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، مما أدى إلى توجه العالم الأوربي عامةً والبندقي خاصة إلى العمل بالتجارة ، وهذا ما انعكس ايجابياً على الدولة الجركسية ، ففي سنة (٨١٤هـ/١٤١٢م) وصل إلى السلطان الناصر فرج كتاب من دوق البندقية ميخائيل مع مبعوثه نيقولا البندقي ، والذي يتضمن ((**...وان المحبة والمودة**

---

[1] صبرة ، العلاقات بين الشرق ، ص ١١٧ .

[2] عبد السيد ، قيام دولة ، ص ١٤٩ ؛ صبرة ، العلاقات بين الشرق ، ص ١١٨ ، ٢٠٧ .

[3] يوسف ، علاقات مصر ، ص ٧٧ .

لم تزل بين والدك المرحوم وبين والدي إلى آخر وقت ، ونحن بحمد الله قد تزايدت محبتنا على ذلك وتكاثرت ، وتتوكد أيضاً المحبة بيننا وبين سلطنتك المعظمة إلى الابد ، فان ذلك واجب ، وتتردد رسلكم بكتبكم الينا وكذلك رسلنا بكتبنا إلى ملككم ...)) [1] .

لقد تبين من خلال هذا النص ان العلاقات الجركسية البندقية ، بدأت منذ قيام الدولة الجركسية ، إلا انها كانت محدودة بسبب الاوضاع السياسية لكليهما ، لذلك اكتفت بتبادل الرسائل وعقد المعاهدات التجارية تمهيداً للعمل التجاري بعد استقرار الوضع ، إلا اننا لا نلمس من سير الأحداث تطوراً قد طرأ على العلاقات منذ عهد السلطان برقوق مؤسس الدولة الجركسية ، ووصولاً إلى عهد آبنه الناصر فرج ، فقد أرسل دوق البندقية رسالة اخرى في السنة ذاتها لتوثيق العلاقة ، مخاطباً السلطان الجركسي ((**السلطان المعظم يقبل الارض بين يدية نقولا دوج البنادقة ، ويسأل الله ان يزيد عظمته ...وقد رغب التجار بالتردد إلى مملكته الشريفة بواسطة ذلك ، ولاجل الصلح المتصل الان بيننا والمحبة))** [2] .

يمكننا ان نستشف من تلك الرسالة رغبة البنادقة بتوطيد العلاقة مع الجراكسة لعلمهم بالمكانة السياسية للجراكسة المميزة بالمنطقة وكذلك معرفتهم بأهمية القوة العسكرية للدولة الجركسية [3] .

وعلى الرغم من توطيد العلاقات بينهما إلا انها اخذت بالفتور نوعاً ما وبالذات في عهد السلطان برسباي ، لأنه اتبع سياسة الاحتكار لبعض المواد التجارية المهمة التي تعد مواد اساسية للدولة الأوربية كالتوابل والبخور ، فقد منع استيرادها من الهند ، باصدار مرسوم في سنة (٨٣٢هـ/١٤٢٨م) يتضمن احتكار تجارة التوابل ، الأمر الذي أدى إلى ارتفاع أثمانها واستمرار ذلك القرار سارياً إلى سنة (٨٣٤هـ/١٤٣١م) ، فضلاً عن ذلك فقد أمر بعدم التعامل بالعملة الأوربية ، وذلك ما أدى بدوره إلى اصابة تجارة البنادقة باضرار مادية ، ولهذا عمد البنادقة إلى عقد معاهدة تجارية مع الجراكسة حفاظاً على مصالحهم التجارية [4] .

---

[1] القلقشندي ، صبح الاعشى ، ٨ / ١٢٥ .

[2] القلقشندي ، صبح الاعشى ، ٨ / ٢٧ .

[3] عنان ، مصر الإسلامية ، ص ١٦٦ .

[4] نهايم ، مادة (برسباي) ، ٧ / ٥٣ ؛ دراج ، المماليك والفرنج ، ص ٣٥-٣٦ .

وعلى ما يبدو ان تلك السياسة الاحتكارية كان لها أبعاد سياسية واقتصادية ، فالبعد السياسي تمثل في ان سبب اتخاذ الجراكسة سياسة الاحتكار ، وذلك للضغط على الدول الأوربية عامة والبندقية خاصة باحتكارها لتلك المواد التجارية الاساسية ، أمّا البعد الاقتصادي فتمثل بارتفاع ثمن تلك المواد التي كان لها مردودٌ ايجابي للدولة الجركسية .

إلا اننا نلحظ من سير الأحداث بان العلاقات التجارية الجركسية البندقية بقيت محافظة على استمرارها في عهد السلطان اينال ويرجع ذلك إلى توتر العلاقة بين الدولة العثمانية والبنادقة ، لذلك حاول البنادقة ان يثبتوا مركزهم التجاري في الدولة الجركسية تعويضاً عمّا فقدوه في أسواق القسطنطينية [1] .

هكذا بقيت العلاقات التجارية بين الجراكسة والبنادقة متفاوته بين المراسلات ، ومنح الامتيازات وعقد المعاهدات ، وهذا يعود كما ذكرنا إلى حالة الوضع السياسي للدولة الجركسية وسياسة سلاطينهم تجاه البنادقة ، وبالمقابل حرص البنادقة على استمرار علاقتهم بالجراكسة ففي سنة (٨٦٥هـ/١٤٦٠م) عقد دوق البندقية باسكال ماليير معاهدة تجارية بوساطة مبعوث دولته مافي ميكالي ، ولم تُشِر المصادر عن تفاصيل تلك الاتفاقية ومحتواها سوى ما ذكره فهمي موضحاً استقبال السلطان الجركسي اينال للمبعوث البندقي ، فدارت بينهما مباحثات في شأن اعادة الحقوق التي اغتصبت من البنادقة في اعقاب فتح القسطنطينية ، ومنحهم تعويضات مجزية واعفاءات كمركية لبعض السلع ، وعلى الرغم من تلك التسهيلات والامتيازات ، إلا ان المبعوث البندقي لم يحقق ما كان يصبو إليه من تخفيض اسعار السلع المهمة كالتوابل والبهارات فبقيت اسعارهما ثابتة تقدر بـ (١٠٠دوكة) للحمل الواحد [2] . إلا ان تلك المعاهدة بحد ذاتها خدمت كلا البلدين ، فبعد ان تم الاتفاق بعث السلطان اينال هدية إلى الدوق البندقي بيد المبعوث البندقي مافي ميكالي ، وهي عبارة عن مقادير من العنبر والطيب والسكر والصندل ، وبتلك الاتفاقية توثقت العلاقات بين الجانبين [3] ، اما في عهد السلطان قايتباي فقد شهدت الحركة التجارية تطوراً واسعاً وخاصةً عبر ميناء طرابلس الشام ،

[1] فهمي ، طرق التجارة ، ص ٤٤ .
[2] طرق التجارة ، ص ٣٧٣ .
[3] عنان ، مصر الإسلامية ، ص ١٦٦ .

ففي بداية النصف الثاني من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي تحديداً في سنة (٨٧٨هـ/١٤٧٣م) وصلت بضاعة من الاصواف والاقمشة بطريقة غير رسمية ، مما اغضب ذلك أمير بيروت ونائب دمشق ، فأصدر حاكم دمشق أمراً بالقاء القبض على تجار البضاعة ، وفي المقابل سعت البندقية لاطلاق سراحهم ، فامرت مبعوثها دمنيكو تريفنزاني ***Dominico Trivizani*** بالذهاب إلى السلطان قايتباي والتباحث معه في قضية هؤلاء التجار ، وتمخضت تلك المباحثات عن موافقة السلطان في الافراج عنهم ، وكذلك اصدار تعليمات نصت على عدم مضايقة تجار البنادقة وايذائهم والإفراج عمّن سُجِنَ منهم ، وبهذا كثر تردد التجار البنادقة الى مينائي الاسكندرية ودمياط وهم ينعمون برعاية الدولة الجركسية وحمايتها لهم [١] .

واستمرت العلاقات يسودها الهدوء والاستقرار وصولا إلى عهد السلطان الغوري ، التي توثقت علاقاتها التجارية اكثر من ذي قبل لامور خصت كلا الجانبين ، فمن ناحية الجانب الجركسي فقد توثقت علاقتها مع البنادقة تحسباً للخطر البرتغالي الذي كان يهدد المنطقة لهذا كان التعاون المشترك بينهما لصد ذلك الخطر ، أما فيما يخص الجانب البندقي ، فقد حرصت على مصالحها التجارية ، ولهذا قررت إرسال مبعوثها بيوتو سانوتو حاملاً رسالة إلى السلطان الغوري طالباً فيها تخفيض الرسوم الكمركية على بضائع التجار البنادقة [٢] ، وبناءاً على طلب البندقية تم عقد اتفاقية في سنة (٩١٧هـ/١٥١١م) نصّت على ما يأتي :

أ. منح حرية شراء المواد التجارية حسب حاجة البنادقة لها وعدم فرض مواد معينة عليهم واجبارهم على شرائها بالقوة .

ب. على تجار البنادقة تقديم هدية سنوية وتسليمها إلى الحاجب ، وهي عبارة عن كمية من الجوخ

ت. لا تجبر على شراء السلع بالقوة ما عدا ما يخص السلطان والحاجب [٣] .

---

(١) تدمري ، تأريخ طرابلس ، ٢ / ٢٤٤ ؛ فهمي ، طرق التجارة ، ص ٥٧-٥٨ .

(٢) سلهم ، الحركة الصليبية ، ص ٢٢١ .

(٣) تدمري ، تأريخ طرابلس ، ٢ / ٢٤٥ ؛ فهمي ، طرق التجارة ، ص ٤٢٥ .

ومما تجدر الإشارة إليه ان توطيد العلاقات الجركسية البندقية ، كان له مبـرر لكـلا الجانبين ، فمن جانب الدولة الجركسية فقد حرصت على توثيق العلاقات مع البندقية للاستفادة من قوة اسطولها البحري ضد الاعتداءات الخارجية ، المتمثلة بالغزو البرتغالي الذي بدأ يهدد تجارتها الخارجية ومقابل ذلك كان لحرص البنادقة هدفٌ مهمٌ ، وهو التخلص مـن فـرض الضرائب على تجارها من قبل الجراكسة ، وهذا ما يمكنها من الاستمرار والمحافظـة علـى مصالحها التجارية في المنطقة .

ب ــ العلاقات المصرية ــ الجنوية (٧٨٧-٩٠١هـ/ ١٣٨٥-١٤٩٥م)

تعد جنوة من الممالك الإيطالية المهمة ، وانها لا تقل أهمية عن البندقية من حيث القوة البحرية والموقع الجغرافي الذي مكّنها من التحكم بالتجارة بين الشرق والغرب ، ولأهمية ذلك الموقع دخلت في تنافس تجاري مع البنادقة ، الذي انتهى في القرن الثامن الهجري / الرابـع عشر الميلادي ، الذي كانت حصيلته سيطرة البنادقة على تجارة البحر المتوسط [١] .

وعلى الرغم من ذلك فان هناك اسباب دعت الجنويون إلى المتـاجرة مـع الدولـة الجركسية ابرزها سقوط الدولة البيزنطية على ايدي الدولة العثمانية ، مما حفز الجنويين إلى تغيير مسار تجارتهم من البحر الاسود إلى البحر الأحمر ، وهذا ما حدى بالبابويـة إلـى ان تصدر تصريحاً ينص على حرية السماح لتجار الجنويين بالتعامـل التجـاري مـع الدولـة الجركسية تعويضاً لفقدهم مسار حركة تجارتهم السابق ، باستثناء بعض من المواد التجاريـة التي تخص صناعة الالات الحربية [٢] .

وعلى الرغم من تلك الاسباب إلا ان العلاقة التجارية بين الجراكسة والجنويين تأخرت عن الوقت الذي يفترض أن تبدأ فيه مع قيام الدولة الجركسية وذلك لسببين :

__الأول :__ التدخل الفرنسي في الشؤون الداخلية لجنوة .

__الثاني :__ الاعتداءات المستمرة على الموانئ المصرية في عهد السلطان برقـوق مـن قبـل القراصنة الجنويين وبالتعاون مع الكتلان والروادسة والقبارصة ، وبهذا فقـد كانـت بدايـة

---

(١) يوسف ، علاقات مصر ، ص ٨٠ ، ٨٢ ؛ فهمي ، طرق التجارة ، ص ٤٠ .

(٢) هـ . أ. ل . فشر ، تأريخ أوربا العصور الوسطى ، ترجمة : محمد مـصطفى زيـادة واخـرون (دار المعارف – مصر : ١٩٦٩م) : ٢ / ٤٢٦ .

علاقتهما في سنة (٧٨٧هـ/١٣٨٥م) بناءاً على اتفاقية عقدت بينهما تمهيداً لتحسين العلاقات التجارية مع الدولة الجركسية ، وعندئذ أرسل الجنويون قنصلاً يمثلهم في الدولة الجركسية ويدير اعمالهم التجارية ، إلا ان هذه العلاقة لم تبق محافظة على هدوئها ، فقد تباينت نوعاً ما في عهد السلطان الناصر فرج ابن السلطان برقوق ، بسبب قيام الجنويون بمهاجمة ميناء دمياط [١] ، وهذا ما أثر سلباً على العلاقات التجارية بينهما ، لكن الجنويين ادركوا خطورة توتر العلاقة التجارية مع الجراكسة لما لها من تأثير على مصالحهم التجارية في المنطقة ، لذا حاولوا تدارك الموقف بعقد معاهدة تنص على عدم الاعتداء على المراكب التجارية الجركسية ، وبهذا اعلنوا الولاء للدولة الجركسية ، وعلى الرغم من سياستهم الازدواجية في علاقتهم مع الدولة الجركسية [٢] ، إلا ان العلاقات الجركسية الجنوية في عهد السلطان الناصر فرج بدت اكثر تطوراً ووثوقاً من ذي قبل ، فقد ذكر ***Ashtor*** في بداية القرن الخامس عشر انه كان للجنويين فندقان في الاسكندرية لاسكان التجار [٣] ، فضلاً عن ذلك أرسل حاكم الماغوصة والمستشارين كتاباً سنة (٨١٤هـ/١٤١١م) يخاطبون السلطان فيه ((**الملك المعظم ملك الملوك ، صاحب مصر المحروسة ، الملك الناصر ، عظم الله شانه ، يقبل الارض بين اياديه الكبطان والمستشارون ، وينهون اناء الليل [ساعاته] داعون بطول بقائه ، مجتهدون في استمرار الصلح والمودة التي لا يشوبها كدر بين القومون وبين مولانا السلطان ...والاقبال على التجار الجنوية الذين عند مملكته ، وكف اسباب الضرر عنهم ، ونشر معدلته عليهم ، والله يديم بقاءه بمنه وكرمه**)) [٤] .

---

[١] عاشور ، العصر المملوكي ، ص ٢٧٧-٢٧٨ ؛ فشر ، تأريخ أوربا ، ٢/٤٢٦ ؛ ضومط ، الدولة المملوكية ، ص ٢٣٣ .

[٢] الكناني ، العلاقات بين جنوة ، ص ٤٠١ ؛ يوسف ، علاقات مصر ، ص ٨٠ ؛ عبد السيد ، قيام الدولة ، ص ٥٣ ؛ جاسم محمد جاسم الجرجري ، بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة (٧٨٤-٩٢٢هـ/١٣٨٢-١٥١٦م) دراسة سياسية حضارية (رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب – جامعة الموصل : ٢٠٠٠م)، ص ١.

[٣] *Studies , p.* ٨ .

[٤] القلقشندي ، صبح الاعشى ، ٨ / ١٢٨-١٢٩ .

لقد تبين من خلال النص المكانة التي كانت تشغلها الدولة الجركسية سياسياً واقتصادياً، ومما هو ملاحظ ان العلاقات التجارية بين الجراكسة والجنويين كانت موجودة بشكل محدود قبل عهد السلطان الناصر فرج لكنها كانت محدودة وتطورت بعد ذلك عن طريق عقد المعاهدات التجارية لغرض تسهيل التبادل التجاري ووصول المراكب إلى الموانئ المصرية بصورة سلمية [1] ، إلا ان العلاقات المصرية الجنوية لم تستمر على هذه الوتيرة من الهدوء ، إذ كانت تتخللها اضطرابات سياسية لكلا الجانبين ، فضلاً عن الاعتداءات الخارجية من قبل أطراف أخرى ، وهذا ما شكل عائقاً اوقف العملية التجارية ، وقد أشار المقريزي إلى هذا الأمر ذاكراً انه قد حدث اشتباك بين البحرية الجنوية والكتلانية في ميناء الاسكندرية ، فتمكنت البحرية الكتلانية من اسر قائد القراصنة الجنويين ، وبدورها سلمته إلى الدولة الجركسية التي طلبت منه فدية مالية من اجل اطلاق سراحه ((**فذكر ان ماله بيد الجنويين ، فطلب منهم ذلك فابوا ان يعطوه شيئاً فقبض على تجارهم بالاسكندرية**)) [2] .

انطلاقاً من سير الأحداث السياسية التي كان لها الأثر المباشر على التجارة الخارجية، إلا ان هذا لا يعني بالضرورة التوقف التام للعمليات التجارية بينهما بل كانت هنالك اتصالات تجارية مستمرة ، وقد يعود ذلك إلى سياسة السلاطين الجراكسة ، وهذا ما نلحظه في عهد السلطان اينال الذي استقبل الوفد الجنوي الذي طلب منه تعيين قنصل لهم في الموانئ المصرية ، لتوثيق علاقاتهم التجارية ، وبذلك تحقق الهدف الجنوي في أواخر القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، واستأنفت تجارتهم في عهد السلطان قايتباي وفتحت لهم وكالات وفنادق بالاسكندرية وبيروت وتم تعيين قناصلهم كممثلين لتجارتهم [3] .

ج ــ العلاقات المصرية ــ الفلورنسية (٨٢٦-٩١٥هـ/١٤٢٢ــ ١٥٠٩م)

تعد فلورنسا من المدن الإيطالية المهمة ذات الموقع الجغرافي المميز الذي اكسبها أهمية خاصة من الناحية التجارية ، على الرغم من ذلك لم تستطع ان تنافس الممالك الإيطالية

---

(1) الكناني ، العلاقات بين جنوة ، ص ٤٠٣ .

(2) السلوك ، ج٤ / ق١ / ١٨٢ ؛ ينظر : ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٢ / ٤٩١-٤٩٢ .

(3) اليوسف ، العصور الوسطى ، ص ٢٨٩-٢٩٠ ؛ فهمي ، طرق التجارة ، ص ٤٨ .

الأخرى ، ويعود ذلك إلى اضطراب وضعها السياسي بسبب الحروب الداخلية ، ممّا أدى إلى تأخرها اقتصادياً مقارنةً بالجنويين والبنادقة [1] ، ومن جهة اخرى فقد شهدت المنطقة تطورات سياسية ، قد أثرت على التجارة تاثيراً سلبياً فالسيطرة العثمانية على الدولة البيزنطية وسياستها التوسعية شرقاً نحو أوربا كل هذا أدى إلى توقف التجارة ، وتداركاً للموقف أمرت البابوية بتوحيد الجهود المسيحية لصد الزحف العثماني وهذا بدوره أدى إلى تأخر العلاقات المصرية الفلورنسية بشكل عام ، إلا ان بداية العلاقات بينهما كانت منذ عهد السلطان برسباي عند إرسال أول سفارة فلورنسية لدولته ، ومطالبتها باقامة علاقات تجارية معها ، وان يحسن التعامل مع تجارها اسوة بتجار البنادقة وجنوة وان تستخدم عملة افلوري [2] كعملة رسمية في التبادل التجاري حالها حال عملة البنادقة ، وقد تمت الموافقة من قبل السلطان الجركسي على الطلب الفلورنسي [3] ، وتوثيقاً للعلاقات التجارية بادرت فلورنسا بإرسال بعثة بقيادة جيفنكو ديللا ستياف ***Giovenco Della Stufa*** في سنة (٨٤٩هـ/١٤٤٥م) لغرض استحصال ضمانات تجارية كافية لتسهيل عملية التبادل التجاري لتجارتهم ، وبعد حصولهم على الموافقة من قبل السلطنة الجركسية ، أمر الحاكم الفلورنسي بعدها بإرسال سفينتين إلى ميناء الاسكندرية في كل عام ، مما أدى إلى إرسال رحلتين أخريتين إلى الموانئ المصرية من اجل نقل السلع الشرقية من مصر والشام إلى العالم الأوربي ، إلا ان الفلورنسيين لم ينعموا كثيراً بعلاقتهم مع الجراكسة بسبب قلقهم من تواجد منافس لهم على الساحة التجارية ، وهم البنادقة الذين حصلوا على امتيازات تجارية كبيرة ، وذلك لاستمرار تعاملهم التجاري مع الجراكسة ، وهذا ما اكسبهم قوة تجارية عالية من دون سائر الممالك الإيطالية الأخرى في تجارة شرق البحر المتوسط ، ناهيك عن تعامل الدولة الجركسية بالعملة البندقية والمعروفة (بالدوك البندقي) وكل هذا اثار قلق وحفيظة الفلورنسيين خاصة بعد عقد الاتفاقية الجركسية البندقية سنة (٨٦٥هـ/١٤٦٠م) مع السلطان اينال ومن ثم ابنه احمد ، الأمر الذي شجع الفلورنسيين

---

[1] فهمي ، طرق التجارة ، ص ٤٨ .

[2] افلوري : عملة فلورنسية ذهبية ، أطلق عليها اسم فلورنس . ينظر :

E. B. " Florence ", Vol. ٩, p. ٤٦٠.

[3] ضومط ، الدولة المملوكية ، ص ٤٧-٤٨ .

بان يرسلوا بعثة إلى الدولة الجركسية في نهاية عهد السلطان اينال للحصول على امتيازات تجارية وبالفعل حصلوا على مبتغاهم . اما في عهد السلطان خشقدم ، فقد وصلت بعثة فلورنسية بقيادة برناردو برتولو داي لتقديم التهنئة للسلطان الجركسي وتجديد المعاهدة السابقة، وقد تم عقد معاهدة نصت على منح حق اعفاء سفنها من الرسوم الكمركية في حالة مرورها عبر الموانئ المصرية منطلقة إلى الموانئ الأوربية ، فضلاً عن اعفاء سفنها أيضاً من التفتيش المعهود من قبل الدولة الجركسية [1] ، والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا حصل الفلورنسيون على تلك الامتيازات التي لم تمنح لغيرهم من تجار الدول الأخرى وخاصة ان السلطة الجركسية كانت متشددة في فرضها إجراءات تجارية صارمة مع سائر الدول الأوربية في مثل تلك الحالة ؟ وقد يعود ذلك إلى إدراك الفلورنسيين حقيقة الضعف العسكري للدولة الجركسية ، أو يعود إلى ضعف قدرة السلطان الجركسي خشقدم على الرفض لمعرفته بالعجز المالي لميزانية دولته علماً ان التجارة تعد المورد الرئيس لقوتهم العسكرية لذلك لم يكن امامة إلا القبول بالأمر الواقع ، فضلاً عن نشوب الصراع الجركسي العثماني آنذاك ممّا جعل الوضع السياسي للمنطقة غير مستقر ، واستمراراً لسير الأحداث فقد أرسل الفلورنسيون بعثه تجارية اخرى رداً على تلك البعثة التي ارسلها البنادقة ، وبهذا اصبح وصول الوفد التجاري الفلورنسي إلى الدولة الجركسية بشكل دوري ، ففي سنة (٨٨٦هـ/١٤٨١م) استقبل السلطان قايتباي بعثة تجارية ، طالبت بالحصول على امتيازات خاصة ، وقد ابدى السلطان استعداده لذلك ومنحهم امتيازات كبيرة ، ولاكمال وجه الاتفاق التجاري بينهما ارسلت الدولة الجركسية بعثة بقيادة الخواجة محمد بن محفوظ المغربي سنة (٨٩٣هـ/١٤٨٧م) محملة بالهدايا من اسود وغزلان ومجوهرات لحاكم فلورنسا ، وكان هذا دليلاً من قبل الجراكسة على الموافقة بتنفيذ المعاهدة التجارية السابقة ، فضلاً عن ذلك تم عقد معاهدة جديدة في سنة (٨٩٣هـ ١٤٨٨م) [2] ، وقد نصت على اعتبار عقود البيع المبرمة بين تجار الجراكسة

---

[1] فهمي ، طرق التجارة ، ص ٤٨ -٥٠ ، ٢٧٨ .

[2] لقد كان لتلك المعاهدة الاثر السيء في نفس السلطان العثماني ، مما دعا ملك فلورنسا إلى إرسال بعثة إليه ليؤكد علاقة دولته السلمية مع الدولة العثمانية ، وان وجود سفيرها بالدولة الجركسية هو للاتفاق التجاري

والفلورنسيين نافذة وملزمة للجانبيين ، وفي حالة المقايضة لا يحق للتجار الجراكسة مطالبة التجار الفلورنسيين بثمن السلعة نقداً وخاصة بعد الاستلام ، وقد شملت الاتفاقية بعض الحقوق المدنية ، إذ نظمت لهم مسألة التوريث في حالة وفاة احد تجارهم في الاراضي المملوكية ، كما منعت أي عملية غش للتوابل ، وحق وصول رعاياهم للبلاد الجركسية وتسهيل جميع الأمور المتعلقة في إقامتهم في مصر ، وعلى ضوء ذلك تمت معاملة التجار الفورنسيين بكل احترام ، كما تم إصدار ملحق للمعاهدة السابقة تقرر ان يكون البيع أمام شهود وتخلي مسؤولية البائع فور توقيع العقد بين الجانبيين ، فضلاً عن منع السلطان تكرار تحصيل الرسوم الكمركية في حالة تغيير موظفي الدولة ، كما اقر تداول العملة الفلورنسية (فلورنس) العملة الذهبية بجميع انحاء الدولة الجركسية [1] .

واستمراراً للعلاقات التجارية أرسل حاكم فلورنسا لونزو ديميد شي في سنة (٨٩٤هـ/١٤٨٨م) مبعوثه لويجي ديللا سيتوفا إلى السلطان الجركسي قايتباي من أجل عقد اتفاقية تجارية اخرى متضمنة بنوداً متنوعة ، إلا ان البند الثاني عشر كان خاصاً بالعلمية التجارية ، وبما يلقاه تجارهم من مضايقات في الموانئ الشامية في بيروت وطرابلس وغيرهما، وذلك لبعدهما عن مقر الدولة في مصر ، ورداً على ذلك اصدر السلطان امراً نص على ما يأتي :

أ. اصدار امر من قبل السلطان لعمال الموانئ في بلاد الشام بعدم مضايقة او تعطيل سفن تجار فلورنسا ، فضلاً عن عدم إعاقتهم في تخزين سلعهم ومراعاتهم من قبل والي دمشق .

ب. تم تحديد سعر القطن الجوال الخام بثمانية دارهم والقطن المندوف بخمسة عشر درهماً [2] .

فقط ، وانها ليس لديها النية بقيامها باتفاق مع الجراكسة ضدهم . للمزيد ينظر : فهمي ، طرق التجارة ، ص ٦١-٦٢ .

(١) فهمي ، طرق التجارة ، ص ٦١-٦٢ ؛ وللمزيد من التفاصيل عن هذه المعاهدة . ينظر : الملحق رقم (٣) .

(٢) تدمري ، تأريخ طرابلس ، ٢ / ٢٤٤ .

وعلى ما يبدو ان الامتيازات التي حصل عليها التجار الفلورنسيون كبيرة نوعاً ما في حين ان الدولة الجركسية لم تعط مثل هذه الامتيازات لسائر التجار الاوربيين وقد يكون هدف الدولة الجركسية من وراء كل ذلك هو كسب ود أمراء العالم المسيحي للوقوف معه ضد السلطان العثماني بايزيد الثاني بسبب النزاع المستمر بين البلدين على الاطراف الشمالية للدولة الجركسية .

وتواصلاً للعلاقات التجارية وصلت بعثة فلورنسية اخرى إلى القاهرة في سنة (٩٠٢هـ/١٤٩٦م) مطالبة بعقد اتفاقية أخرى تنص على اعتبار استلام البائع مبلغاً من المال لبضاعته بعد عقد بدائي غير قابل للرد ، وكما لا يحق للجانبين رد البضاعة أو المطالبة برد ثمنها بعد استلامها ، وفي حالة عدم بيع التاجر الجركسي ، ما اشتراه من التجار الفلورنسيين فلا يحق له رد البضاعة ولا مطالبة التجار الفلورنسيين بثمنها ثانيةً ، كما منح تجارهم حق الاقامة في فندق خاص بهم ، فضلاً عن ذلك نصت الاتفاقية على عدم فرض اسعار اعلى من السعر السائد في السوق ، ولهذا استمرت العلاقات إلى نهاية عصر الدولة الجركسية ، ففي عهد السلطان قانصوة الغوري شهدت تطوراً واضحاً وصولاً إلى سنة (٩١٥هـ/١٥٠٩م) وهي السنة التي حدثت فيها موقعة ديو بين البرتغاليين والمماليك الجراكسة ، التي أدت إلى خسارة الجراكسة ، وبذلك شعر الفلورنسيين بالقلق بعد تلك المعركة ، مما كان لها أثرٌ سيءٌ على التجارة بصورة عامة ، وعلى الرغم مما جرى فقد حاولت فلورنسا الحفاظ على استمرار علاقاتها مع الدولة الجركسية ، فارسلت بعثة إلى القاهرة تطلب السماح لهم بان تكون تجارتهم موسمية ، فتمت الموافقة من قبل السلطان قانصوه الغوري الذي اصدر بدوره امراً ينص على مراعاة التجار الفلورنسيين [1] .

ثالثاً : العلاقات المصرية ـ الكتالونية (٨١٧-٩٠٨هـ/١٤١٤-١٥٠٢م)

لم تكن العلاقات التجارية هي الأولى بين البلدين ، بل سبقتها علاقات سياسية اتصفت بالعدائية ، مما انعكس ذلك على الجانب التجاري وتأخر العلاقة بينهما [2] ، فقد بدأت العلاقة

[1] فهمي ، طرق التجارة ، ص ٦٤-٩٢ .

[2] *Ashtor , Studis , p. ١٨٤ .*

بإرسال بعثة من قبل الجانب الكتالوني سنة (٨١٧هـ/١٤١٤م) إلى السلطان الشيخ المؤيد ، مطالبةً باقامة علاقات تجارية بينهما ، وان يسمح لتجارهم بمزاولة اعمالهم التجارية بميناء الاسكندرية ، إلا ان تلك البعثة لم تحقق هدف الكتلانيين بسبب توتر العلاقات السياسية ، وبذلك قام التجار الفرنسيون بتمويل الأسواق الكتلانية بالسلع الشرقية بدلاً من تجارهم الذين اوقفوا اعمالهم التجارية في البلاد الجركسية ، فبعد أن قلّ نشاط التجار الفرنسيين طالبت هيئة تجار كتالونية سنة (٨١٩هـ / ١٤١٦م) من الملك الفرنسي الفونسو الخامس بان يقوم بدور الوسيط بينهم وبين الدولة الجركسية لغرض مزاولة اعمالهم التجارية في الموانئ المصرية ، وهذا متعلقٌ بإيقاف الاعتداءات الكتلانية على الموانئ المصرية في البحر المتوسط ، وبناءاً على تلك المفاوضات التي اثمرت عن نتائج ايجابية للكتلانيين ، إذ باشروا بأعمالهم التجارية بسفن محملة بالسلع الشرقية من توابل وزنجبيل وجوز الطيب ومواد الصباغة والدباغة[١] من ميناءي الاسكندرية وبيروت [٢] .

لقد اتخذت الدولة الجركسية اسلوب الضغط على التجار الكتلانيين كوسيلة لايقاف قراصنتهم ، وهذا ما انعكس على الجانب التجاري ، فعرقل سير العلاقات التجارية وبناءاً على هذا أرسل ملك الكتلان مبعوثه إلى جزيرة صقلية سنة (٨٢٦هـ/ ١٤٣٢م) حاملاً رسالة إلى السلطان الجركسي ، مضمونها الاعتراض على اسلوب سياسة الدولة الجركسية ضد تجارهم وفي حالة عدم الاذعان لهذا الأمر فسوف يتوقف شراء البضائع من دولتهم ، إلا ان هذا لم يجد نفعاً مع السلطان فكان رد السلطان قاسياً عليهم [٣] .

علماً ان العلاقات التجارية في عهد السلاطين اينال واحمد وخشقدم وقايتباي لم تشهد أي حركة تجارية بسبب انشغال الدولة الجركسية بالاوضاع الداخلية لها ، فضلاً عن حروبها الخارجية مع جزيرة رودس والدولة العثمانية ، واستمرار اعتداءات القراصنة الكتلان على

---

[١] عن هذه الموارد ينظر : الملحق رقم (٤) .

[٢] ضومط ، الدولة المملوكية ، ص ٢٣٦ ؛ فهمي ، طرق التجارة ، ص ٤٢-٤٣ .

[٣] المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٨٨٥ .

الموانئ المصرية ، فقد قام الكتلانيون في سنة (٨٧٥هـ / ١٤٧٠م) بمنع وصول المراكب التجارية للدولة الجركسية [١] .

وبقي الحال على ما هو عليه من توتر واضطراب في العلاقات لغاية عهد السلطان قانصوة الغوري ، الذي شهد عهده تطوراً ملحوظاً في العلاقات التجارية ، وخاصةٍ بعد وصول السفير الكتالوني بيرا مارتير دانجيرا إلى القاهرة طالباً عقد جلسة سرية يشرح فيها للسلطان سياسة ملكهم تجاه المسلمين وما يلاقونه من رعاية في أنشطة الحياة كافة ، ومن ابرز ما تضمنته المحادثات تسهيل وصول تجارهم إلى البلاد الجركسية مع تمتعهم باعفاءات مماثلة من الضرائب الكمركية كالتي حصل عليها التجار الاوربيون ، وتجديد المعاهدات السابقة وعدم فرض ضرائب ورسوم على البضائع التجارية ، ومقابل ذلك شجع الملك فرناند التجارة الخارجية وخاصة التعامل مع الدولة الجركسية ، أما من ناحية الوضع الداخلي للكتلانيين ، فقد فتح ميناء برشلونة للسفن التي تعمل في تجارة شرق البحر المتوسط ، وكذلك تم تخفيض الرسوم الكمركية عن السلع الشرقية [٢] .

ومن معاينة الأحداث يتبين ان العلاقات الجركسية الكتالونية كان يشوبها نوع من الحذر والترقب نتيجة للاحداث السياسية لكلا البلدين ، فمن ناحية الجانب الجركسي كانت سفنه تتعرض لعمليات قرصنة من الكتلانيين بين الحين والآخر ، لذلك تأرجحت العلاقة بين العداء والسلم إلى ان تم اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح الذي قضى على التجارة الجركسية بالدرجة الاولى والاوربية بالدرجة الثانية .

رابعاً : العلاقات المصرية ــ الفرنسية (٨٦١- ٨٧٧ هـ / ١٤٥٦ -١٤٧٢ م)

اتصفت العلاقات الجركسية الفرنسية بانها ذات طابع تجاري بحت ، يعود ذلك إلى العلاقات السياسية السلمية بينهما ، فضلاً عن البعد الجغرافي الذي حتم على ان تكون علاقتهم التجارية مستمرة إلى نهاية الدولة الجركسية ، ففي سنة (٨٦١هـ / ١٤٥٦م) التي تعد بداية

---

[١] فهمي ، طرق التجارة ، ص ٦٧ .

[٢] فهمي ، طرق التجارة ، ص ٦٨-٦٩ .

للعلاقات التجارية ، استقبلَ السلطان اينال وفد الملك الفرنسي لويس الحادي عشر الذي جاء مهنئاً السلطان بسلطنته الجديدة ، ومؤكداً تعاونه التجاري معهم ، علماً ان معظم اتصال فرنسا التجاري مع شرق البحر المتوسط كان يتم عن طريق موانئها الجنوبية في مرسيليا ومونتنتييه ، وبهذا شهد ميناء مونتنتييه ازدهاراً في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي في زمن التاجر الفرنسي جاك كير الذي اتخذه مركزاً للتجارة الفرنسية في نقل وتسويق السلع الشرقية من ميناء الاسكندرية وبيروت إلى فرنسا وسائر الدول الأوربية الأخرى وتواصلاً لذلك نشطت التجارة الفرنسية خلال النصف الثاني من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، وهذا يعود إلى جهود التاجر الفرنسي جاك كير ، الذي قام بتوثيق العلاقة بينهما ، فضلاً عن حصوله على موافقة من البابا وملك فرنسا وكتالونيا باستمرار التجارة مع الجراكسة ، ونتيجة لذلك اخذت السفن الفرنسية تحمل الاصواف والمعادن إلى الموانئ الجركسية ، ومن ثم تعود بالتوابل والبهار والقطن والعاج والعقاقير [1] .

لقد توثقت العلاقات المصرية الفرنسية من خلال عقد المعاهدات التجارية التي تدل على استمرار التعاون التجاري بينهما ، وكان هذا تحديداً في عهد السلطان قايتباي الذي استقبل المبعوث الفرنسي من اجل تجديد الاتفاقية التي تم عقدها سابقاً ، فضلاً عن عقد معاهدة جديدة في سنة (٨٧٧هـ / ١٤٧٢م) ، والتي تنص على معاملة التجار الفرنسيين معاملة حسنة ، وعدم التعرض لهم وايذائهم في المعاملات التجارية [2] .

ومن خلال استعراض العلاقات التجارية مع الدول الأوربية يتضح ان الدولة الجركسية كانت بمثابة الدولة الوسيطة التي تقوم بجمع السلع من اسواقها واستقبال التجار الأوربيين ونقلهم البضائع التجارية من الموانئ المصرية إلى الأسواق الأوربية ، فضلاً عن ان علاقة الجراكسة مع الدول الأوربية عامة كانت متأرجحة بين العداء والسلم وهذا يعود إلى اضطراب الوضع السياسي للجراكسة على الدوام ، اضافة إلى اضطراب الاوضاع الداخلية لقسم من الدول الأوربية ، ومع هذا استطاعت الدولة الجركسية من خلال علاقاتها التجارية ان تنهض باقتصادها وتزدهر عن طريق فرض

---

(1) فهمي ، طرق التجارة ، ص ٤١ .

(2) فهمي ، طرق التجارة ، ص٤٢-٤٣ .

الرسوم الكمركية على البضائع التجارية داخل موانئها ، واحتكار انواع من السلع ، إلا ان ذلك الازدهار لم يدم طويلاً بسبب اكتشاف طريق تجاري بديل عن طريق مصر التجاري ، مما أدى ذلك إلى توقف التجارة في موانئها وكسادها ، وادى هذا تدريجياً إلى انهيار الدولة الجركسية .

الفصل الرابع : عوامل انهيار دولة المماليك الجراكسة

أولاً : ظهور البرتغاليين

ثانياً : قيام الدولة العثمانية وسياستها التوسعية

ثالثاً : سياسة الدولة الاحتكارية

كان لموقع مصر الجغرافي أهمية ، والذي مكّنها من السيطرة على أغلب الطرق التجارية التي تربط بين الشرق والغرب ، وما ترتب على ذلك من رخاء اقتصادي ودور سياسي لدولة المماليك الجراكسة لمدة تزيد على مئة وأربع وثلاثين سنة من القرن الثامن الهجري وحتى نهاية القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي [١] ، وعلى الرغم من تلك السيطرة ، الا ان نهايتها وانهيارها حصل كالدول التي سبقتها ، نتيجة لتأثير عوامل أبرزها ، الجانب الاقتصادي المتمثل بظهور البرتغاليين [٢] ، والجانب السياسي المتمثل بالدولة العثمانية وسياستها التوسعية ، فضلاً عن سياسة السلاطين الاحتكارية التي كانت خاتمة عوامل انهيار دولة المماليك الجراكسة .

أولاً : ظهور البرتغاليين

لقد أدّت الدوافع الاقتصادية والدينية والسياسية إلى القيام باستكشافات جغرافية من لدن الأسبان ومن ثم البرتغاليين ، وذلك ما حفز كولومبس وهنري الرابع ، إذ حاول الأخير القيام بحملات صليبية ضد المسلمين في شمالي أفريقيا في سنة (٨١٨هـ/١٤١٥م) [٣] وكان الهدف من ذلك امرين ، اولهما : الوصول إلى أسواق الهند والشرق ، وثانيهما الوصول إلى مملكة القديس يوحنا في شرقي أفريقيا،وهي مملكة مسيحية لذلك أراد الأوربيون السيطرة على تلك المملكة لجعلها قاعدة لهم من أجل القيام بأعمال حربية ضد الدول الإسلامية التي تحتكر

---

[١] حمودة ، صفحات من تأريخ ، ص٧ ، محمد يحيى الحداد ، مقاومة العرب للنشاط البرتغالي البحري بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح في الهند (مجلة المؤرخ العربي – بغداد : ١٩٩٣م) ، ع ٤٥ ، ص٢١-٢٢ .

[٢] البرتغال : مدينة تقع في جنوب غرب أوربا ، تحدها أسبانيا من جهتي الشمال والشرق ، ومن جهة الغرب والجنوب المحيط الاطلسي . ينظر : فاخوري ، الاقطار والبلدان ، ص ١٠٠ ؛

E. B. " Portugal " Vol. ١٨, p. ٢٧٤.

[٣] *Bury , The Cambridge , Vol. VII , p. ٥٨١.*

تجارة الشرق [١] .

تعود نشأة مدينة البرتغال إلى أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي وقد تناوب على حكمها عدة أُسر لذلك تميزت الفتـرة (٧٥٩-٧٨٥هـ/١٣٥٧-١٣٨٣م) باضطرابات داخلية نتيجةً للحرب الاهلية ، أما في بداية القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، فأخذت مدينة البرتغال بالاستقرار ، وتمكنت من إنشاء قوة بحرية لها مما جعلها تقوم بإعمال توسعية ابتداءاً بمدينة سبتة [٢] ، سنة (٨١٨هـ/١٤١٥م) في عهد جـون الأول والتي استمرت بأعمالها العدائية ، فأرسلت البعثات الاستكشافية إلـى السواحل الأفريقية لأغراض تجارية من جهة ولمحاربة المسلمين من جهة أخرى [٣] .

لقد كان لمدينة البرتغال دورٌ مهمٌ في انهيار دولة المماليك الجراكسة ، وخاصةً بعد ان تمكنوا من اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، الأمر الذي أدى إلى تغيير مسار القوافل التجارية من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلسي ، وذلك مما مكنهم من السيطرة على تجارة الشرق ، ونقل البضائع مباشرةً إلى أوربا من دون المرور بموانئ الدولة الجركسية [٤] .

---

[١] لقد تمكن البرتغاليون من السيطرة على سبعة مناطق مهمة في منطقة الشرق ، الاولى منها : يمتد من رأس الرجاء الصالح إلى البحر الاحمر ، وهذا يضم جميع ساحل شرق افريقيا ، والثانية : جنوب بلاد العرب ومدخل الخليج العربي ، والثالثة : تبدأ من الخليج العربي إلى مصب نهر السند ، والرابعة : تشمل جزءاً من الساحل الشرقي للهند حتى البنغال ، والخامسة : تضم الساحل الغربي للهند حتى رأس كومورن *Comorine* ، والسادسة : تشمل الساحل الغربي لجنوب شرق اسيا والنصف الغربي لارخبيل الملايو ، والسابعة : وتشتمل على جزر التوابل في مولاكاس *Moluccas* وجزر المنتجة لخشب الصندل وهي فلورس *Flores* . ينظر : أمين ، دراسات في تجارة ، ص ٨١ ؛

E. B. " Portugal " Vol. ١٨, p. ٢٧٩.

[٢] مدينة سبتة : مدينة ساحلية تقع في اقصى شمال المغرب الاقصى بين شبه جزيرة ايبيريا والبر المغربي . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ٣ / ١٨٢-١٨٣ ؛ القزويني ، اثار البلاد ، ص ٢٠١ ؛ أبو الفداء، تقويم البلدان ، ص ١٣٢ .

[٣] اليوسف ، أوربا الوسطى ، ص ٣٤٢-٣٤٣ ؛ مفيد كاصد الزيدي ، موسوعة تأريخ أوربا الحديث والمعاصر (دار أُسامة – الاردن : ٢٠٠٤م) ، ٢ / ٤٠٦-٤٠٧ .

[٤] فشر ، أصول التاريخ الأوربي الحديث من النهضة الاوربية إلى الثورة الفرنسية ، ترجمة : زينب عصمت راشد وآخرون (دار المعارف – مصر : ١٩٦٢م) ، ص ٢ ؛ جومار ، وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل ، ترجمة : فؤاد السيد (مطبعة المدني – مصر : ١٩٨٨م) ، ص ٣٨ ؛ أنيس ، الدولة العثمانية ، ص ١٠٤ ؛ سليم ، عصر سلاطين ، ٢ / ٢٦٠ ؛

David Ayalon , Gunpowder and firarms in the Mamluk Kingdom (Great Britain – London : ١٩٥٦) , p. ٩٨ ; Toussant , History , p. ٩٤.

وبذلك شهدت نهاية العصور الوسطى حركة استعمارية لتحقيق التوسع الأوربي على حساب الشرق عامةً ودولة المماليك الجراكسة خاصة ، والتي وقع على عاتقها مقاومة الغزو البرتغالي الذي قام بعمليات الاستكشافات الجغرافية [١] ، المتمثلة بالطرف الشمالي الغربي من الساحل الأفريقي للبحر المتوسط والمحيط الأطلسي ، والمياه العربية الجنوبية للبحر الأحمر والخليج العربي [٢] ، وذلك لتلبية الطلب المتزايد على تلك السلع في أوربا [٣] .

وعلى ما يبدو ان التوجه البرتغالي نحو المنطقة العربية الإسلامية كان له أسبابه من أبرزها العامل الاقتصادي ، وهو البحث عن الذهب الغيني ***Gumea Gold*** والتوابل هذا من ناحية ، ولعل هذا ما عبر عنه فاسكو دي جاما عندما سأله حاكم كاليكوت عن سبب مجيئه إلى الشرق ، أجابه " المسيحية والتوابل " [٤] ، ومن ناحية أخرى التطورات الاقتصادية التي حصلت داخل المجتمع الإقطاعي الأوربي الذي اتسم بالضعف مع نشوء الرأسمالية التي أدّت بدورها إلى زيادة نفوذ التبادل الأوربي مع زيادة رأس المال التجاري ، الأمر الذي شجع على العمل بالتجارة الخارجية والاهتمام بها ، فضلاً عن ذلك كله كانت النزعة الصليبية تراودُ عدداً كبيراً من رجال البحرية البرتغالية [٥] ، التي ورثوها من تاريخهم الماضي [٦] ، ومقابل ذلك

---

[١] لم يكن البرتغاليون هم أول من قام بتلك الاستكشافات الجغرافية بل سبقهم إلى ذلك الجنويون ، الا ان محاولاتهم باءت بالفشل . ينظر :

Toussant , History , p. ٩٥.

[٢] ابراهيم خليل احمد ، بدايات التوجه العثماني نحو منطقة الخليج العربي (مجلة المؤرخ العربي ــ بغداد : ١٩٩٩م)،ع٤٣،ص ٢٥-٢٦ ؛ فشر ، أصول التاريخ ، ص ٧٩ ؛ الزيدي ، موسوعة تأريخ ، ٢ / ٤٠٩ .

[٣] أمين ، دراسات في النشاط ، ص ٥١ .

[٤] *Toussant , History , p. ٩٣.*

[٥] في سنة (٨٩٤-٨٩٥هـ/١٤٨٨-١٤٨٩م) قام احد الملاحة البرتغاليين ، ويدعى بيرو دي كوفلها بالإبحار من أجل البحث عن بلاد التوابل ، فوصل إلى عدن ومن ثم توجه إلى جزر الكنار وكلكتا وهرمز وسفالة وبعد ذلك توجه غرباً نحو القاهرة وعاد بعد ذلك إلى هرمز . ينظر : صالح اوزبران ، الأتراك العثمانيون والبرتغاليين في الخليج العربي (١٥٣٤-١٥٨١م) ، ترجمة : عبد الجبار ناجي (مطبعة الارشاد ــ بغداد : ١٩٧٩م) ، ص ١٧-١٨ .

[٦] عبد القادر يوسف ، التاريخ الاقتصادي (دار الكتب ــ بغداد :١٩٨٠م) ، ص٧٤ ؛ اوزبران ، الاتراك العثمانيون ، ص ١٧ ؛ أمين ، دراسات في النشاط ، ص ٧ .

اضطراب الوضع السياسي في المنطقة العربية الإسلامية ، المتمثل في الصراعات المستمرة بين القوى الإسلامية أي المماليك والصفويين والعثمانيين [١] ، هذا فضلاً عن سيطرة الدولة الجركسية على منفذين رئيسين من منافذ التجارة العالمية ، هما البحر الأحمر والخليج العربي اللذان كانا ممراً لمعظم تجارة أوربا في نهاية العصور الوسطى ، وهذا ما اثر تأثيراً كبيراً في الاقتصاد الأوربي [٢] ، الذي شكل قلقاً لدى القوى الأوربية وخاصة البرتغاليين منهم الذين أدركوا بأنه لا جدوى من الحرب العسكرية ضد الجراكسة ، لذلك اتبعوا سياسة مغايرة تختلف عن السياسة العسكرية ، وهي محاربه الدولة الجركسية اقتصادياً لأنها تعد من اكبر القوى الإسلامية في القرن التاسع الهجري ، الخامس عشر الميلادي [٣] ، لذلك بدأت الجهود البرتغالية لاكتشاف طريق جديد يمكنها منه السيطرة على تجارة الشرق ويحل محل الطرق التجارية المسيطر عليها من لدن القوة البحرية الجركسية [٤] ، عندئذ بدأ الرحالة البرتغالي هنري الملاح [٥] برحلته التجارية نحو الشرق ، والذي تمكن من اكتشاف جزر خليج الرأس الأخضر ومصب السنغال وغامبيا وأقام هناك قواعد حربية وتجارية لهم ، وبذلك استطاع من الوصول إلى ثلث الساحل الأفريقي الغربي [٦] ، ومن ثم توقفت الاستكشافات الجغرافية

---

[١] سليم ، عصر سلاطين ، ١ / ٩ ، صبري فالح حمدي ، البحرين خلال السيطرة البرتغالية (١٥٠٧-١٦٠٢م) (مجلة الوثيقة ــ البحرين : ١٩٩٨م) ع ٣٤ ، ص ٣٠-٣١ .

[٢] طارق نافع الحمداني ، التحدي البرتغالي للوطن العربي ووسائل التخلص منه (مجلة الوثيقة _ البحرين : ١٩٩٥م) ، ع٢٨ ، ص ٨٣-٨٤ ؛ طرخان ، البرتغاليون في غرب افريقيا (مجلة كلية الآداب – القاهرة : ١٩٦٧م) ، مج ٢٥ ، ع١ ، ص ١٩ .

[٣] عاشور ، بحوث ودراسات ، ص ٣١٤-٣١٥ .

[٤] *Kirk; , Ashort , p. ٦٥.*

[٥] هنري الملاح : الابن الثالث للملك البرتغالي يوحنا الأول ، كان مهتماً منذ صغره بالجغرافيا والفلك ، ودرس الخرائط الجغرافية والاجرام السماوية والطرق البحرية ، وحركة الرياح التي تساعد الملاحة والملاحين ، هذا فضلاً عن اهتمامه ببناء السفن مما ساعد على تطور الملاحة البرتغالية . للمزيد ينظر : الزيدي ، موسوعة تأريخ ، ٢ / ٤٠٦ .

[٦] عاشور ، بحوث ودراسات ، ص ٣١٤-٣١٥ ؛ أوربا العصور ، ١ / ٥٧٢ ؛

E. B. " Portugal " Vol. ١٨, p. ٢٨٠.

البرتغالية بسبب الحرب بينها وبين الأسبان في سنة (٨٨٠-٨٨٤هـ/١٤٧٥- ١٤٧٩م) لكنهم عاودوا نشاطهم في سنة (٨٩٣هـ/١٤٨٧م) عندما أرسل الملك يوحنا الثاني بعثة استكشافية يرأسها الملاح برثليمو دياز ، وكان هدفها الوصول إلى الهند عن طريق البحر مباشرة ، وبالفعل وصلت البعثة إلى خليج الجو في أجواء عاصفة وعلى اثر ذلك سماه خليج الزوابع ، وبعد عودته إلى بلاده رأى الملك ان يغير اسم الخليج إلى " الرجاء الصالح " [1] لانه بعث الرجاء في كشف الطريق البحري المباشر إلى الهند [2] ، وبذلك تحقق أمل البرتغالين في اكتشافهم الطريق المهم لتجارة التوابل [3] ، ويذكر ***Toussaint*** **((ان الفلفل الفينيسي قد عجز عن مواجهة الفلفل البرتغالي حتى نهاية القرن السادس عشر))** [4] ، فبدأوا في إرسال الأساطيل ذات القوة الفعالة المزودة بالأسلحة لغرض السيطرة الكاملة على الطرق التجارية[5]، وهكذا تمكنوا من السيطرة على تجارة الشرق بدلاً من الدولة الجركسية [6] وبذلك أصبحَ البرتغاليون أصحابِ السيادة التجارية والبحرية بين الشرق والغرب ، فقاموا بنقل السلع والمنتجات الشرقية بأسعار رخيصة ، الأمر الذي أدّى إلى حرمان الجراكسة من اعظم مصدر اقتصادي لها ، وخاصة عند فرض الضرائب على بضائع الشرق المتجهة إلى ميناء جدة أو التي كانت تمر بالموانئ المصرية ومنها إلى أوربا [7] ، فعدَّ ذلك الاكتشاف تهديداً لاقتصاد الدولة الجركسية ، بل وأثر سلباً على الممالك الإيطالية أيضاً كجنوة والبندقية وكل

---

[1] ينظر الشكل رقم (٨) .

[2] الزيدي ، موسوعة تأريخ ، ٢ / ٤٠٨ ؛

E. B. " Portugal " Vol. ١٨, p. ٢٧٩-٢٨٠.

[3] *Tom little , Modern Egypt (Great Britain – London : ١٩٦٧) , p. ٢٥.*

[4] *History , p. ٩٣.*

[5] راغب حامد عبداللة البكر ، الصليبيون والبحر الأحمر في العهدين الايوبي والمملوكي (مجلة اداب الرافدين ــ جامعة الموصل : ١٩٩٧م) ، ع٣٠ ، ص١٢٤ ؛

Ayalon , Gumponder , p. ٥٠.

[6] يوسف ، التاريخ الاقتصادي ، ص ١٠٢ .

[7] العبادي ، تأريخ البحرية ، ص ٢٦٦ ؛ شلبي ، الموسوعة الاسلامية ، ٥ / ٩ ؛ ابراهيم حسن سعيد ، البحرية في عصر سلاطين المماليك (دار المعارف – الاسكندرية : ١٩٨٣م) ، ص ١٨١ .

السواحل الهندية الغربية واليمن ، علماً انه لم يكن ذلك الاكتشاف اكتشافاً جغرافياً فحسب ، بل عُدَّ أيضاً اكتشافاً اقتصادياً مهماً [١] ، ولذلك عمل البرتغاليون طوال تلك الفترة من أجل توطيد اقدامهم في الهند متخذين من منطقة ***Cochin*** قاعدة رئيسة لهم ، وتدخل في الخط التجـــاري الممتد بين مصر والهند [٢] ، وكل ذلك كان له مردودٌ عكسيٌ على الدولة الجركسية ، لانها لم تعد مركزاً رئيساً للتجارة كما كان سابقاً ، فاخذت القوافل التجارية تسير مـــن الـــشرق إلـــى الاسواق الأوربية مباشرةً من دون المرور بموانئها ، ممّا انعكس على واردتها مـــن ناحيـــة فرض الضرائب على البضائع الشرقية فكان ثمن قنطار [٣] الفلفل مابين (١/٢) ، و(٢) دوكة في قاليقوط ، وبعد نقله إلى ميناء الاسكندرية يبلغ سعره(٨٠) دوكه ، في حين أصبح يباع في أسواق لشبونة بعد الاستكشافات الجغرافية بسعر يتراوح ما بين(٢٠-٤٠) دوكه [٤] .

وهكذا بـــدأت البحريـــة البرتغاليـــة بـــسياسة التهديـــد والمحاصـــرة ، ففـــي ســـنة (٩٠٤هـ/١٤٩٨م) عسكر القائد البرتغالي بأسطوله عند مدخل البحر الأحمر لغـــرض منـــع دخول السفن الأوربية إلى الموانئ المصرية [٥] وفي السنة ذاتها يذكر ***Hitti*** عن عودة السفن

---

[١] فوزي جرجيس ، دراسات في تأريخ مصر السياسي منذ العصر المملوكي (مطبعة الدار المصرية لطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة : ١٩٥٨م) ، ص ١٥ ؛ جلال يحيى ، مصر الحديثـــة (١٥١٧- ١٨٠٥م) (منشأة المعارف – الاسكندرية : د / ت) ، ص ٥٧ .

[٢] *Hadrami Chronicles , The Portuguese of the South Araian Coast (Oxford : ١٩٦٣) , p. ١٥ ; Toussaint , History , p. ٩٣.*

[٣] القنطار معيار قيل وزن أربعين أُوقية من الذهب ، ويقال الف ومئة دينار ، وقيل أيضاً مئـــة وعـــشرون رطلاً . ينظر : جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ، لسان العرب (دار صادر – بيروت : ١٩٩٤م) ٥ / ١١٨ (مادة قنطار) .

[٤] راقد ، الغزو العثماني،ص ١٢٦؛ فهمي ، طرق التجارة،ص ٣٠ ؛ دراج ، المماليك والفرنج ، ص ١٣٢ ؛ *Chronicles , The Portuguese , p. ١٥.*

[٥] عبد العزيز عوض ، الاحتلال البرتغالي لموانئ الجزيرة العربية (مجلـــة المـــؤرخ العربـــي – بغـــداد : ١٩٨٦م) ، ع ٢٩ ، ص ١٨ ؛ راقد ، الغزو العثماني ، ص ١٢١ .

البرتغالية إلى أوربا ، وهي محملة بالبهارات ذات الجودة العالية والاثمان الباهضة [1] ، فضلاً عن أنهم هددوا غزو الحجاز وقطع كل اتصال بين المحيط الهندي والبحر الأحمر وتحويل متاجر الشرق بالقوة إلى أسواق لشبونة [2] ، ومما يؤكد تلك التهديدات قيام الملك عمانوئيل بارسال رسالة إلى البابا بوليس الثاني في سنة (٩١١هـ/١٥٠٥م) قائلاً **((انه ليس عازماً على المضي في قتل التجار المملوكية ،بل سيقاتل في سبيل المسيحية حتى يجعل من مكة هدفاً لمدافعه وجنوده))** [3] .

بعد أن تحقق هدف البرتغاليين في سيطرتهم على التجارة بين الشرق والغرب والتي مثلت المورد الرئيس بالنسبة للدولة الجركسية ، فلم يبقَ أمام السلطان قانصوه الغوري شيء يستخدمه للحفاظ على مصدر قوة دولته وثروتها ، غير انه وجد نفسه أمام أمرين لا محال منهما فتارةً يستخدم التهديد ، وتارةً اخرة يتخذ اسلوب المهادنة السلمية [4] ، فأرسل إلى ملوك الصليبيين يحذرهم من استمرار البرتغاليين والأسبان [5] في موقفهم العدائي في مياه

---

[1] *Near East in history A ٥٠٠٠ Year Story (United States of America – New York : ١٩٦١), p. ٣٢٣.*

[2] سعيد ، البحرية في عصر ، ص ١٨٢ ؛ دراج ، المماليك والفرنج ، ص ١٣٢ .

[3] محمد محمود السورجي ، أولى الانتصارات العربية في العصر الحديث طرد البرتغاليين من عمان (١٦٥٨م) (مجلة المؤرخ العربي – بغداد : ١٩٩٠م) ، ع ٤١ ، ٤٢ ، ص ٤٧ ؛

E. B. " Portugal " Vol. ١٨, p. ٢٨٠.

[4] العبادي ، تأريخ البحرية ، ص ٢٦٦ ؛ سعيد ، البحرية في عصر ، ص ١٢٨ ؛ حمودة ، صفحات من تأريخ ، ص٧ ؛

Philip , History , p. ٦٩٧.

[5] تلبيةً لطلب البابا تمكن البرتغاليون والأسبان من عقد اتفاقية في سنة (٩٠٠هـ/١٤٩٢م) باقتسام منطقة الشرق بينهما ، لذلك كان الوضع غير المستقر في الشرق مشجعاً لهم ، فضلاً عن تجارة الشرق التي كانت تمر بطريقين اساسيين إلى أوربا هما بحري وبري ، فالاول سيطرت عليه الدولة العثمانية بعد سقوط مدينة القسطنطينية ، والثاني سيطرت عليه الدولة الجركسية عبر البحر الأحمر . للمزيد من التفاصيل ينظر : علي غنام ، كيف نجحت دولة أوربية صغيرة في استعمار بلدان كبيرة (مجلة المؤرخ العربي ــ بغداد : ١٩٨٧م) ، مج ١٩ ، ع١ ، ١٨-١٩ .

المحيط الهندي ، عندئذ سوف تتخذ الدولة الجركسية إجراءات بحق رعاياهم المقيمين في مصر سواء كانوا تجاراً أم رهباناً ، فضلاً عن إعلانه بانه سيغلق كنيسة القيامة [١] ، الا ان تلك التهديدات لم ترعب الدول الأوربية عامة والبرتغاليين خاصة الذين استمروا في سياستهم التوسعية البحرية [٢] لذلك لم يبقَ أمام السلطان الغوري سوى ان يقابل القوة بالقوة إذ ما تمكن من ذلك [٣] .

لقد اتصفت السياسة البرتغالية تجاه الدولة الجركسية بالعدائية ، فاتخذت شكلا خاصاً خلال محاربتها اقتصادياً ، وخاصة من الناحية التجارية ، فبدأت السفن البرتغالية بمطاردة السفن التابعة لتجار الدولة الجركسية والاستيلاء عليها واغرقت قسماً منها عن طريق ضربها بالمدفعية ، وكذلك فقد تمكنت القوة البحرية من السيطرة على المداخل الرئيسة للتجارة عند مدخل البحر الأحمر والمحيط الهندي [٤] ، ممّا أدّى ذلك إلى تدهور الوضع الاقتصادي لمصر خاصة والممالك الإيطالية عامة ، وذلك ما شجع السلطان الغوري على الاتصال بالبنادقة سراً كما اتصل بالسامري ملك قاليقوط للعمل معاً في محاربة الاسطول البرتغالي [٥] ، إلاّ أن هذا الأمر لم يجدِ نفعاً ، فلم يبق امام الدولة الجركسية خيارٌ آخر للرد على الغزو البرتغالي سوى سياسة الضغط والتهديد بعد أن عجزت عسكرياً عن مقاتلتهم ، لذلك كلف السلطان الغوري رئيس رهبان الفرنسسكان فرامورد دوسان برناردينو ومعه اثنان من أقرانه بالذهاب إلى أوربا لغرض التفاوض في مسألة الغزو البرتغالي مبتدئين بدوج البندقية ومن ثم البابا جوليوس

---

[١] دراج ، المماليك والفرنج ، ص ١٣٤ ؛ *Kirk , Ashort , p. ٥٦.*

[٢] *Lane – Pool , Egypt , p. ٣٥٢.*

[٣] سعيد ، البحرية في عصر ، ص ١٨٢ .

[٤] محمد رزوق ، صفحة من صفحات التاريخ المشترك بين المغرب والخليج العربي خلال القرن السادس عشر (الغزو البرتغالي كنموذج) (مجلة حوليات كلية الآداب والعلوم الانسانية ــ القاهرة : ١٩٨٥م) ، ع ٢ ، ص ١٢٧-١٢٨ ؛ الحداد ، مقاومة العرب ، ع ٤٥ ، ص ٢٢ ؛ *Kirk , Ashort , p. ٦٥.*

[٥] الخربوطلي ، الاسلام في حوض ،ص١٦٣ ؛ حاطوم ، تأريخ عصر ، ص٣٩٤ ؛ سعيد ، البحر في عصر، ص ١٨٢.

الثاني وفرديناند وايزابيلا ملكي ارغون وقشتالة وفرديناند ملك البرتغال، بابلاغهم ان لم تتوقف حملة اضطهاد المسلمين بالأندلس وإرغامهم على اعتناق النصرانية من جهة ، وان يكف البرتغاليون عن العمل العدائي في مياه المحيط الهندي ضد الدولة الجركسية من جهة أخرى ، فانه سيقوم مضطراً ومكرهاً بقتل جميع الصليبيين المقيمين بدولته تجاراً ورهباناً ، فضلاً عن إغلاق كنيسة القيامة [1] .

بعد أن حملَ المبعوثان الرسالة التي كلفهم بها السلطان الجركسي ، وصلوا إلى مدينة البندقية في سنة (٩١٠هـ/١٥٠٤م) واطلع دوق البندقية على ما في الرسالة ، فضلاً عن إعلامه بما حل بتجارتهم من تدهور جراء احتكار البرتغاليين للتجارة الدولية ، إلا ان الدوق أوضح للمبعوثين عجز مدينته عن اتخاذ أي اجراء يخدم الجراكسة من حيث تزويدهم بالمساعدات الحربية ، وكذلك عدم قدرته على القيام بدور الوسيط باصلاح ذات البين بينهم وبين البرتغاليين ، وبهذا يتبين ان لذلك الموقف السلبي لدوق البندقية مبرراً وهو مخافة الدوق من ان يتهم بالخيانة من لدن الدول الأوربية إنْ فعل ذلك الأمر [2] ، والواقع ان ذلك التحفظ الذي اتخذه البنادقة يمكن وصفه سياسياً بأنه ذو مكيالين ، إذ حاولت من جهة ان تكون علاقاتها مع الدولة الجركسية بصورة غير علنية [3] ، وفي الوقت ذاته سعت إلى إبقاء الاهداف الصليبية سارية المفعول ، لذلك قدمت المقترحات فقط إلى السلطة الجركسية من اجل القضاء على الخطر البرتغالي بارسالها بعثة بقيادة سفيرها برناردينو جيوفا **Bernardino Giove** إلى السلطان الغوري يعرض عليه مشروع حفر قناة السويس [4] ، وان يرسل إلى

---

(١) دراج ، المماليك والفرنج ، ص ١٣٤ ؛ راقد ، الغزو العثماني ، ص ١٢٢-١٢٣ ؛ يحيى ، مصر الحديثة، ص ٥٨ ؛

Kirk , Ashort , p. ٦٥.

(٢) فهمي ، طرق التجارة ، ص ٣٠ ؛ دراج ، المماليك والفرنج ، ص ١٣٤ ؛

Ayalon , Gunmponder , p. ٥٠ .

(٣) عن سياسة البنادقة ينظر : ملحق رقم (٤) .

(٤) سرهنك ، حقائق الاخبار ، ص ٣٦ ؛ دراج ، المماليك والفرنج ، ص ١٣٥ ؛ سعيد ، البحرية في عصر ، ص ١٨٢ .

امراء الهند ويحثهم على إغلاق موانئهم أمام الغزو البرتغالي ، فضلاً عن تخفيض أسعار التوابل حتى يتمكن تجار البنادقة من منافسة البرتغاليين في الأسواق الأوربية [١] ، فأوضح السلطان لبعثة البنادقة انه لابد من قيام تعاون مشترك بينهما ، وذلك عن طريق امدادهم له بالأخشاب والأسلحة اللازمة لبناء أسطولاً لكي يواجه به الخطر البرتغالي في المحيط الهندي، فبذلك عادت البعثة تحمل المقترح السلطاني لدولتهم [٢] .

وعلى ما يبدو أن البنادقة حاولوا استغلال الظروف السياسية التي تمر بها الدولة الجركسية ، فارادوا التخلص من الرسوم الكمركية ، والحفاظ على مصالحهم التجارية التي اخذت تفقدها ، وخاصة بعد ان سيطر البرتغاليون على الموانئ الهندية الرئيسة واكتشاف الطريق الجديد للتجارة ، فقد اخذت سفن البندقية تحمل نصف الكمية التي كانت تحملها قبل السيطرة البرتغالية على تجارة الشرق ، مما اضطر تجارهم إلى التوجه إلى اسواق لشبونة لغرض شراء التوابل بسعر اقل وكمية اكبر [٣] ، على الرغم من الموقف المتذبذب من الجانب البندقي ، إلا ان البعثة استمرت في رحلتها من اجل التحاور مع كل الاطراف صاحبة العلاقة وصولاً إلى البابا وابلاغه فحوى رسالة سلطان مصر التي كانت تضم في طياتها التهديد الواضح الذي اقلقه ودعاه إلى وجوب التدخل لحماية حجاج الافرنج والسعي على ان تبقى كنيسة القيامة مفتوحة للزائرين ، عندئذ كتب البابا رسالتين إلى كل من ملكي اسبانيا والبرتغال طالباً من ملك البرتغال خاصة ايقاف تهديده للدولة الجركسية ، فأجابه أنَّهُ لا داعي لتلك التهديدات الجركسية فهي لا تشكل خطراً على الدول الأوربية ، وانه يطلب من ملوك أوربا توحيد الجهود لكي يتحقق المشروع الصليبي من اجل استعادة الاراضي المقدسة [٤] .

---

[١] الخربوطلي ، الاسلام في البحر ، ص ١٦٣ ؛ حاطوم ، تأريخ العصر ، ص ٣٩٤ ؛
Ayalon , Gunmponder , p. ٥٠ .

[٢] دراج ، المماليك والفرنج ، ص ١٣٣ ؛ جرجيس ، دراسات في تأريخ ، ص ١٥ .

[٣] الزيدي ، موسوعة تأريخ ، ٢ / ٤١٠ .

[٤] دراج ، المماليك والفرنج ، ص ١٣٥-١٣٦ .

وفي غضون ذلك وانشغال البعثة في ايجاد حلٍ لايقاف الخطر البرتغالي وصلت الأخبار إلى السلطان الجركسي بان قائد الاسطول البرتغالي فاسكو دي جاما هاجم سفينة تابعة للدولة الجركسية أمام ساحل مالابار وعلى متنها عددٌ كبيرٌ من الحجاج الهنود ومحملةً بمادة البهار [1] ، وبذلك ارسل السلطان قانصوة الغوري مبعوثه تغري بردي الترجمان إلى بلاد الفرنج (الصليبيين) ، وخاصة بعد أن تزايد خطر البرتغاليين وسيطرتهم على السواحل والاستحواذ على أموال التجار [2] ، إلا ان البعثة التي أرسلها السلطان الجركسي ، قد فشلت في مسعاها ، ويتضح ذلك من خلال الاجراءات التي اتخذتها الدولة الجركسية بحق التجار الصليبيين وخاصة البنادقة ، الذين فرض عليهم السلطان شراء مادة البهار بأثمان مرتفعة ، غير ان قائد سفن البنادقة رفض ذلك القرار ، فوجد ان الهروب هو خير وسيلة لسفنه ، فابحرت من ميناء الاسكندرية من دون موافقة السلطات الجركسية ، فحاولت البحرية الجركسية ايقافهم لكن من دون جدوى ، اما سائر تجار البنادقة وقنصلهم فقد القي القبض عليهم ، كما امر السلطان بمصادرة بضائعهم في كل من مصر وبلاد الشام [3] .

بعد أن استنفذ السلطان كل الوسائل لايقاف الزحف البرتغالي تحتم عليه صد ذلك الغزو ، الذي شكل تهديداً مباشراً لكيان دولته ، وحفاظاً على بقائها جهز حملة [4] في سنة (٩١١هـ/١٥٠٥م) بقيادة الامير حسين الكردي ، وبصحبته عددٍ من البنائين والصناع وزهاء خمسين مركباً للابحار من السويس إلى ميناء جدة لانشاء الأبراج اللازمة لصد الهجمات البرتغالية ، وعند وصول الحملة أمر قائدها إنشاء سورٌ وعددٌ من الأبراج حول المدينة مقابل

---

(1) حاطوم ، تأريخ العصر ، ص ٣٣٤ ؛ دراج ، المماليك والفرنج ، ص ١٣٢ .

(2) على ما يبدو ان تلك البعثة التي أرسلها السلطان لم تثمر سوى اطلاق سراح عدد من الاسرى المغاربة بمبلغ يقدر بخمسين الف دينار . ينظر : ابن اياس ، بدائع الزهور ، ٤ / ٩١ ، ١٦٤ .

(3) دراج ، المماليك والفرنج ، ص ١٣٦ .

(4) لقد أشار ابن اياس في كتابه بدائع الزهور ان السلطان قانصوة الغوري قد جَهّزَ ثلاث حملات الاولى ارسلها إلى مكة بسبب التمرد الذي قام به يحيى بن السبع امير الينبع ، والثانية توجهت نحو الكرك لمقاتلة المتمردين من عربان لام (العنزة) ، والثالثة انطلقت إلى الهند لمقاتلة البرتغاليين . للمزيد من التفاصيل عن تلك الحملات ينظر : بدائع الزهور ، ٤ / ٨٢ ، ١٠٦ ، ١١٩ .

ذلك تمكنت البحرية البرتغالية المتكونة من عشرين مركباً الاستيلاء على جزيرة سوقطرة الواقعة عند مدخل البحر الأحمر ، حيث أقاموا أوّلَ محطة تجارية لهم ، ثم عبرت باب المندب متجهة إلى ميناء عدن ومن ثم إلى سواكن لغرض الاتصال بملك الحبشة من اجل الاتفاق معه على تحويل مجرى نهر النيل ، الذين كانت لهم الرغبة أيضاً في القضاء على الدولة الجركسية ، وقد علق ابن اياس على الضرر الذي لحق بالدولة الجركسية من جراء السيطرة البرتغالية على المنطقة التجارية قائلاً : ((**وصاروا يعبثون على مراكب الهند ويقطعون عليهم الطريق في الأماكن المخيفة ويأخذون ما معهم من بضائع حتى عز وجود الشاشات والارز من مصر وغيرها من البلاد**)) [1] ، واثناء تلك التداعيات من الأحداث التي كانت تواجهها الدولة المملوكية وصلت إلى القاهرة بعثة عثمانية بقيادة كمال ، الذي أوضح للسلطان الجركسي قائلاً : ((**بانه لا يكل ولا يمل من الجهاد في الفرنج ليلاً ونهاراً حتى اعيى الفرنج اخره**)) [2] ، فبعد الانتصار البرتغالي على الاسطول المملوكي قامت الملكة هيلانة ملكة الحبشة بالتعاون مع البرتغاليين لتحقيق الهدف الصليبي ، فأرسلت الملكة هيلانة بعثة إلى قائد الاسطول البرتغالي المدعو الفونسو ، والمقيم في ميناء دابل ، فاستقبلهم وهم يؤكدون رغبة ملكتهم بالانضمام إليهم وتوحيد الجهود من أجل الاستيلاء على مصر والحجاز [3] ، واستمراراً لرغباتهم التوسعية ، فقد توجهوا إلى ميناء جدة لغرض التمركز على شاطئ الحجاز ، إلا انهم التقوا بالأسطول المملوكي في ميناء جدة ، مما اضطروا إلى الانسحاب من البحر الأحمر [4] ، فتبعهم الأسطول المملوكي متجهاً إلى سواكن ، ومن ثم إلى شواطئ الهند وبذلك تمكنت القوات البحرية الجركسية من إنزال الهزيمة بالأسطول البرتغالي في موقعة شول ***Chaull*** على الشاطئ الغربي للهند في سنة (٩١٤هـ/١٥٠٨م) ، فاسروا

[1] ابن اياس ، دائع الزهور ، ٤ / ١٠٩ .

[2] ابن اياس ، دائع الزهور ، ٤ / ٨٤ ، ٨٥ ، ١٠٩ .

[3] ابن اياس ، دائع الزهور ، ٤ / ٨٤-٨٥ ، ١٠٩ ؛

Chronicales , The Portuguese , p. ١٥ .

[4] ابن اياس ، دائع الزهور ، ، ٤ / ١٤٢ ؛ الحداد ، مقاومة العرب ، ص ٢٣ ؛ الخربوطلي ، الاسلام في حوض ، ١٦٣ .

منهم سبعة وعشرين رجلاً وارسلوهم إلى السلطان قانصوه الغوري ففرح بذلك الانتصار [١] ، ويعلق ابن اياس علـــى ذلك النصر((**ورجع الأمير حسين تخفق على هامته وعلى سواري أســطوله رايات الظفر واعلان النصر فاقام بميناء ديو** [٢] **عدة شهور حتى انقــضى فــصل الأمطار وأرسل إليه السامري ملك قاليقوط أربعين غراباً [مراكب صغيرة وسريعة الحركة] لتكون في خدمته**)) [٣] .

وعلى الرغم من الخسارة التي تلقتهـا البحريـة البرتغاليـة ، واصــلوا سياســتهم الاستعمارية بالسيطرة على اجزاء من ساحل الهند فعسكروا بقواتهم البحرية هناك من اجــل إخضاع أمراء المسلمين في الهند وإجبارهم على عقد معاهدات تلزمهم باقتصار التجارة على البرتغاليين ، فكان لذلك الإجراء رد فعل قوي من جانب الأمراء الهنود باســتغاثتهم بــسلطان مصر المملوكي ، وتلبيةً لطلبهم أعدت الدولة الجركسية أسطولا ضخماً لمقاتلة البرتغــاليين ، الذين تمكنوا بقيادة قائدهم فرانسيسكوا الميدا نائب ملك البرتغال في الهند من محاصرة حــاكم مدينة كوجين ***Cochin*** ، فضلاً عن انتصاره على الأسطول الجركسي في موقعة ديو فـــي سنة (٩١٥هـ/١٥٠٩م) [٤] وبعد ذلك ترك القائد البرتغالي فرانسيسكو حامية بقيادة فونس دي

---

[١] ابن اياس ، دائع الزهور ، ٤ / ١٤٢ ، ١٤٦ ؛ دراج ، المماليك والفرنج ، ص ١٣٧ ؛
Chronicales , The Portuguese , p. ١٥.

[٢] ديو *Diu* : احد موانئ المحيط الهندي الساحلية المهمة ، وكان سوقاً عالمياً ترد اليه منتجات العالم المختلفة ويوفد اليه تجار الشرق ومن الهند نفسها ، فضلاً عن ذلك كان الميناء يصدر الخيول . ينظــر : عثمــان تجارة المحيط ، ص ٧ ؛
Taussainto , History , p. ١٠٤.

[٣] بدائع الزهور ، ٤ / ١٤٢ .

[٤] ابن أيــاس ، بدائــع الزهــور ، ٤ / ١٥٦ ؛ يحيـــى ، مصر الحديثة ، ٥٨ ؛ شاكر ، التاريخ الإسلامي ، ٧ / ٨٩ ؛ سرهنك ، حقائق الاخبار ، ص ٣٦ ؛ الزيدي ، موسوعة تأريخ ، ٢ / ٤١٠ ؛
Chronicales , The Portuguese , p. ١٥ – ١٦ ; E. B. " Portugal " Vol. ١٨, p. ٢٨٠.

البوكركو [١] ، وبذلك الانتصار تمكن البرتغاليون من فرض حصار شديد على جميع السفن الهندية المتجهة نحو البحر الأحمر ومنعوا الاتصال البحري بين الموانئ الهندية وميناء جدة ، وتعزيزاً لذلك استولوا على القواعد التجارية التي تتحكم في تجارة الشرق ، وذلك ما جعل ملوك الهند [٢] يوفدون رسلهم إلى الدولة الجركسية طالبين المساعدة من السلطان قانصوة الغوري ان يرسل لهم حملة عسكرية إلى بلادهم من أجل إيقاف الخطر البرتغالي الذي اخذ بالتزايد والتوسع [٣] في البلاد [٤] ، إلا أن السلطان الجركسي لم يرسل حملة بل أرسل بعثة بقيادة الطوشي بشير حاملاً كتاب السلطان إلى ملوك الهند ، والذي أوضح فيه ((**بان يكونوا مع السلطان عونه على قتال الفرنج [البرتغاليين] الذين صاروا يتعبثون بسواحل بلاد الهند، وقد كثر منهم الفساد هناك ، وبلغت عدة المراكب التي يعبثون في السواحل نحو من خمسين مركباً ، والأمر إلى الله في ذلك**)) [٥] .

ومن الجدير بالذكر ان عدم إرسال السلطان الجركسي حملة عسكرية واكتفاءه بإرسال بعثة ، انه أراد اخذ الضمانات الكافية من ملوك الهند في التعاون معه لمحاربة البرتغاليين ، وعلى ما يبدو ان تلك المراسلات لم تحقق شيئاً بدليل استمرار القوات البحرية البرتغالية بالتوسع والاستيلاء ، فقد استولوا على ميناء ملقا [٦] ، قرب سنغافورة سنة (٩١٧هـ/١٥١١م) [٧] ، وبعد ذلك تمكنوا من السيطرة على جزر قمران [١] ، وحاصروا مدينة سواكن سنة

[١] *E. B. " Portugal " Vol. ١٨, p. ٢٨٠ .*

[٢] عن العلاقات المملوكية الهندية . ينظر : المشهداني ، العلاقات المصرية ، ص ٢٥ وما بعدها .

[٣] لقد كان لذلك التوسع الاستعماري البرتغالي في المنطقة وقعاً سيء على المستوين الرسمي والشعبي حتى ان قاضي القضاة الشافعي خص موضوع خطبة الجمعة عن الغزو البرتغالي وخطره وسيطرته على سواحل اليمن . ينظر : ابن اياس ، بدائع الزهور ، ٤ / ٣٠٧ –٣٠٨ .

[٤] ابن اياس ، بدائع الزهور ، ٤ / ١٨٢–١٨٣ .

[٥] ابن اياس ، بدائع الزهور ، ٤ / ١٨٥ .

[٦] ميناء ملقا : يقع في جنوب شرق اسيا ، وتتجمع فيه منتجات الصين والهند وجزر الهند الشرقية . ينظر : دراج ، المماليك والفرنج ، ص ١٣٨ .

[٧] الزيدي ، موسوعة تأريخ ، ٢ / ٤١٠ ؛ سعيد ، البحرية في عصر ، ص ١٨٤ ؛ *E. B. " Portugal " Vol. ١٨, p. ٢٨٠ .*

(٩١٩هـ/١٥١٣م) [٢] ، الأمر الذي حفز السلطان قانصوة الغوري بإرسال الأمير حسين والامير خشقدم شاد الشوان إلى جدة من اجل التأكد من حقيقة ما وصل إليه الفرنج البرتغاليين من سيطرة وتوسع ومحاصرة مدن [٣] .

لقد اصبح موقف السلطنة الجركسية حرجاً ، فالغزو البرتغالي اخذ يتوسع ويفرض سيطرته على المراكز التجارية المهمة هذا من جانب ، ومن جانب آخر موقف البندقية السلبي التي رفضت مبدأ التعاون مع الدولة الجركسية ضد الغزو البرتغالي ، علماً انها كانت تشكل دعماً سياسياً واقتصادياً لدولة المماليك ، لذلك لم يبق خيار أمام السلطان الغوري غير طلب المساعدة من الدولة العثمانية بناءً على معاهدة الصلح بينهما والتي تم عقدها سنة (٨٩٨هـ/١٤٩٢م) فاستجاب السلطان العثماني بايزيد لذلك الطلب ، والذي ردَّ بدوره بان على العثمانيين مسؤولية مساعدة الجراكسة وخاصة الدفاع عن الأماكن الإسلامية المقدسة [٤] ، فأرسل ثلاثين مركباً وثلاثمئة مدفع ومئة وخمسين شراعاً وثلاثين ألف سهماً والفي مجذاف وبارود يقدر بحوالي (٤٠) قنطاراً ونحاس وحديد وغير ذلك مما تحتاجه المراكب ، وقد وصلت تلك الإمدادات إلى بولاق ومن بعد ذلك نقلت إلى القلعة [٥] ، ومقابل ذلك أرسل السلطان الجركسي مبعوثه مالا علي يونس العادلي إلى الدولة العثمانية ليشتري ما تحتاجه دولته من اخشاب وحديد ، إلا أن السلطان العثماني رفض اخذ المال ، فجهزه مرة ثانية بناءاً على طلب سلطان دولته [٦] وعلى الرغم من عدم وصول تلك الإمدادات وما نتج عن موقعة

---

[١] قمران : جزيرة في البحر الأحمر تقع قبالة زبيد في اليمن ، وتعد محطة بحرية مهمة بين ميناء عدن وجدة . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ٤ / ٣٨٧ .

[٢] ابن اياس ، بدائع الزهور ، ٤ / ٣٠٧ ، ٣٣١ .

[٣] ابن اياس ، بدائع الزهور ، ٤ / ٣٠٨ .

[٤] راقد ، الغزو العثماني ، ص ١٢٣ ؛ فهمي ، طرق التجارة ، ص ٣٠ ؛ *Ayalon , Gunmponder , p. ٥١ .*

[٥] ابن اياس ، بدائع الزهور ، ٤ / ٢٠١ .

[٦] ابن اياس ، بدائع الزهور ، ٤ / ٢٠١ ؛ *Ayalon , Gunmponder , p. ٥١ .*

ديو من خسارة ، إلا انها لم تضعف من عزيمة السلطان الغوري بل صمم على إرسال حملة ثانية للانتقام من البرتغاليين ، بالرغم مما كانت تعانيه دولته من أخطار خارجية متمثلة بقراصنة فرسان الاسبتارية ، لذلك جهز أسطولاً مكوناً من اثنين وعشرين مركباً ، وانفق الكثير من المال على الحملة يقدر بحوالي اربعمائة ألف دينار ، فضلاً عن حضوره أثناء تحرك الحملة من البحر الأحمر فبعد وصولها إلى ميناء جدة انسحب الأسطول البرتغالي إلى شواطئ الهند [1] ، وتعزيزاً لتلك الحملة طلب قائد الحملة الجركسية الأمير حسين الكردي قوة اضافية من السلطان قانصوة الغوري قائلاً له : **((وان الفرنج قد زاد تعبثهم بسواحل الهند وملكوا كمران من ضياع جهات الهند ... إرسال تجريدة [حملة] بسرعة قبل ان تملك الفرنج سواحل الهند وربما يخاف على جدة من امر الفرنج))** [2] ، وبناءاً على ذلك الطلب جهز السلطان في سنة (٩٢٠هـ/١٥١٤م) حملة بقيادة سليمان العثماني ، وتعد هذه الحملة هي الاخيرة ، وبعد سنة من تجهيزها تحركت باتجاه الشواطئ الهندية تمكنت من الوصول إلى كمران ومقاتلة البرتغاليين [3] ، وعلى الرغم من قوتها إلا انها لم تحقق نصراً حاسماً على البحرية البرتغالية ، وذلك يعود أولاً : إلى قوة الأسطول البرتغالي المجهز من حيث العدد والعدة من جهة ، وثانياً : بعد الأسطول المملوكي عن وصول الإمدادات إليه من جهة اخرى ، لكنها استطاعت ابعاد خطرهم عن البحر الأحمر ، ومن ثم عادت الحملة إلى ميناء جدة ، نتيجة لما حققته الحملة من ابعاد الخطر البرتغالي عن مياه البحر الأحمر ، وإعادة السيطرة على ميناء عدن ، فذلك النجاح الذي تم احرازه لم يدم طويلاً بسبب حصول خلاف بين قائدي الحملة ، والاهم من ذلك ظهور الخطر العثماني الذي اخذ يهدد الدولة الجركسية وانتصارهم على الجيش المملوكي [4] في معركة مرج دابق [1] ، ونتيجة لتلك الأحداث التي شغلت الدولة

---

[1] ابن اياس ، بدائع الزهور ، ٤ / ٣٨١ .

[2] ابن اياس ، بدائع الزهور ، ٤ / ٣٨٣ .

[3] ابن اياس ، بدائع الزهور ، ٤ / ٣٨١-٣٨٣ ؛ سعيد ، البحرية في عصر ، ص ١٨٤ ؛ *Chronicales , The Portuguese , p.* ١٦.

[4] ابن اياس ، بدائع الزهور ، ٤ / ٢٠٧-٢٠٨ ؛ راقد ، الغزو العثماني ، ص ١٢٦ ؛ سعيد ، البحرية في عصر ، ص ١٨٥ .

الجركسية ، استغلت البحرية الرتغالية الفرصة للقضاء على البحرية الجركسية المتواجدة في ميناء جدة ، فتصدت لهم القوة الجركسية سنة (٩٢٢هـ/١٥١٦م) فتمكنت من إيقاف التهديد البرتغالي وابعاد خطرهم للمرة الثانية عن البحر الأحمر عائدين إلى بلاد الهند ، وبذلك أصبحت مياه البحر الأحمر تحت السيادة المملوكية إلى ان سيطر العثمانيون على مصر

التجارية من ذلك الخطر ، لكنها فشلت في القضاء على التفوق البحري البرتغالي [٢] .

وقد ترتب على الصراع الجركسي البرتغالي في مياه المحيط الهندي ، ضعف النشاط التجاري في الموانئ المصرية بسبب توقف المراكب التجارية التي تنقل منتجات الشرق إلى مصر ، وهذا ما ادى بدوره إلى توجه تجار الصليبيين من اسواق الدولة الجركسية في مصر وبلاد الشام إلى الأسواق الأوربية ، ويذكر ابن اياس عن الازمة المالية التي حلت بمصر سنة (٩٢٠هـ/١٥١٤م) قائلاً : ((**وبندر جدة خراب بسبب تعبث الفرنج على التجار في بحر الهند ، فلم تدخل المراكب بالبضائع إلى بندر جدة نحو من ست سنين**)) [٣] ، ويذكر أيضاً بمناسبة زيارة السلطان الغوري ميناء الاسكندرية في السنة ذاتها ((**لم يكن بثغر الاسكندرية يومئذ من اعيان التجار لامن المسلمين والفرنج ، وكانت المدينة في غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجور القُباض [المسؤولين عن الضرائب] ، فانهم صاروا يأخذون من التجار العُشر عشرة أمثال ، فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول إلى الثغر ، فتلاشى امر المدينة وآل امرها إلى الخراب**)) [٤] .

---

[١] مرج دابق : المرج المكان الواسع فيه نبات كثيف ، ودابق : قرية قرب حلب بينهما اربعة فراسخ . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ٢ / ٤١٦-٤١٧ ، ٥ / ١٠٠ .

[٢] سعيد ، البحرية في عصر ، ص ١٨٦-١٨٧ ؛ الزيدي ، موسوعة تأريخ ، ٢ / ٤١٠ .

[٣] بدائع الزهور ، ٤ / ٣٥٩ .

[٤] بدائع الزهور ، ٤ / ٤٢٤ .

وهكذا كانت الاقدار اقوى من عزيمة السلطان قانصوة الغوري الذي كان أمله تحقيق الانتصار على البرتغاليين ، الذين نجحوا في حرمان الدولة الجركسية من مصدر ثرائها وقوتها الاقتصادية ، وهذا ما أدى إلى انهيارها تدريجياً وصولاً إلى سقوطها .

ثانياً : الدولة العثمانية وسياستها التوسعية

تعد الدولة العثمانية من القوى السياسية المهمة التي قامت في منطقة الشرق ، بعد أن هاجرت من اواسط آسيا قبيل بداية القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي من جراء الضغط المغولي متجهه غرباً حتى استقرت بآسيا الصغرى [١] ، إلا ان انهيار سلطنة سلاجقة الروم بقونية سنة (٧٠٧هـ/١٣٠٧م) اتاحت لهم الفرصة بالتوسع سريعاً على حساب الامارات والقبائل التركمانية من جهة والدولة البيزنطية والاسلامية من جهة اخرى ، واستمرت في تقدمها وتوسعها من دون الاصطدام بقوى اخرى حتى نهاية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي [٢] ، وفي بداية القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي تعرضت الدولة العثمانية لمواجهات من جانب المغول بقيادة تيمورلنك عندما اجتاح معظم آسيا ، وتمكن من إنزال هزيمة ساحقة بالجيش العثماني في موقعة انقرة سنة (٨٠٥هـ/١٤٠٢) التي تم اسر السلطان بايزيد فيها [٣] ، علماً ان منطقة الشرق تقاسمتها ثلاث قوى رئيسة تمثلت بالصفويين والعثمانيين والمماليك [٤] .

---

[١] الصلابي ، الدولة العثمانية ، ص ٤٢

[٢] الزهيري ، العثمانيون في السياسة ، ص ٩-١٢ .

[٣] المقريزي ، السلوك ، ج٣ / ق٣ / ١٠٩١ ؛ ابن عرب شاه ، عجائب المقدور ، ص ١٢٣-١٣٢ ؛ الصيرفي ، نزهة النفوس ، ٢ / ١٤٩ ؛

Lane – Pool , Egypt , p. ٦٦.

[٤] لقد حكمت الدولة الصفوية القسم الشرقي من الاناضول والعراق وايران ، اما الدولة العثمانية ، فسيطرت على قسماً من أوربا والقسم الاكبر من الاناضول في اسيا ، اما دولة المماليك الجركسة فكانت تحكم مصر وبلاد الشام والحجاز . ينظر : الحصري ، البلاد العربية ، ص ٣٨ ؛ يحيى ، مصر الحديثة ، ص ٥٩ .

فقد كان برنامج الدولة العثمانية هو القضاء على الدولة الصفوية أولاً [1] ، وضم الدولة الجركسية ثانياً ، ومقاتلة البرتغاليين ثالثاً ، وبالفعل تمكنت القوات العثمانية من تحقيق هدفها الأول سنة (٩٢٠هـ/١٥١٤م) بانتصارها على القوات الصفوية بقيادة اسماعيل الصفوي في موقعة جالديران [2] ، اما الهدف الثاني ، وهو ضم الدولة الجركسية ، على الرغم من انه كان هناك علاقات سياسية قائمة منذ بداية قيام الدولة الجركسية مع العثمانيين، وتحديداً في القرنين الثامن والتاسع الهجريين / الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ، وكانت صفة تلك العلاقة ودية نوعاً (ما) خاصة أثناء عهد السلطان العثماني مراد الأول (٧٦١-٧٩١هـ/١٣٦٠-١٣٨٩م) حيث قام بإرسال وفداً قبيل انتهاء حكمه بسنة إلى السلطان برقوق [3] ، محملاً بالهدايا ، وكذلك ينبهه من التحركات التيمورية المنطلقة من تبريز [4]

---

[1] الدولة الصفوية : يرجع نسب الصفويين إلى الشيخ صفي الدين الاردبيلي (٦٥٠-٧٣٥هـ/ ١٢٥٢-١٣٣٤م) الجد الاكبر للشاه اسماعيل الصفوي ، مؤسس الدولة الصفوية . للمزيد من التفاصيل عن تكوين الدولة ونشأتها . ينظر : الصلابي ، الدولة العثمانية ، ص ١٩٠-١٩٩ ؛ عماد الجواهري ، صراع القوة السياسية في المشرق العربي من الغزو المغولي حتى الحكم العثماني (مطابع التعليم العالي – الموصل : ١٩٩٠م) ، ص ٤٩ ؛ عمر ، تأريخ المشرق ، ص ٦٦-٦٧ .

[2] لقد نتج عن تلك الموقعة امور كثيرة منها :

أولاً : ضم شمالي العراق وديار بكر للدولة العثمانية .

ثانياً : تمكنت الدولة العثمانية من تامين حدودها الشرقية .

ثالثاً : ايقنت الدولة العثمانية بضرورة القضاء على الدولة الجركسية .

رابعاً : سيطرة البرتغاليون على البحار الشرقية ، وفرضوا حصاراً كاملاً على الطرق التجارية بين الشرق والغرب . ينظر : الصلابي ، الدولة العثمانية ، ص ١٩٠-١٩٨ .

[3] لقد حصل تمرد وعصيان ضد السلطان برقوق حيث خرج نائب ملطية الأمير تمربغا الافضلي المعروف بمنطاش ونائب حلب الأمير يلبغا الناصري زعيم المماليك الأتراك اليلبغاوية وانظم اليهما سائر نواب الشام وامير امارة (ذو الغادر) التركمانية وامير عربان بادية الشام ، لذلك أرسل السطان حملتين عسكريتين من مصر ، إلا انهما فشلتا في القضاء على تلك التمردات . للمزيد ينظر : المقريزي ، السلوك ، ج٣ / ق٢ / ٥٩٣ – ٥٩٤ ، ٦٠٠ ؛ الصيرفي ، نزهة النفوس ، ١ / ١٨٨-١٨٩ ، ١٩٢ .

[4] تبريز : اشهر مدن اذربيجان ذات اسوار وقلاع محكمة ، وفي وسطها عدة انهار جارية وبساتين محيطة بها . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ٢ / ١٣ .

نحو الغرب مما شكل خطراً على كيان الدولتين المملوكية والعثمانية [١] ، وقد استقبل الوفد بالتكريم والحفاوة من لدن السلطان الجركسي ، واظهر استعداده للتعاون والتفاوض معهم لصد الخطر التيموري ، إلا انه كان متحفظاً من السياسة التوسعية للدولة العثمانية التي اخذت تهدد حدود دولته ، وهذا ما توضح لنا من سياق قوله ((**لا اخاف اللنك [تيمور لنك] فان كل احد يساعدني عليه ، وانما اخاف من ابن عثمان**)) [٢] ، ونستشف من وراء كلام السلطان برقوق انه يستطيع بسهولة جمع كل القوة السياسية الإسلامية لمقاتلة التيموريين جرياً على ما اعتاد عليه المماليك ضد أي تحرك مغولي قادم من الشرق ، إلا ان الدولة العثمانية اختلف الأمر معها لكونها بعيدة نوعاً (ما) هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فقد اتخذ الأمراء العثمانيين مبدأ الجهاد في سبيل الله لمحاربة الافرنج منهجاً لهم ، وهذا ما ينسجم مع مبادئ السياسة المملوكية التي تنص على استمرار مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ومن هنا جاءت مخاوف السلطان برقوق [٣] .

ولم تلبث الأحداث ان اثبتت مخاوف السلطان برقوق ، إذ هجم بايزيد الأول (٧٩١-٨٠٥هـ / ١٣٨٩-١٤٠٢م) على احدى المناطق التابعة للدولة الجركسية وهي امارة بني قرمان في سنة (٧٩٤هـ / ١٣٩١م) وتم القبض على صاحب المدينة [٤] ، إلا ان العلاقة بين الجراكسة والعثمانيين عادت إلى طابعها الودي بحكم اقتراب الخطر التيموري من المنطقة لذلك سارع السلطان العثماني إلى عقد اتفاق جديد مع الدولة الجركسية لصد ذلك الغزو [٥] ، ورداً على ذلك أرسل السلطان برقوق في سنة (٧٩٧هـ / ١٤٩٤م) بعثة إلى السلطان العثماني بايزيد لتوثيق اواصر العلاقات بينهما فرحب السلطان بالبعثة ثم قامت البعثة بتقديم التشريف السلطاني له متمثلاً بالسيف ورد السلطان على ذلك التقليد قائلاً بانه : ((**مملوك السلطان ومهما رسم فعلى الرأس والعين**)) [٦] ، فضلاً عن ذلك فان البعثة كانت بمثابة حل

---

[١] المقريزي ، السلوك ، ج٣ / ق٢ / ٥٧٤ ؛ ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ١ / ٣٤٩ ؛ الصيرفي ، نزهة النفوس ، ١ / ١٦٧ .

[٢] ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ١ / ٤٩٢ ؛ ينظر : السخاوي ، الضوء اللامع ، ١١ / ١٤٨ .

[٣] الزهيري ، العثمانيون في السياسة ، ص ٣٤ .

[٤] ابن الفرات ، تأريخ ابن الفرات ، ج٩ / ق٢ / ٣٣٩ ؛ ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ١ / ٤٥٣ .

[٥] المقريزي ، السلوك ، ج٣ / ق٢ / ٧٩١ .

[٦] ابن الفرات ، تأريخ ابن الفرات ، ج٩ / ق ٢ / ٣٣٩ .

لمسألة الخلاف الحدودي بين الجانبين ، لذا فقد اختار العثمانيون بنو قرمان الاقرب جغرافيــاً لهم وقبل المماليك بعودة مملكة الروم وضعها السابق فهي الاقرب جغرافياً لهــم أيــضاً [1] . ومما هو معلوم ان الدولة العثمانية كانت لديها تصوراً واضحاً في ان مصر تعد مركز الخلافة الإسلامية فعليها اذاً ان تكون دائمة الاتصال بمصر ، لذلك بقيت على ذلك الحال عن طريــق إرسال البعثات اليها ، وبالفعل أرسل السلطان العثماني بعثة لاخبــار الــسلطان الجركــسي بانتصار قواته على القوات الأوربية في موقعة نيقوبوليس سنة (٧٩٩هــ / ١٣٩٦م) [2] .

وبعد وفاة السلطان برقوق ، توترت العلاقات بينهما لان السلطان بايزيد الأول استغل حالة الضعف والاضطراب السياسي الذي حل بالدولة المملوكية في عهد الــسلطان الناصــر فرج، لذا تحركت القوات العثمانية بحملة تقدر بعشرين ألف مقاتل نحو ملطيــة [3] . وبعــدها دخلت امارة (ذو الغادر) التركمانية استعداداً للتوجه نحو بلاد الشام [4] .

وهذا ما ثار قلق الدولة الجركسية من تطلعات العثمانيين بالتوســع فــي اراضــيهم ، وعلى ذلك عقدوا اجتماعاً على الفور في القصر السلطاني وبحضور الأمراء والقضاة ، وتــم الاتفاق على اعلان الحرب على بني عثمان ، فسارعوا بإرسال مرسوم سلطاني مملوكي بيــد الأمير سودن الطيار يقضي فيه تجهيز العساكر الشامية لقتال العثمانيين [5] .

وفي خضم تلك الأحداث والعلاقات المتوترة بين الجانبين المملوكي والعثمــاني ادرك السلطان العثماني خطر تحركاته العدائية ضد الجراكسة ، فاراد تدراك الموقف فقام على الفور بأرسل بعثة إلى السلطان الجركسي يطلب منه تصفية الخلافات بينهما وتوحيد الجهود من اجل

---

[1] كي لسترانج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة : بشير فرنسيس واخر (مطبعة الرابطة – بغداد : ١٩٥٤م) ، ص ١٦ .

[2] نيقوبوليس : مدينة تقع شمال البلقان ، وفيها حدثت معركة بين القوات العثمانية والقوات الصليبية ، فتمكن العثمانيون من احراز النصر ، فعلق السلطان بايزيد ازاء ذلك النصر ان يستفتح ايطاليا ويطعــم حــصانه الشعير في مذبح القديس بطرس بروما . ينظر : الصلابي ، الدولة العثمانية ، ص ٦٨ .

[3] ملطيــة : بلدة من بــلاد الروم تقع بمحــاذات بــلاد الشــام . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلــدان ، ٥ / ١٩٢-١٩٣ .

[4] المقريزي ، السلوك ، ج٣ / ق ٣ / ٩٦٥-٩٧١ ؛ ابن حجر العسقلاني ، انباء الغمر ، ٢ / ٥٥-٥٦ .

[5] المقريزي ، السلوك : ج٣ / ق٣ / ١٠٣١ .

التخلص من خطر التيموريين ، لتصبح الأراضي العربية الإسلامية اكثر امناً واستقراراً [١] ، إلا ان ذلك الطلب العثماني لم ينفذ ، ولم يلق قبولاً عند الدولة الجركسية ، فكان الرد على لسان احد امرائهم ((**ذاك الان صار صاحبنا ، وعندما مات استاذنا الملك الظاهر برقوق ، مشى على بلادنا واخذ ملطية من عملنا فليس هو لنا بصاحب ، يقاتل هو عن بلاده ، ونقاتل نحن عن بلادنا ورعيتنا**)) [٢] .

وعلى ما يبدو ان عدم تصفية الخلافات وحلها دبلوماسياً وكون الدولة الجركسية عاشت اثنتي عشرة سنة من (٨٠٣هـ/١٤٠٠م) وحتى سنة (٨١٥هـ/١٤١٢م) في فوضى سياسية وصراعات مستمرة على السلطة ، كل ذلك انهكها سياسياً وعسكرياً مما اضعف سيطرتها على مناطق نفوذها المباشرة وغير المباشرة في الاناضول ، مقابل ذلك أيضاً فقد تعرضت الدولة العثمانية إلى عدة هجمات تيمورية اثرت على سياستها التوسعية [٣] وقد منحت تلك الاضطرابات والاختلافات بين المماليك والعثمانيين الفرصة للتيموريين بان يتقوى نفوذهم ليصل إلى حد تهديد كيان الدولتين ، وبالفعل قاموا بانزال هزيمة ذريعة بالقوات العسكرية المملوكية قرب دمشق وذلك في سنة (٨٠٣هـ/١٤٠٠م) ، وبعد سنتين من ذلك الهجوم تمكنوا من إنزال هزيمة اخرى بالدولة العثمانية واحراز نصراً عليها [٤] .

وبعد تلك الأحداث انقلبت الاوضاع وشهدت العلاقات المملوكية العثمانية تطوراً كبيراً نحو السلم والتقارب ، إذ استعادت الدولتان عافيتهما بعد ما حل بهما ، واهم ما ميز تلك الفترة انه كان هناك توازن بين القوتين المملوكية والعثمانية ، وتشابه الصفات الشخصية لحاكميهما من حيث الحزم والشجاعة والرغبة في التوسع ، فعند تولي السلطان (الشيخ المؤيد) السلطنة بمصر ، لذا بدأت كل من الدولتين في السعي لتحقيق اهدافهما ، واصبحت منطقة الاناضول هدفاً ستراتيجياً لهما ، وذلك لتثبيت نفوذهم السياسي على الامارات التركمانية ، والتي كانت تعد حماية للدولة الجركسية سياسياً وعسكرياً واقتصادياً [٥] ، وعلى هذا فان الخطر التيموري كان سبباً في التقارب الودي في العلاقات بين الجراكسة والعثمانيين ، ومما هو معلوم ان

(١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٢ / ١٨٠ .

(٢) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٢ / ٢١٦-٢١٧ .

(٣) للمزيد من التفاصيل ينظر : الزهيري ، العثمانيون في السياسة ، ص ٥٦ وما بعدها .

(٤) المقريزي ، السلوك ، ج٣ / ق٣ / ١٠٣١-١٠٥١ ؛ ابن عرب شاه ، عجائب المقدور ، ص ٨٥-٩٠ .

(٥) المقريزي ، السلوك ، ج٣ / ق ٣ / ٥٨٥ ؛ وينظر : الزهيري ، العثمانيون في السياسة ، ص ٢٥ .

الدولة الجركسية كانت تعاني تدهوراً اقتصادياً منعها من بناء اسطول بحري يحمي دولتها من الهجمات الخارجية عليها ، لذا التجأت إلى الدولة العثمانية لما لها من ثقل سياسي وعسكري في المنطقة ، وبهذا توطدت العلاقات بينهما وبالاخص في عهد السلطان العثماني محمد الأول وتحديداً في سنة (٨١٦هـ/١٤١٣م) الذي قام بدوره بتقديم المساعدات المتضمنة سفناً محملة بالاخشاب والحديد والسلاح ومعدات اخرى ، وفي السنة ذاتها أرسل السلطان العثماني بعثة يراسها الطنبغا وجانبك الصوفي تعزيزاً للعلاقات بينهما [١] .

وتواصلاً لتلك العلاقات أرسل السلطان العثماني مراد الثاني بعثة محملة بهدايا إلى السلطان الجركسي الاشرف برسباي تهنئة بتوليه عرش السلطنة المملوكية ، وبالمقابل قدم السلطان الجركسي هدية للسلطان العثماني في سنة (٨٢٧هـ/١٤٢٣م) واستمراراً للسياسة الودية بين الدولتين أرسل السلطان العثماني مراد الثاني بعثة إلى السلطان الجركسي برسباي يبلغة مبشراً له بفتح قلعة كوكر جنيلك على نهر الدانوب سنة (٨٣١هـ/١٤٢٧م) [٢] .

وعلى ما يبدو ان التقارب الودي في العلاقات المملوكية العثمانية في عهد السلطان برسباي ، يعود إلى انشغال الدولة الجركسية بخطرين مهمين ، الأول : الصليبيين ، والثاني : التيموريين ، ومن هنا فقد حتم الظرف السياسي على المماليك ان ينظروا إلى العثمانيين كقوة صديقة أو حليفة لهم في هذه المرحلة هذا من جانب ، ومن جانب آخر جاء ذلك الانسجام والتوافق في العلاقات من توجه كلا الدولتين نحو اهداف تنسجم مع الاهداف السياسية الأخرى، أو لا تتعارض معها ، ويمكن ان نلمس ذلك من خلال ما ياتي :

أولاً : توجه الدولتين بفتوحتهما نحو بلاد الافرنج (الصليبيين) وبالتالي اتسمت جهودهما بمعاني الجهاد واعلان كلمة الاسلام ، فالمماليك كانوا يقاتلون في قبرص وجزيرة رودس والعثمانيين يجاهدون في أوربا .

ثانياً : كانت الاناضول ساحة للتنافس والصراع بينهما ، لذلك لم تشهد تلك الفترة (٨٢٥-٨٣٨هـ/١٤٢١-١٤٣٤م) أي احداث سياسية بين الدولتين [٣] ، وبهذا كانت العلاقات في غاية الودية والانسجام طيلة ثلاث عشرة سنة .

---

[١] دراج ، المماليك والفرنج ، ص ١٤٨ ؛ الزهيري ، العثمانيون في السياسة ، ص ٢٠٩

[٢] الحصري ، البلاد العربية ، ص ٢٠ ؛

E. B. " Murad II " Vol. ٢٢, p. ٥٩٢.

[٣] الزهيري ، العثمانيون في السياسة ، ص ٧٦-٧٧ .

وتمضي الاحداث وتستمر العلاقات الودية بين الدولتين وصولاً إلى عهدي الظاهر جقمق والاشرف اينال اللذان سارا على نهج سياسة السلطان برسباي الودية ، وبهذا أصبحت العلاقات اكثر وثوقاً وتعززت بزواج السلطان جقمق من الاميرة العثمانية شاه زادة [١] ، وهكذا بقيت العلاقات محافظة على هدوئها واستقرارها تتوجها الهدايا والمراسلات [٢] ، عن طريق البعثات . وفي غضون ذلك احتفلت القاهرة بفتح القسطنطينية [٣] ، وقد علق ابن تغري بردي على ذلك الحدث قائلاً : ((**فَسُرَّ السلطان والناس قاطبة بهذا الفتح العظيم سروراً زائداً ودقت البشائر لذلك ، وزينت القاهرة بسبب ذلك اياماً**)) [٤] .

إلا ان تلك العلاقات لم تدم طويلاً على هذا المنوال فبعد سنة (٨٦٥هـ/١٤٦٠م) اصاب العلاقات الجركسية العثمانية فتوراً وتوتراً من جراء عوامل مستجدة منها التغيير المفاجئ الذي طرأ على شخصية السلطان محمد الفاتح الذي اصابه حب العظمة ، واشعره بانه قادر على كل شيء واستصغاره لدولة المماليك الجراكسة ، وكذلك حدث فتح القسطنطينية والتوغل في البلقان في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي الذي رفع من معنويات الدولة العثمانية ، وجعلها دولة عظمى ووجه انظارها نحو الشرق ، وخاصة في اسيا الصغرى من اجل السيطرة على الامارات التركمانية التي كانت تشكل خطاً دفاعياً

---

(١) ارملة السلطان برسباي ، وقد انجبت من السلطان جقمق ولداً اسمه احمد توفي في سنة (٨٥٦هـ/١٤٠٢م) . ينظر : ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٥ / ٤٦٤ .

(٢) من الهدايا التي ارسلها السلطان العثماني خمس من الجواري وكمية كبيرة من الحرير وخمسين اسيراً ، وذلك على اثر انتصاره على جيش لادسلاس *Ladislas* ملك المجر وهنيادي *Hunyadi* نائب ترانسلفانيا في موقعة فارنا سنة (٨٤٨هـ/١٤٤٤م) وقد قصد السلطان العثماني من إرسال الاسرى إلى الدولة الجركسية اظهار ما كان يقوم به العثمانيون من خدمات للاسلام . ينظر : ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٥ /٣٩٥ .

(٣) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٥ / ٣٩٥ ؛ حسن ، مصر في العصور ، ص ٣٣٩ ؛ عاشور ، مصر والشام ، ص ٣٦٦-٣٦٧ ؛ الزهيري ، العثمانيون في السياسة ، ص ٨٩-٩٠ .

(٤) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٦ / ٧١ .

من جهة شمال الشام والعراق [1] ، وذلك ما اثار قلق الدولة المملوكية ، وخاصة حينما بدأت الدولة العثمانية بالتدخل في شؤون الامارات التركمانية التابعة سياسياً للدولة المملوكية ، فقد كانت تلك الامارات تعيش في حالة من الاضطراب السياسي نتيجة للتنازع على الحكم ، وذلك ما جعل الدولة العثمانية تؤيد وتساعد بعض من الاطراف المتنازعة على الحكم على حساب الامارة الأخرى ، وبالمقابل تدخلت الدولة الجركسية لمساعدة الطرف الاخر الذي كان يرغب في توليته على الامارات التركمانية ، وهذا ما ولد حالة من التصادم غير المباشر بين الجراكسة والعثمانيين [2] ، عندها شعر المماليك بالخطر العثماني المتزايد من جراء سياستهم التوسعية ، ففي عهد السلطان قايتباي اخذت العلاقات تزداد توتراً بين البلدين لاسباب منها : قضية الاستيلاء على الهدايا المرسلة من ملك الهند إلى السلطان بايزيد الثاني من جانب نائب جدة هذا ما اضفى على العلاقات جواً من التوتر والاضطراب بينهما ، وكذلك لجوء الأمير جم [3] إلى الدولة الجركسية وترحيب السلطان المملوكي به [4] ، فضلاً عن ذلك سيطرة الدولة المملوكية على مدينة (اطنة) [5] التي كانت تحت السيادة العثمانية [1] ، وكل تلك

---

[1] شاكر ، التاريخ الإسلامي ، ٧ / ٩٠ ؛ ماجد ، علاقات بين الشرق ، ص ٢٤٠ ؛ سليمان البستاني ، عبر وذكرى أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده ، تحقيق : خالد زياد (دار الطليعة – بيروت : ١٩٧٨م) ، ص ٨ ؛ حمادة ، الوثائق السياسية ، ص ٧٨ ؛ الصلابي ، الدولة العثمانية ، ص ٩٠-١٢٠ ؛ عاشور ، مصر والشام ، ص ٢٠٦ ؛

Lane – Pool , Egypt , p. ٣٤٧.

[2] *Lane – Pool , Egypt , p. ٣٤٧.*

[3] عند وفاة محمد الفاتح كان ولداه بايزيد وجم خارج اسطنبول ، فكان الأول حاكماً في اماسيا ، والثاني في قونية حاكماً على ولاية قرمان ، وقد قام حاكم قرمان بابلاغ الابن الاكبر بايزيد بالذهاب إلى اسطنبول بعد وفاة والده ، وفي الوقت ذاته أرسل إلى الأمير جم يطلب منه الذهاب أيضاً . للمزيد من التفاصيل ينظر : الزهيري ، العثمانيون في السياسة ، ص ١٤٢-١٤٦ ؛

E. B. " Bayezid II " Vol. ٢٢, p. ٥٩٣.

[4] ابن اياس ، بدائع الزهور ، ٥ / ٢١٥ ؛ يحيى ، مصر الحديثة ، ص ٦٥ ؛ شاكر ، التاريخ الإسلامي ، ٧ / ٩٠ ؛

E. B. " Egypt " , Vol. ٨, p. ٦٣.

[5] اطنة : أو ادنة : مدينة بالشام بينها وبين المصيصة اثنا عشر ميلاً . ينظر : الحميري ، الروض المعطار ، ص ٢٠

الاسباب دعت الدولة العثمانية إلى مد يد العون للامير علاء صاحب امارة ذو الغادر الذي خرج على السلطنة المملوكية سنة (٨٨٨هـ/١٤٨٣م) وتمثل ذلك بارسالها الجنود من اجل الهجوم على المدينة التي سيطرت عليها القوات المملوكية ، وبالمقابل سيطرت الدولة العثمانية على بعض القلاع والمدن التابعة للدولة الجركسية وهذا ما شعر به السلطان قايتباي بتأزم الاوضاع ، لذلك حاول التخفيف من وطأة الأمر وذلك بطلبه عقد الصلح مع الدولة العثمانية ، بارساله مبهوث إلى السلطان العثماني فرد قائلاً ((**أنا ما أخذت هذه القلاع إلا بالسيف وما اردهم إلا بالسيف ، وانه ما هو راجع عن التوجه إلى حلب والشام وحدثت نفسه باخذ مصر**)) [٢] ، إلا ان الدولة العثمانية لم تصغِ لطلب السلطان الجركسي ، ظناً منها اضعاف الدولة المملوكية عسكرياً واقتصادياً باتباعها سياسة المد والجزر والهدف في النهاية هو القضاء على الدولة الجركسية [٣] .

بعد وفاة السلطان قايتباي وتولي ابنه الناصر محمد (٩٠١-٩٠٤ هـ/١٤٩٥-١٤٩٨م) ، اتسمت العلاقات الجركسية العثمانية بالهدوء نسبياً واصبحت اكثر استقراراً من ذي قبل والتي استمرارت إلى سنة (٩١٨هـ/١٥١٢م) في عهد السلطان العثماني سليم الأول [٤] ، إلا ان تولي السلطان سليم كان امراً مخيفاً للدولة الجركسية ، وذلك لما عرف عنه من قوة وصلابة وبطش ، فكان يلقب بـ (ياوز) أي الرهيب [٥] ، إذ احدث بمجئه تغييراً جذرياً في السياسة العثمانية بعد ما وصلت إليه من التوسع ، فما المطلوب منه ان يفعل . هل

---

[١] مبارك ، الخطط التوفيقية ، ١ / ١٢٦ ؛ سليم ، عصر سلاطين ، ١ / ٥٤ ؛ الاشرف قانصوة الغوري (دار مصر - مصر : د / ت) ، ص ٣١ .

[٢] ابن اياس ، بدائع الزهور ، ٤ / ٤٨٣ .

[٣] عاشور ، مصر والشام ، ص ٣٦٨-٣٦٩ ؛ العصر المملوكي ، ص ١٨٨ ؛ الزهيري ، العثمانيون في السياسة ، ص ١٥٢ .

[٤] لقد كان السلطان الجديد يشبه إلى حد كبير جده السلطان محمد الفاتح ، الذي كان مغرماً مثله بقراءة سيرة القادة كالاسكندر المقدوني ويوليوس قيصر ، ولذلك سار على نهج جده ، ومصمماً على مواصلة اهدافه في بناء امبراطورية عالمية . ينظر : الزهيري ، العثمانيون في السياسة ، ص ٢١٤-٢١٥ .

[٥] كراموز ، مادة " سليم الأول " ، ١٢ / ١٢١-١٣١ .

سيكتفي بهذا القدر من التوسع ؟ ام يستمر بالتوسع الاقليمي في أوربا ؟ ام يتجه نحو المشرق الإسلامي ؟ إلا انه قرر التوجه إلى الشرق ، وذلك لسببين هما :

١. انقاذ العالم الإسلامي عامة ، والمقدسات الإسلامية ، خاصة من الخطر الصليبي المتمثل بالاسبان في البحر المتوسط ، والبرتغاليين في المحيط الهندي والبحر الأحمر .
٢. الحد من سياسة الدولة الصفوية في ايران ، وذلك لمحاولتها لبسط المذهب الشيعي في العراق واسيا الصغرى [١] .

وبعد ذلك تم القضاء على الدولة الصفوية في شمال وغرب ايران [٢] ، حينها لم يبق اما السلطان سليم الأول سوى الدولة الجركسية ، وكانت لرغبة العثمانيين في القضاء على المماليك اسباب منها :

١. تاييد الدولة الجركسية لبعض المتمردين على الدولة العثمانية ، ومنهم الأمير احمد اخو السلطان سليم الأول .
٢. الخلاف الحدودي بين الدولتين في منطقة طرسوس الواقعة بين الطرف الجنوبي الشرقي لاسيا الصغرى وبين شمالي الشام .
٣. تشجيع علماء الدين للسلطان سليم بضم مصر وبلاد الشام والمناطق الإسلامية المقدسة وتقديم الدعم له .
٤. التحالف المملوكي ــ الصفوي ضد الدولة العثمانية هذا من جانب [٣] ، وخاصة عندما استقبل السلطان قانصوة الغوري مبعوث الشاه اسماعيل الصفوي ، الذي كان يحمل كتاباً إلى سلطان مصر موضحاً فيه ان الاعتداءات التي شنتها قواته ضد

---

[١] يحيى ، مصر الحديثة ، ص ٦٣-٦٤ ؛ الصلابي ، الدولة العثمانية ، ص ١٨٩-١٩٠ ؛ الدباغ ، الموجز في تأريخ ، ص ١٥٤ ؛ جرجيس ، دراسات في تأريخ ، ص ١٠٠ ؛

Litti , Modern Egypt , p. ٢٢ ; Hassan Abdallah , The Hand Book of Egypt (Printing House Cairo - Cairo : ١٩٦٦), p. ٢٣.

[٢] على ما يبدو ان الدولة الجركسية اتخذت موقف الحياد حيال الصراع العثماني - الصفوي على اعتبار ان علاقة السلطان المملوكي كانت سيئة بالشاه اسماعيل الصفوي ، وبالمقابل انها لا تقل سوءً عن العلاقة مع الدول العثمانية . للمزيد ينظر : ابن اياس ، بدائع الزهور ، ٤ / ٣٩٥ .

[٣] للمزيد من التفاصيل عن تلك الاسباب ينظر : الصلابي ، الدولة العثمانية ، ص ١٩٩-٢٠١ .

المناطق التابعة لدولة المماليك لم يكن له علماً بها [١] ، ومن جانب آخر كانت الدولة الجركسية تعاني من تدهور اصاب الوضع الداخلي والخارجي ، تمثل باتباع السلاطين الجراكسة سياسة احتكارية ، فضلاً عن كثرة التمردات الخارجة على الدولة ، والاهم من كل ذلك هو الخطر الخارجي المتمثل بالبرتغاليين [٢] .

وبعد تهيأ الاسباب للدولة العثمانية ، قامت باول أعمالها التوسعية ، وذلك باستيلائها على الجزيرة الفراتية وامارة ذو (الغادر) سنة (٩٢١هـ / ١٥١٥م) الأمر الذي جعل السلطان الغوري يشعر بالخطر العثماني الذي بدأ يهدد كيان دولته [٣] ولذا قام باتخاذ الاحتياطات والاجراءات اللازمة التي ستمكنه من الدفاع عن دولته ، وبذلك اصدر السلطان امرا يقضي باعداد عدة الحرب وتحصين قلعة قايتباي بالاسكندرية ، وفي غضون تلك الاستعدادات حصل تمرد من الجلبان وذلك بسبب تأخر رواتبهم واثناء ذلك أيضاً وصل إلى الدولة الجركسية الأمير قاسم العثماني ابن اخ السلطان سليم هارباً من عمه بعد أن قتل السلطان اباه [٤] .

وهكذا بدأت بوادر الحرب تلوح في سماء الدولة الجركسية ، وخاصة بعد وصول الاخبار إلى السلطان الجركسي قانصوه الغوري عن الحشود والاستعدادات التي يعدها السلطان العثماني سليم قرب الحدود المصرية ، الأمر الذي حفز السلطان الغوري بان يستعد هو أيضاً لمواجهة التهديد العثماني ، وفي تلك المرحلة الحرجة وصلت رسالة من نائب حلب خاير بك يوضح فيها انه لم تكن في نية العثمانيون الهجوم على دولتهم بل كانت تستهدف الدولة الصفوية ، علماً ان نية نائب حلب لم تكن صادقة لانه أراد ابعاد السلطان عن حقيقة الأمر [٥] وهكذا كان لعامل الخيانة دوراً مهماً في انهيار الدولة الجركسية ، وبهذا انكشف

---

[١] ابن أياس ، بدائع الزهور ، ٤ / ١٢٣ .

[٢] *Harris J. R. , The lagucy Egypt (Great Britain - oxford : ١٩٧٢), p . ٤٦٣.*

[٣] ابن أياس ، بدائع الزهور ، ٤ / ٣٩٦ ، ٤٦٢-٤٦٣ ؛ حسن ، مصر في العصور ص ٣٤٠ .

[٤] ابن أياس ، بدائع الزهور ، ٤ / ٤٧٣ ؛ العريني ، المماليك ، ص ٢٦٣ ؛ عاشور ، العصر المملوكي ، ص ١٨٨ ، مصر والشام ، ص ٢٥٥ .

[٥] ابن أياس ، بدائع الزهور ، ٥ / ٧ ؛ انيس ، الدولة العثمانية ، ص ١١١ ، احمد اسعد طلس ، عصر الانحدار يشتمل على تأريخ العراق وبلاد الشام ومصر (دار الاندلس ـ بيروت : ١٩٦٣) ، ص ٧٦ .

النقاب عن حقيقة خيانة خاير بك ، الذي كان له علاقة بالعثمانيين منذ وقت مبكر، ذلك ما شّكل خطراً على الدولة الجركسية بحيث سهل مهمة القوات العثمانية في السيطرة على بلاد الشام ، فضلاً عن اتصاله بالامير سيباي نائب الشام وطلب منه ان يطمئن السلطان الغوري ، فكتب سيباي بدوره إلى السلطان يصف له حالة البلاد السيئة من الناحية الاقتصادية ولا تتحمل مجيء الجيش ، لاسيما وان العثمانيين لم يتحركوا نحو بلادهم قائلاً : **((وان كان العدو متحرك فنحن له كفاية))** [(١)].

وفي الحقيقة ان نائب الشام لم يكن يعلم النية السيئة التي كان يخفيها الأمير خاير بك من وراء ذلك ، بدليل انه عندما تم القبض عليه فجأة ادرك خيانة الأمير خاير بك ، فقام على الفور بإرسال رسالة إلى السلطان الجركسي يعلمه حقيقة الأمر ، قائلاً : **((يا مولانا السلطان إذا اردت الله ان ينصرك على عدوك ، فاقتل هذا الخائن))** [(٢)] ، وبعد ذلك تدخل بعض الأمراء فتم الافراج عنه ، ولم يهتم السلطان الغوري بذلك الأمر بل عزم على عقد مجلساً حربياً لمشاورة امرائه من اجل ايجاد حل لذلك الخطر ، وبعد المشاورات قاموا بإرسال حملة كبيرة إلى حلب يقودها السلطان بنفسه [(٣)] ، وعلى الرغم من ذلك فقد استمر نائب حلب في خيانة دولته ، فبعد وصول الجند إلى الريدانية سنة (٩٢٢هـ/١٥١٦م) استعداداً للخروج إلى بلاد الشام ، وصلت رسالة إلى السلطان الغوري من خاير بك أوضح فيها ان السلطان العثماني يرغب بعقد صلح ، إلا ان التحركات العثمانية والتدخل في الشؤون الداخلية للامارات التابعة للجراكسة ، جعلت السلطان قلقاً من السياسة التوسعية للدولة العثمانية التي اخذت بالتوجه نحو مصر [(٤)] ، وقد كان قلقه في محله لانه ادرك حقيقة رغبة العثمانيين من السيطرة على بلاده ، فلذا أرسل مبعوثه لغرض عقد اتفاق سلمي معهم ، لكن الرد كان عكسياً فقيل لمبعوث السلطان **((قل لاستاذك يلاقينا على مرج دابق))** [(٥)] .

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ٥ / ٢٦ ؛ مبارك ، الخطط التوفيقية ، ١ / ١٣١ .

(٢) انيس ، الدولة العثمانية ، ص ١١٠ .

(٣) ابن اياس ، بدئع الزهور ، ٤ / ٤٣٥ ؛ محمد علي داهش ، العلاقات المغربية العثمانية (١٥١٠-١٩١٢م) (منشورات اتحاد المؤرخين العرب – د/ت : ٢٠٠٢م) ، ص ١٤ ؛ طلس ، عصر الانحدار ، ص ٧٦.

(٤) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ٤ / ٤٣٥ ؛ طلس ، عصر الانحدار ، ص ٧٦ ؛ عاشور ، العصر المملوكي ، ص ١٩٠-١٩١ .

(٥) مبارك ، الخطط التوفيقية ، ١ / ١٣١ ؛ عاشور ، العصر المملوكي ، ص ١٩١ .

وهكذا بدت الحرب أمام الجانبين امراً لا مفر منها ، فبدأت القوات العثمانية بالاستيلاء على ملطية وكركر[1] وبهسنا [2] مقابل ذلك تحرك الجيش الجركسي شمالاً لملاقاة العثمـــانيين في مرج دابق شمال حلب [3] ، فالتقى الجيشان سنة (٩٢٢هـــ/١٥١٦م) فــأبلى الجــيش الجركسي بلاءاً حسناً ، مما اضطر الجيش العثماني إلى الانسحاب لاعادة تنظيم صفوفه [4] ، وبعدها استأنف القتال بينهما ، واثناء ذلك انتشر خبر يقضي بان السلطان الغوري امر جنـــده بعدم التقـــدم لحيـــن صدور اوامـــر منه ، فضلاً عن اساليب خاير بك في زعزعة الثقة بين المقاتلين ، وذلك بقيامه ببث اخبار كاذبة منها ان السلطان قتل في المعركة [5] ، وعلـــى مـــا يبدوا كـــان هدف خـــاير بـــك من ذلك الإجراء الذي قـــام به أراد ان يزعزع عزيمة الجيش المملوكي وبالتالي خسارتهم في المعركة ، وهذا ما جعل السلطان قانصوه الغـــوري يـــدرك حقيقة خيانة نائب حلب ، واستمر القتال بين الجانبين ، إلا ان العثمانيون كثفوا هجومهم على صفوف الجيش المملوكي ، مما اربكهم وجعل السلطان يسقط من على ظهـــر جـــواده أثنـــاء المعركة ، فارداه قتيلاً [6] ، وبهذا انتهت معركة مرج دابق ، وهي المعركـــة الفاصـــلة بـــين المماليك والعثمانيين ، ونتج عنها وفاة السلطان الغوري ، وانسحاب بقايا الجيش المملوكي إلى حلب ومنها إلى دمشق ومصر [7] .

---

[1] كركر : مدينة انشأها انوشروان ، وتقع بالقرب من مدينة ملطية وحصن الران . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ٤ / ٤٥٢-٤٥٣ .

[2] بهسنا : قلعة حصينة بالقرب من مرعش وسميساط . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ١ / ٥١٦ .

[3] *Hitti , Near , p.* ٣٢٤.

[4] الدباغ ، الموجز في تأريخ ، ص ١٥٤ ؛ داهش ، العلاقات المغربية ، ص ١٤ .

[5] الدباغ، الموجز في تاريخ ، ص ١٥٤ ؛ حسن ، مصر في العصور ، ص ١٤٠ ؛ طلس ، عصر الانحدار ، ص١١٠ .

[6] قطب الدين محمد بن احمد المكي ، البرق اليماني في الفتح العثماني (دار اليمامة – الرياض : ١٩٦٧م)، ص ٢٤ ؛ مبارك ، الخطط التوفيقية ، ص ١٣١ ؛

Gabriele , A Short , p. ١٠٠.

[7] عاشور ، العصر المملوكي ، ص ١٩٣ ؛ يحيى ، مصر الحديثة ، ص ٨٢ ؛

وتداركاً لذلك الموقف الصعب الذي عاشته الدولة الجركسية ، وهـي تلفـظ انفاسـها الاخيرة ، تولى عرش السلطنة طومان باي آخر سلاطين السلالة الجركسية ، الذي لم يحكـم سوى بضعة شهور ، فكان ذلك سنة (٩٢٢هـ/١٥١٦م) ولقب بلقب الاشرف [١] ووصـف بشجاعة ***Roland*** [٢] ، إلا انه لم يلق تاييداً من أمراء دولته لشعورهم بالاحباط التام نتيجـة للخطر المحيط بدولتهم [٣] ، وبالمقابل فان سيطرة العثمانيين على بلاد الشام جعلت الموقـف اكثر صعوبة ، لانهم طلبوا من السلطان الجركسي اعترافاً بالسيادة لهم ، وان يكون هو نائبـاً للسلطان العثماني في حكم البلاد والقيام بسك العملة باسمه ، إلا ان الـرفض كـان جـواب السلطان الجركسي ، غير مهتم بما حل بالقوات الجركسية في موقعة مرج دابق [٤] ، لكنة قام بتجهيز حملة لمقاتلة العثمانيين في بلاد الشام ، إلا ان مستشاريه لم يشجعوه على ذلك الفعـل متحججين باعذار واهية ، خوفاً مما حصل في معركة مرج دابق ، فضلاً عن طلـبهم منـه امـوال باهضـة جداً ، مما اضطر السلطان ان يجند ما يمكن تجنيـده من اجـل الخـروج إلى الريدانية لمحاربـة العثمانيـين والتخلص من خطرهم [٥] ، وكذلك فقد قام بتجهيـز مـا

Gabriele , A Short , p. ١٠٠ ; Hitti , History , p. ٧٠٣.

[١] شمس الدين محمد بن طولون ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ــ تأريخ مصر والشام ــ ، تحقيـق : محمد مصطفى (المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة وللطباعة – القاهرة : ١٩٦٢م) ، ٢ / ٢٤ ؛ الدويهي ، تأريخ الازمنة ، ص ٢٣٥ ؛ الدباغ ، الموجز في تأريخ ، ص ١٥٧ ؛ طلس ، عصر الانحدار ، ص ١١١ .

[٢] رونالد *Roland* : احدى الشخصيات الاسطورية المعروفة لدى الشراكسة الذي كان يوصف بانـه كـان يجابه الصعوبات والمحن . ينظر :

P. M. Holt , studies in the History of the near East (Great Britain - London : ١٩٧٣) , p. ١٥٣.

[٣] عاشور ، مصر والشام ، حسن ، مصر في العصور ، ص ٣٤١ .

[٤] الجواهري ، صراع القوة ، ص ٢٦٢ ؛

Ayalon , Gunponder , p. ٥١.

[٥] عاشور ، مصر والشام ، ص ص ٢٦٢ ؛ سليم ، عصر سلاطين ، ٧ / ١٩٨ .

يحتاجه جيشه من مدافع وبنادق من تجار البندقية ، فضلاً عن اقامة خط دفاعي عند الصالحية [١] .

وفي سنة (٩٢٣هـ/١٥١٧م) وصلت رسالة اخرى من السلطان العثماني سليم الأول يذكر فيها ((**انك مملوك تباع وتشترى ولا تصح لك ولاية الملك**)) [٢] ، وطالباً منه ان يكون نائباً عنه في مصر ، وهدده بانه إذا رفض ذلك فانه سيدخل مصر ويقتل جميع من فيها من المماليك ، فضلاً عن ارساله رسالة إلى أمراء مصر يرغبهم في الدخول تحت طاعته [٣] ، وبناءاً على تلك التهديدات التي تلقاها سلطان الدولة الجركسية ، خرج بمن معه إلى الريدانية بالقرب من العباسية [٤] ، متخذاً منها مركزاً للدفاع عن دولته من الخطر العثماني ، إلا ان العثمانين وصلوا عن طريق الشرقية محاولين دخول القاهرة ، والتقوا مع القوات المملوكية ، فدارت معركة بينهما ، فتمكنت القوات العثمانية من السيطرة على أجواء المعركة ، مما جعل سائر الجيش المملوكي ينسحب مضطراً ، واثناء الانسحاب من المعركة تعرض الجيش المملوكي لهجمات من البدو الاعراب ، وهذا ما ادى إلى انهيار الجيش المملوكي بالكامل ، ودخول القوات العثمانية إلى مصر [٥] ، وبذلك تمكن السلطان سليم الأول من السيطرة على مصر ووضع جميع اقاليمها تحت السيادة العثمانية [٦] ، إلا ان جيوب المقاومة بقيت مستمرة

---

[١] بكري شيخ أمين ، مطالعات في الشعر المملوكي (دار الافاق الجديدة - بيروت : ١٩٧٢م) ، ص ٤٢ ؛ الجواهري ، صراع القوى ، ص ٧٣ .

[٢] ابن اياس ، بدائع الزهور ، ٥ / ١٢٥ ؛ عاشور ، العصر المملوكي ، ص ١٩٥ .

[٣] عاشور ، العصر المملوكي ، ص ١٩٦ .

[٤] العباسية : بلدة بارض مصر ، وهي أول ما يلقي القاصد لمصر من الشام من الديار المصرية ، وتبعد عن القاهرة خمسة عشر فرسخاً(الفرسخ ما يعادل ٦كم تقريباً) . ينظر ، هنتس ، المكاييل والاوزان،ص ٩٤ ، و سميت بتلك التسمية نسبة إلى عباسة بنت احمد بن طولون . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ٤ / ٧٥ ؛ القزويني ، آثار البلاد ، ص ٢٢٠ .

[٥] الاسحاقي ، اخبار الدول ، ص ١٤٤ ؛ المكي ، البرق اليماني ، ص ٢٤٠ ؛ الشرقاوي ، تحفة الناظرين ، ص ١٥٣-١٥٤ ؛

Wilfred Cantweel smith , Islam in Modern Egypt , Fourth Printing (united States of America – London : ١٩٦٦) , p. ١٦٧; E. B. " Selim I " Vol. ٢٢, p. ٥٩٣.

[٦] ابن يحيى ، تأريخ بيروت ، ص ٢٧٠ ؛

من قبل السلطان طومان باي ومن بقي معه محاولين اخراج القوات العثمانية ، لكن مـــن دون جدوى ، لكن القوات العثمانية احكمت السيطرة على مصر بصورة تامة ، وقضت على كـــل رموز المقاومة ، ولذلك وجد السلطان الجركسي نفسه عاجزاً تماماً عن مقاتلتهم ، وبعد ذلـــك تمكنت القوات العثمانية من القاء القبض عليه ، عندها قال السلطان العثماني ((**الان ملكنا ملك مصر**)) [(١)] .

ويمكن ان نجمل اسباب انهيار الدولة الجركسية ودخول القوات العثمانية إلى مـــصر بنقاط ابرزها :

أ. تطور المعدات الحربية العثمانية ، واستحداث طرق جديدة في القتال ، وهذا مـــا اوقع الرعب في صفوف الجيش المملوكي ، وحدى بان يقال ((**ومن يطيق هـــذا الأمر المهلك [السلاح] لا يقاتل هؤلاء إلا مجنون**)) [(٢)] .

ب. صفة الخيانة التي تفشت بين أمراء الجيش المملوكي والتي كشفت خططهـــم وتدابيرهم .

ت. اضطراب الوضع الداخلي للدولة الجركسية وانتشار الفتن التي اضعفت قوتهم وزعزعت ثقتهم بانفسهم .

ث. الخطر العثماني الذي هدد الدولة الجركسية من الجهة الشمالية ، فـــضلاً عـــن ذلك عدم امتلاك السلطان الغوري خبرة في السياسة الخارجية ، وكيفية التعامل من اعدائه ، وخاصة إذ كانت دولته مهدده من جهات عدة ، وكـــذلك العجـــز المالي الذي كانت تعاني من دولته بسبب الحرب الفاشلة مع البرتغاليين [(٣)] .

كل تلك الأسباب قادت الدولة المملوكية إلى الهاوية وكسرت شوكتها ، ومكنت الدولـــة العثمانية من استغلال تلك الظروف ، لتكون هي في النهاية سيدة الموقف في مصر .

Harris , The lagucy , p . ٤٦٣; Fisher , the Middle , p. ١٤٥.

[(١)] مبارك ، الخطط التوفيقية ، ١ / ١٤٧ ؛ لوتسكي ، تأريخ الاقطار العربية الحديث (دار التقدم – موسكو : ١٩٧١م) ، ص ٧ .

[(٢)] مبارك ، الخطط التوفيقية ، ١ / ١٣١ ؛

Hitti , Near , p. ٣٢٤.

[(٣)] *Pertold , the Muslim , Part. II , p. ٧٩.*

ثالثاً : سياسة الدولة الاحتكارية

بدأ التدهور الاقتصادي يصيب الدولة الجركسية ابتداءاً من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، ويعود ذلك إلى كثرة الاخطاء وتراكمها في سياسة السلاطين الجراكسة ، وكما هو معلوم ان الجانب الاقتصادي يتكون من ثلاث قطاعات الزراعي والحرفي والتجاري ، فالزراعي كان مهملاً بحيث أدى إلى قلة ايرادات الدولة ، مما جعلها تبحث عن مصدر بديل لسد النقص الحاصل في ايرادتها ، فلم تجد امامها سوى الاعتماد على التجارة الخارجية من خلال اتباع سياسة الاحتكار بفرض الضرائب على البضائع التجارية (١) .

وكما ذكر في بداية الفصل الرابع عن سياسة السلاطين الجراكسة ودورهم في ازدهار التجارة الخارجية لمصر باتباعهم السياسة الودية المعتدلة مع التجار الأوربيين ، وكذلك قيامهم بانشاء الفنادق واعطاء بعض التجار امتيازات خاصة مثل التجار البنادقة والفلورنسيين، لكن بالمقابل كان للاطماع الشخصية لبعض السلاطين الجراكسة باتخاذهم سياسة الاحتكار لغرض جمع الاموال باسهل الطرق ، وبهذه السياسة التي كانت عاملاً مهماً في انهيار الدولة الجركسية وما ترتب عليها من نتائج سلبية ، وهي عدم قدرة التجار الأوربيون من شراء البضائع وخاصة الاساسية كالتوابل والبخور ، وهذا ما أدى إلى تذمر التجار من جراء تلك السياسية (٢) ، فضلاً عن ذلك ادت تلك السياسة إلى اضطراب الوضع الداخلي للدولة الجركسية فحصلت بعض التمردات وتحديداً في سنة (٩٠٨هـ/١٥٠٢م) متمثلة بالتمردات التي قام بها العربان من الجهة الشرقية والغربية وجهة الصعيد ، حتى كادوا ان يسيطروا على البلاد ، لذلك أرسل السلطان قوة مؤلفة من عدة أمراء ، فأرسل طراباي إلى الجهة الغربية ، اما الأمير قاني باي قرا امير آخور اتجه إلى الشرقية ، وخاير بك وقانصوة ابن اللوقا ارسلا إلى جهة الصعيد (٣) .

---

(١) سليم ، عصر سلاطين ، ٢ / ٢٦٢ ؛ عبد الفتاح محمد وهيبة ، الجغرافية التاريخية ، دراسة اصولية اقليمية (منشأة المعارف – الاسكندرية : د / ت) ، ص ٣٠٨ .

(٢) *Walteg Fisehel , the Spice – trad in Mamluk Egypt , Journal of the Economic and Social History of The Orient,(Leiden – Brill : ١٩٦٠) , Vol. I , par. ٢ , pp. ١٧٢-١٧٣*

.

(٣) للمزيد من التفاصيل ينظر : ابن اياس ، بدائع الزهور ، ٤ / ٥٢ –٥٣ ، ٢٧٣ .

كما كان لبعض السلاطين اطماع مادية بحتة لاشباع رغباتهم الشخصية وحاجتهم الخاصة من الرقيق والفراء والخيول ولا يلقون بالاً للمصلحة العامة ، وقد وضح المقريزي ذلك ذاكراً ((**ويحصل لسلطان مصر من عشور التجار مال كبير ... فانه يأخذ من التجار الواردين من الهند عشور بضاعتهم**)) (١) ، الأمر الذي أدى إلى الاضرار بطبقة التجار ، وهذا ما خلق ازمة مالية ترتب عليها انخفاض النشاط التجاري المعتمد على التبادل النقدي (٢) ، ومن الامور الأخرى اهمالهم لوسائل الانتاج الاساسية كالزراعة والصناعة ، وهذا ما أدى إلى تدهور الاقتصاد الجركسي ، علماً ان اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح كان لـه دور مهم في القضاء على التجارة المملوكية ، لذلك اضطر السلاطين على اتباع سياسة الاحتكار واجبار التجار الاوربيين على المرور عبر اراضيهم من دون اتباع طرق تجارية اخرى (٣) .

لدراسة اسباب انهيار الدولة الجركسية بصورة عامة ، لابد من التركيز في بادئ الأمر على الوضع الداخلي المتمثل بسياسة السلاطين وما نتج عنها من اثار سلبية على الصعيدين الداخلي والخارجي ، فكانت البداية منذ عهد السلطان الشيخ المؤيد ، عندما وصل التجار الاوربيون إلى الموانئ المصرية سنة (٨١٥هـ/١٤١٢م) ، فعرض عليهم البضائع بسعر مرتفع حددته الدولة ، فامتنعوا من الشراء وعادوا إلى بلادهم من دون بضائع ، وبعد سنة من ذلك امر السلطان الجركسي احد تجار دولته الشيخ علي الكيلاني بالذهاب إلى الهند لشراء مادة الفلفل بقيمة خمسة الاف دينار ، لغرض خزنها في متجره الخاص (٤) ، واستمراراً لتلك السياسة فقد ازدادت اكثر سوءاً في عهد السلطان برسباي ، لانه اعتمد تلك السياسة لتعويض ما حل بدولته من خسائر نتيجة الحروب المستمرة مع القوى الصليبية في جزر البحر المتوسط، فضلاً عن اختلاف النظام الاقطاعي لدولته ، وعلى ما يبدو كان الهدف من تلك السياسة الحصول على المال باسهل الطرق ، ومن اكثر السلع المحتكرة لدى السلاطين الجراكسة التوابل والبخور ، وذلك ما أدى إلى ارتفاع اثمانها ، الأمر الذي اصاب التجار

(١) السلوك ، ج٤ / ق٤ / ٩٢٩ .

(٢) عبد الرحيم ، نشوء الراسمالية المحلية في مصر في العهد العثماني (١٥١٧-١٧٨٩) استناد إلى المحاكم الشرعية المصرية (المجلة العربية للعلوم الانسانية – القاهرة : ١٩٨٥م) ، مج ٥ / ع١٨ ، ص ٤٨ .

(٣) المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق١ / ٢٢٦ .

(٤) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ١ / ٣٥٤-٣٥٥ .

بالضرر من جراء تلك السياسة فضلاً عن عن تغيير العملة [1] في عملية التبادل التجاري مما زاد من تذمر تجار غرب أوربا ، لذلك قاموا بسلك طريق آخر غير طريق البحر الأحمر من اجل الوصول إلى الهند والحصول على منتجات الشرق عن طريق المحيط الاطلسي [2] .

وتطبيقاً لسياسة الاحتكار فقد اصدر السلطان برسباي أمراً يقتضي بمنع بيع مادة البهار إلى التجار الصليبيين مباشرةً ، بل تخزن في متجر السلطان [3] ، لغرض رفع سعر البضاعة، ففي سنة (٨٣٢هـ/١٤٢٨م) ارتفع سعر البضائع من مائتين وعشرين درهماً للاردب إلى ثلاثمائة [4] ، ومن ثم تباع لهم اجباراً بسعر يقدر بحوالي مئة وعشرون دينار ، في الوقت الذي كان فيه سعر الفلفل ثمانين دينار [5]، واستمراراً لسياسة الاحتكار فقد اصدر السلطان الجركسي في سنة (٨٣٣هـ/١٤٢٩م) أمراً يقضي باحضار التجار امامه فطلب منهم بان لا يبيع احد منهم شيئاً من اصناف البضائع التي تجلب من الهند كالفلفل خاصة إلى التجار الأوربيين ، فضلاً عن تشكيله لجنة من التجار يقومون بشراء البضائع من منشائها وجلبها إلى مصر ، ومن ثم يقوم ببيعها إلى التجار الأوربيين بالسعر الذي يحدده [6] ويعلق المقريزي على ذلك قائلاً : **((والزم الفرنج بشراء الحمل من الفلفل بمائة وثلاثين ديناراً ، وهذا سعره بالقاهرة خمسون دينارا ...))** [7] ، وقد كان حصيلة تلك السياسة

---

[1] لقد حاول السلطان برسباي من اتباع تلك السياسة تقليل قيمة العملة الاجنبية ، فقد كان سعر الدينار الافرنتي بمئتي وثلاثين ديناراً ، فبعد استبداله بالعملة الوطنية أصبحت قيمة الدينار الافرنتي مائتي وعشرين ديناراً ، مما أدى إلى كساد تجاري . ينظر : المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق١ / ٣٩٦-٣٩٧ .

[2] الحجي ، الاوضاع السياسية والاقتصادية في حكم المؤيد شيخ في سلطنة المماليك (٨١٥-٨٢٣هـ/ ١٤١٢-١٤٢٠م) (المجلة العربية للعلوم الانسانية – القاهرة : ١٩٨٩م) ، مج٩ / ع٣٦ / ٥٢ ؛

Boaz Shoshan , Exchang Rate Policies in Fifteen the Century Egypt , Journal of the Economic and Social History of The Orient , Netger Lands (Leiden – Brill : ١٩٨٦) Vol. XXIX. Part. I , pp. ٢٨–٢٩.

[3] المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٨٢٣ ، ابن حجر العسقلاني ، انباء الغمر ، ٣ /٥٤٧ ، .

[4] المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٨٢٤ .

[5] المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق ٢ / ٨٢٤ ، ٩٦٧ ؛ ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٣ / ٤٧٣؛ الصيرفي ، نزهة النفوس ، ٣ / ١٤٥، ١٥٥ .

[6] ابن حجر ، العسقلاني ، انباء الغمر ، ٣ / ٤٢٣ ؛ الصيرفي ،نزهة النفوس ، ٣ / ١٤٥-١٤٦ ، ٣٤١ .

[7] المقريزي ، السلوك ، ج ٤ / ق ٢ / ٨٠١ .

الاحتكارية التي اتبعها السلطان برسباي ان يقدم التجار الايطالين وخاصة البنادقة بمراسلة السلطان الجركسي سنة (٨٣٦هـ / ١٤٣٢م) طالبين منه تخفيض الضرائب عنهم ، لكن السلطان لم يستجب لهم ، مما اضطرهم إلى مقاطعة الدولة الجركسية ، وذلك ما جعل السلطان ان يعدل عن قراره ، ويفرض شروط تخدم الجانبين [١] ، وتكرر الأمر أيضاً مع التجار الكتلانيين ، فقد رفضوا شراء البضائع ، فادى ذلك إلى مقاطعة الدولة الجركسية تجارياً ، محاربتهم عن طريق اعمال القرصنة [٢] ، إلا ان تلك الاعمال لم تغير سياسة السلطان الاحتكارية ، ففي سنة (٨٣٩هـ/١٤٣٥م) بلغ السلطان ان تجاراً قاموا بنقل الفلفل من دمشق إلى جدة ، فغضب لذلك الأمر ، فاصدر مرسوماً أوضح فيه ((**ان من اشترى بهاراً بجدة يحمله إلى القاهرة سواء كان المشتري كائناً ما كان : شامي ، مصري ، عراقي ، هندي ، رومي**)) [٣] ، ويذكر المقريزي أيضاً عن تلك السياسة الاحتكارية قائلاً ((**تقدم مرسوم للسلطان بمنع التجار من بيع الفلفل ، وان الفرنج لا تشتريه إلا من الديوان السلطاني**))[٤] .

ومما هو جدير بالذكر ان تمكن السلطان برسباي من اتباع سياسة الاحتكار يعود إلى استقرار الدولة المملوكية ، وسيطرتها على التجارة الخارجية ، واتباع السلاطين سياسة تقر ان المصلحة الشخصية فوق المصلحة العامة ، ومن ناحية اخرى فان لتلك السياسة الاحتكارية مردوداً ايجابياً لسلاطين الدولة ، من حيث جمعهم للاموال عن طريق فرض ضرائب باهضة الثمن على البضائع ، بالمقابل فان ذلك الأمر كان له تأثير سلبي على التجارة الخارجية للدولة الجركسية ، لكون ان التجار الأوربيون تذمروا من تلك السياسة الأمر الذي شجعهم على البحث عن طريق آخر يوصلهم إلى بضائع الشرق ، فكان اكتشاف رأس الرجاء الصالح هو الاسلم لتجارتهم ، وان اجتماع كل تلك الامور ادت إلى انهيار الدولة الجركسية تدريجياً للنقص الحاصل في ورداتها التجارية ، ومن ثم آلت إلى السقوط بايدي الدولة العثمانية [٥] في

---

[١] ابن حجر ، العسقلاني ، انباء الغمر ، ٣ / ٤٨٣ ؛ سالم ، تأريخ الاسكندرية ، ص ١٦٧ ؛ نهايم ، مادة " برسباي " ، ٧ / ١٥٣ ؛

Lane – pool , Egypt , p. ٣٤٠ .

[٢] طرخان ، مصر في عصر ، ٢٨٩ ؛ الحجي ، علاقات بين سلطنة ، ص ٣٤٠ .

[٣] الصيرفي ، نزهة النفوس ، ٣ / ٣٣٨ ؛ وينظر : المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٩٦٥ .

[٤] السلوك ، ج٤ / ق ٢ / ٩٦٧ .

[٥] *Little , Modern , p.* ٢٥-٢٦ .

حين يذكر ***Toussaint*** ان اسباب انهيار الدولة الجركسية يعود إلى عاملين اساسيين الأول هو فتح القسطنطينية على يد الدولة العثمانية سنة (٨٥٧هـ/١٤٥٣م) ، ووصول الغزاة البرتغاليين إلى المحيط الهندي سنة (٩٠٤هـ/١٤٩٨م) ثانياً [١] ، إلا ان ***Bertold*** ذكر عن سبب انهيار الدولة الجركسية هو السياسية الاحتكارية التي اعتمدها بعض السلاطين الجراكسة ، وخاصة السلطان برسباي ، الذي فرض قيود التداول التجاري بين التاجر والدولة [٢] .

[١] *Hostory , p.* ٩٣.

[٢] *The Muslim , Part. II , p.* ٧٨.

الخاتمة

الخاتمة

لقد أفرزت الدراسة عدداً من النتائج ابرزها :

أولاً : ان قيام دولة المماليك الجراكسة ونشأتها يعود إلى عاملين ، الأول : ضعف الدولة المملوكية الاولى ، ومجيء سلاطين ليس لديهم المقدرة السياسية في قيادة الدولة ، والثاني : يكمن في شخصية السلطان برقوق المؤسس الحقيقي لدولة المماليك الجراكسة ، الذي كان يمتلك المقدرة السياسية والادارية التي جعلته يتدرج في مناصب الدولة ، واصبحت لديه المعرفة التامة بالسياسة ، فضلاً عن ذلك كان لديه طموحاً شخصياً في ان يُنْشئ دولة مستقلة تحمل اسم المماليك الجراكسة .

ثانياً : انفراد الدولة الجركسية باتباع اسلوباً دبلوماسياً خاصةً تجاه الرعايا والتجار الاجانب المتواجدين في اراضيها ، والحفاظ على تواجدهم داخل المنطقة لاستخدامهم كاداة ضغط وتامين للدولة الجركسية ، تحسباً لاي اعتداء خارجي على دولتهم وحفاظاً على كيانهم السياسي والاقتصادي ، وهذا الاسلوب اتخذه اغلب السلاطين الجراكسة ، حينما تكون دولتهم غير قادرة على الرد عسكرياً ، عندها سيكون التهديد آخر وسيلة لديهم ان لم تتوقف تلك الاعتداءات .

ثالثاً : ويتبين من خلال الدراسة أهمية الموقع الجغرافي لمصر الذي مكنها من السيطرة على طرق التجارة وجعلها حلقة وصل بين الشرق والغرب في نقل البضائع والسلع التجارية من والى أوربا ، وهذا ما اعطاها السيادة التامة على المنطقة سياسياً واقتصادياً زهاء القرنين والنصف قرن من الزمان .

رابعاً : ويتضح لنا من سير الأحداث ان هدف القوى الأوربية الأول والاخير القضاء على المسلمين وبالاخص مقر الخلافة الإسلامية في مصر حتى وان كلفها هذا ان تتعاون وتتحالف مع اعدائها من الأوربيين وتترك الخلافات جنباً في سبيل الوصول إلى تحقيق هدفها المنشود ، وهذا ما بينته الدراسة من تحالف مع الكتلانيين والجنويين ، على الرغم من العداء الذي كان بينهما بعكس ما حدث مع دولة المماليك الجراكسة والقوى الإسلامية من تفكك وحدوي ، وهذا بدوره شجع القوى الأوربية بالتمادي في مقاتلة المسلمين

والاستيلاء على اراضيهم ، علماً ان الفكرة الصليبية في تجزئة الوحدة الإسلامية ، كانت متأصلة منذ العصور الوسطى ، وصولا إلى العصور اللاحقة ، وهذاما انعكس حالياً للعيان على ارض الواقع من احداث سياسية مضطربة .

خامساً : وأخيراً وليس اخراً فقد بينت الدراسة ان السياسة الاحتكارية التي اتبعها السلاطين الجراكسة ، وفرضهم بضائع معينة على التجار الأوربيين واجبارهم على شرائها ، اصاب التجار الاوربيون من تلك السياسة الاستبدادية ، وهذا ما حفزهم على البحث عن طريق بديل يوصلهم إلى متاجر الشرق من دون المرور بالاراضي الجركسية ، فتحقق ذلك باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح من قبل البرتغاليين ، مما أدى إلى انهيار اقتصاد الدولة الجركسية ، إذ كان يشكل عمودها الفقري في وجودها ، والسبب الرئيس في سقوطها لاحقاً .

سادساً : اما اسباب انهيار دولة المماليك الجراكسة يعود إلى جملة اسباب داخلية وخارجية يقف في مقدمتها .

أ. العامل الاقتصادي : الذي يُعَد سبباً جوهرياً نخَّر جسد الدولة الجركسية من الداخل ، فضلاً عن اكتشاف طريق تجاري بديل تمثل بطريق رأس الرجاء الصالح الذي جعل عملية نقل السلع والبضائع التجارية تتحول من البحر الأحمر إلى المحيط الاطلسي ، فكان هذا عاملاً رئيساً في هدم اقتصاد الدولة الجركسية المعتمدة عليه اعتماداً كلياً في وجودها وقوتها .

ب. العامل السياسي : المتمثل بانقسام المواقف السياسية للقوة الداخلية التي مثلها السلطان الغوري ، وقسم من امرائه تجاه الدولة العثمانية ، إذ سعى هؤلاء الأمراء من وراء ذلك إلى تحقيق مصالح شخصية بحتة ، وعلى الرغم من ذلك الانقسام الداخلي ، إلا ان العامل الخارجي المتمثل بالدولة العثمانية وسياستها التوسعية كان له ابلغ الاثر في تقويض دعائم الدولة الجركسية سنة (٩٢٢هـ/١٥١٦م) .

ثبت المصادر والمراجع

أولاً : المصادر الاولية

ابن الأثير ، عز الدين أبي الحسن محمد بن محمد بن أبي الكرم (ت:٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢م) .
ـ الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٥م .
الاسحاقي ، محمد عبد المعطي أبي الفتح بن احمد (ت : ١٠٦٠هـ/١٦٥٠م) .
ـ اخبار الأول فيمن تصرف في مصر من ارباب الدول ، المطبعة الازهرية ، مصر ، ١٨٩٢م .
الاصطخري ، ابراهيم بن محمد (ت : ٣٥٠ هـ/٩٦١م) .
ـ المسالك والممالك ، تحقيق : محمد جابر عبد العال ، مراجعة ، محمد شفيق غربال ، دار القلم ، القاهرة ، ١٩٦١م .
الانصاري ، شمس الدين أبي عبدالله (ت : ٧٢٨هـ/١٣٢٧م) .
ـ نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، د / م ، لايبزك ، ١٩٢٣م .
ابن اياس ، محمد بن احمد (ت : ٩٣٠ هـ/ ١٣٢٥م) .
ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ج١ ، ج٣ ، المطبعة الأميرية الكبرى ، مصر ، ١٨٩٤م ؛ ج٤ ، ج٥ ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٠م .
البغدادي ، عبد اللطيف (ت : ٧٣٩هـ/١٣٣٨م) .
ـ الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، تحقيق : علي محسن عيسى مال الله ، مطبعة التعليم العالي ، بغداد ، ١٩٨٧م .
ابن تغري بردي ، جمال الدين أبي المحاسن يوسف (ت : ٨٧٤هـ/ ١٣٧٢م) .
ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج١٤ ، تحقيق : جمال محمد محرز واخر ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، مصر ، ١٩٧١م ؛ ج٧-٨ ، ١٢ ، مطابع كوستاتسوماس وشركاءه ، القاهرة ، د / ت ؛ ج١٣ ، تحقيق : محمد فهيم شلتوت ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، مصر ، ١٩٧٠م ؛ ج١٥ ، تحقيق ابراهيم علي طرخان ، مراجعة : محمد مصطفى زيادة ، الهيئة المصرية

العامة للتأليف والترجمة والنشر ، مصر ، ١٩٧٢م ، ج١٦ ، تحقيق : جمال الدين الشيال واخر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر ، ١٩٧٢م .

ـ المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، تحقيق : محمد عبد العزيز ، الهيئة المصرية العامة ، مصر ، ١٩٨٤م .

التونسي ، محمد بيروم الخامس (ت : ١٣٠٧هـ/١٨٨٩م) .

ـ صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار ، تحقيق : مامون بن محيي الدين الجنان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٧٥م .

ابن جبير ، محمد بن احمد (٦١٤هـ/١٢١٧م) .

ـ رحلة ابن جبير ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٤م .

الجيعان ، شرف الدين يحيى ابن القر (ت : ٩٠٢هـ/١٤٦٩م) .

ـ التحفة السنية باسماء البلاد المصرية ، مكتبة الكليات الازهرية ، مصر ، ١٩٧٤م .

ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين احمد بن حجر (ت : ٨٥٢ هـ/١٤٤٨م) .

ـ انباء الغمر بابناء العمر ، تحقيق : حسن حبشي ، مطابع الاهرام التجارية ، القاهرة ، ١٩٧٠م .

ـ الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة ، تحقيق : محمد سيد جاد الحق ، مطبعة المدني ، مصر ، د / ت .

الحميري ، محمد بن عبد المنعم (ت :٩٠٠ هـ/١٤٩٤م) .

ـ الروض المعطار في خبر الاقطار ، ترجمة : احسان عباس ، مطبعة هيدلبرغ ، بيروت ، ١٩٨٢م .

الحنبلي ، عبد الحي بن العماد (ت : ١٠٩٨هـ/١٦٨٦م) .

ـ شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت : د / ت .

ابن حوقل ، أبو القاسم النصيبي (ت : ٣٦٧هـ/٩٧٦م) .

ـ صورة الارض ، مطبعة فؤاد بيبان وشركاؤه ، بيروت ، د / ت .

ابن خرداذبة ، عبيدالله بن عبدالله (ت : ٣٠٠هـ/٩١٢م) .

ــ المسالك والممالك ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٩٨٩م .

ابن خلدون ، عبد الرحمن محمد الحضرمي (ت : ٨٠٨ هـ/١٤٠٥م) .

ــ العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، مؤسسة جمال ، بيروت ، ١٩٧٩م .

ابن دقماق ، ابراهيم بن محمد (ت : ٨٠٩هـ/١٤٠٦م) .

ــ الانتصار لواسطة عقد الامصار في تاريخ مصر وجغرافيتها ، المكتب التجاري للطباعة ، بيروت ، د / ت .

الدويهي ، اسطفانوس (ت : ١١١٦هـ/١٧٠٤م) .

ــ تأريخ الازمنة ، ترجمة فردينان نوئل اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٥١م .

الرمزي ، م . م . (١١٣٠هـ/١٧١٧م) .

ــ تلفيق الاخبار وتلقيح الاثار في وقائع قزل وبلغار وملوك التتار ، المطبعة الكريمية والحسينية ، اونبدرغ ، ١٩٠٨م .

الزبيدي ، محمد مرتضى (ت : ١٢٠٥هـ/ ١٨٣٤م) .

ــ تاج العروس من جواهر القاموس ، دار مكتبة الحياة ، بيروت : ١٨٨٨م .

السخاوي ، محمد بن عبد الرحمن بن محمد (ت : ٩٠٢هـ/١٤٩٦هـ) .

ــ التبر المسبوك في ذيل السلوك ، مطبعة الاوفست ، القاهرة ، د / ت .

ــ الضوء اللامع لاهل القرن التاسع ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د / ت .

السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن (ت : ٩١١هـ / ١٥٠٥م) .

ــ حسن المحاضرة في تأريخ مصر والقاهرة ، تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار احياء الكتب ، القاهرة ، ١٩٦٨م .

ابن شداد ، بهاء الدين (ت : ٦٣٢هـ/١٢٣٤م) .

ــ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية المعروف سيرة صلاح الدين ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، الدار المصرية ، مصر ، ١٩٦٤م .

الشرقاوي ، عبدالله (ت : ١٢٢٧هـ ـ١٨١٢م) .
ـ تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ، موجود بهامش كتاب اخبار الأول فيمن تصرف من ارباب الدول ، للاسحاقي ، المطبعة الازهرية ، مصر ، ١٨٩٢م .

ابن صصري ، محمد بن محمد (ت : ٨٠٠هـ/١٣٩٧م) .
ـ الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية ، تحقيق : وليم م. بريز ، د / م ، لندن ، ١٩٦٣م .

الصيرفي ، علي بن داؤد (ت : ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤م) .
ـ نزهة النفوس والابدان في تواريخ الازمان ، تحقيق : حسن حبشي ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ،١٩٧٠م .

ابن طولون ، شمس الدين محمد (ت : ٩٥٣هـ/١٥٤٦م) .
ـ مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (تأريخ مصر والشام) ، تحقيق : محمد مصطفى ، المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٢م .

الظاهري ، غرس الدين بن شاهين (ت :٧٨٣هـ/١٤٦٧م) .
ـ زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تحقيق بولس راميس ، المطبعة الجمهورية ، باريس ، ١٨٩٣م .

ابن عبد الحق ، صفي الدين عبد المؤمن البغدادي (ت : ٧٣٩هـ/١٣٣٨م) .
ـ مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٥٥م.

العيد روسي ، محيي الدين عبد القادر بن شيخ (ت : ١٠٣٧هـ/١٦٢٧م) .
ـ تأريخ النور السافر عن اخبار القرن العاشر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٥م .

ابن العديم ، عمر بن احمد هبة الله (ت : ٦٦٠هـ/١٢٦١م) .
ـ زبدة الحلب في تأريخ حلب ، تحقيق : سامي الدهان ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٥٤م .

ابن عرب شاه ، احمد بن محمد بن عبدالله (ت : ٨٥٤ هـ/١٤٤١م) .

ــ عجائب المقدور في اخبار تيمور ، المطبعة العامرة العثمانية ، مصر ، ١٩٠٥م .
العصامي ، عبد الملك بن حسين (١٠٤٩هـ/١٦٣٩م) .
ــ سمط النجوم العوالي في انباء الاوائل والتوالي ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٩٦٠م .
العليمي ، عبد الرحمن بن محمد (ت : ٩٢٧ هـ/ ١٥٢٠م) .
ــ الانس الجليل بتاريخ القدس الخليل ، تحقيق : محمد بحر العلوم ، المطبعة الحيدرية ، النجف ، ١٩٦٨ .
العيني ، محمود بن احمد (ت : ٨٢٥ هـ/١٤٢١م) .
ــ السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي ، تحقيق : محمد شلتوت واخرون ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٧م .
الغياثي ، عبد الله بن فتح الله البغدادي (ت : ٨٧٤ هـ /١٤٦٩م) .
ــ التاريخ الغياثي ، دراسة وتحقيق : طارق نافع الحمداني ، مطبعة اسعد ، بغداد ، ١٩٧٥م .
الفاسي ، أبي الحسن بن محمد (ت : ٨٣٢ هـ/١٤٢٨م) .
ــ وصف افريقيا ، تحقيق:محمد الحجي واخرون ، الشركة المغربية ، الرباط ، ١٩٨٢ .
ابو الفداء ، عماد الدين اسماعيل بن محمد (ت : ٧٣٢هـ/١٣٣١م) .
ــ تقويم البلدان ، د. م. ، باريس ، ١٨٤٠م .
ابن الفرات ، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت : ٨٠٧ هـ/١٤٠٤م) .
ــ تأريخ ابن الفرات ، مطبعة حداد ، البصرة ، ١٩٧٦م .
ابن ابي الفضائل ، المفضل (ت : ٦٧٢هـ/١٢٧٣م) .
ــ النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تأريخ ابن العميد ، مطبعة باريس ، د / م ،١٩٢٨م .
القرماني ، احمد بن يوسف بن احمد ، (ت : ١٠١٩هـ/١٦١٠م) .
ــ اخبار الدول واثار الأول في التاريخ ، عالم الكتب ، بيروت ، د / ت .
القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود (ت : ٦٨٢هـ/١٢٨٣م) .
ــ آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٠م .
ابن القلانسي ، أبي يعلي حمزة (ت : ٥٥٥هـ / ١١٦٠م) .

ـ ذيل تأريخ دمشق ، مطبعة الاباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٩٠٨م .
القلقشندي ، أحمد بن علي (ت : ٨٢١ هـ / ١٤١٨م) .
ـ صبح الاعشى في صناعة الانشا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٧م .
الكتبي ، محمد بن شاكر (ت : ٧٤٦ هـ / ١٣٤٥م) .
ـ عيون التواريخ ، تحقيق : نبيلة عبد المنعم وآخر ، دائرة المنشورات الثقافية للنشر ، بغداد ، ١٩٨٤م .
ابن كثير ، الحافظ (ت : ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢م) .
ـ البداية والنهاية ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ١٩٧٧م .
المسعودي ، علي بن الحسن بن علي (ت : ٣٤٦ هـ / ٩٥٧م) .
ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق : يوسف اسعد داغر ، دار الاندلس ، بيروت ، ١٩٦٥م .
المقدسي ، شمس الدين محمد بن احمد (ت : ٣٨٠هـ / ٩٩٠م).
ـ احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١١٩٠٦م .
المقريزي ، تقي الدين احمد بن علي (ت : ٨٤٥ هـ /١٤٤١م) .
ـ إغاثة الامة بكشف الغمة ، تحقيق : محمد مصطفى زيادة واخرون ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٧م .
ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق : محمد مصطفى زيادة ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٠م ؛ ج١ ق٣ ، ج١ ق٤ ، ج٢ ق٢ (١٩٤٢م) ؛ ج٢ ق٣ (١٩٥٨م) ؛ ج٣ ق١ ، ج٣ ق٢ ، ج٣ ق ٣ ، ج٤ ق١ ج٤ ق٢ ، تحقيق : سعيد عبد الفتاح عاشور ، مطبعة دار الكتب ، مصر ، ١٩٧٠م .
ـ المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والاثار المعروف بالخطط المقريزية ، مطبعة الاوفست ، بغداد ، د / ت .
المكي ، قطب الدين محمد بن احمد (ت : هـ) .
ـ البرق اليماني في الفتح العثماني ، دار اليمامة ، الرياض ، ١٩٦٧م .
ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم (ت : ٧١١هـ / ١٣١١م) .

ـ لسان العرب ، ط٣ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٤م .

الهمذاني ، أبي بكر احمد بن محمد ، (ت : ٣٦٥هـ / ٩٧٥م) .

ـ مختصر كتاب البلدان ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٨٨٥م

ابن الوردي ، زين الدين عمر (ت : ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) .

ـ تتمة المختصر في اخبار البشر (تأريخ ابن الوردي) ، المطبعة الحيدرية ،النجف ، ١٩٦٩م .

ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبي عبدالله (ت : ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨م) .

ـ معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٧م .

ابن يحيى ، صالح (ت : ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦م) .

ـ تأريخ بيروت واخبار الأمراء البحتريين من بني الغرب، تحقيق : لويس شيخو اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٨٩٨م .

ثانياً : المراجع الحديثة

أبو غضيب ، هاني خيرو .

ـ اطلس العالم القديم والمعاصر ، دائرة المطبوعات للنشر ، عمان ، ٢٠٠٤م .

ارشيبالد ، لويس .

ـ القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠-١١٠٠م) ، ترجمة : احمد محمد عيسى ، مؤسسة فرانكلين ، نيورك ، ١٩٦٠م .

ارنولد ، السير توماس.

ـ تراث الاسلام ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٢م .

امين ، بكري شيخ .

ـ مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ، دار الافاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٧٢م .

امين ، عبد الامير محمد .

ـ دراسات في النشاط التجاري والسياسي الاوربي في اسيا (١٦٠٠-١٨٠٠م) ، منشورات الجامعة الاردنية ، عمان ، ١٩٨٧م .

انيس ، محمد .

ـ الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤-١٩١٤م) ، مطبعة تكنوبرنت ، القاهرة ، ١٩٨٥م .

اوزبران ، صالح .

ـ الاتراك العثمانيون والبرتغاليين في الخليج العربي (١٥٣٤-١٥٨١م) ، ترجمة : عبد الجبار ناجي ، مطبعة الارشاد ، بغداد ، ١٩٧٩م .

بالار ، ميشيل .

ـ الجمهوريات البحرية الإيطالية والتجارية في الشام وفلسطين من القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر ، ضمن كتاب الصراع الإسلامي الافرنجي على فلسطين في القرون الوسطى ، تحرير : هادية شكيل دجاني ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٩٤م .

براور ، يوشع .

ـ عالم الصليبيين ، ترجمة : قاسم عبدة قاسم واخرون ، مطبعة عين ، الاسكندرية ، ١٩٩٩م .

برنار ، صامويل .

ـ وصف مصر الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر الموازين والنقود ، ترجمة : زهير الشايب ، مكتبة مدبولي ، مصر ، ١٩٨٠م .

بروكلمان ، كارل .

ـ تأريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة : نبيه امين فارس واخر ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٧م .

البستاني ، سليمان .

ـ عبرة وذكرى او الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده ، تحقيق : خالد زيادة ، دار الطليعة ، بيروت : ١٩٧٨ م .

البعلبكي ، منير .
ـ المورد ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ٢٠٠٤م .
تدمري ، محمد عبد السلام .
ـ تأريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور عصر دولة المماليك ، المؤسسة العربية ، بيروت ، ١٩٨١م .
جرجيس ، فوزي .
ـ دراسات في تأريخ مصر السياسي منذ العصر المملوكي ، مطبعة الدار المصرية للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٥٨م .
جرنفيل ، فريمان .
ـ التقويمان الهجري والميلادي ، ترجمة : حسام محي الدين الالوسي ، مطبعة الجمهورية ، بغداد ، ١٩٧٠م .
الجنزوري ، علية عبد السميع .
ـ الحروب الصليبية (المقدسات السياسية) . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر ، ١٩٩٩م .
الجواهري ، عماد .
ـ صراع القوى السياسية في المشرق العربي منذ الغز المغولي حتى الحكم العثماني ، مطابع التعليم العالي ، الموصل ، ١٩٩٠م .
جودة ، جودة حسين .
ـ جغرافية اوربا الاقليمية ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٧٠م .
جومار .
ـ وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل ، ترجمة : فؤاد السيد ، مطبعة المدني ، مصر ، ١٩٨٨م .
حاطوم ، نور الدين .
ـ تأريخ العصر الوسيط ، دار الفكر الحديث ، بيروت ، ١٩٦٧م .
حتي ، فيليب .

ـ تاريخ العرب المطول ، مطبعة الغندور ، د / م ، ١٩٦٥م .

الحجي ، حياة ناصر .
ـ العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الاسبانية في القرنين الثامن والتاسع الهجري / الرابع عشر والخامس الميلادي ، دراسة وثائقية ، مطبعة كويت تايمز ، كويت ، ١٩٨٠م .
حسن ، علي ابراهيم .
ـ مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي الى الفتح العثماني ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٩٦٤م .
الحصري ، ساطع .
ـ البلاد العربية والدولة العثمانية ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٥٧م .
حمادة ، محمد ماهر .
ـ الوثائق السياسية والادارية للعصر المملوكي (٦٥٦-٩٢٢هـ / ١٢٥٨-١٥١٦م) دراسة ونصوص ، منشورات مؤسسة الرسالة ، بيروت ،١٩٨٠م .
حمودة ، عبد الوهاب .
ـ صفحات من تأريخ مصر في عصر السيوطي ، مطبعة دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٥م .
الخربوطلي ، علي حسني .
ـ الاسلام في حوض البحر المتوسط ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٠م .
ـ مصر العربية الاسلامية ، مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ، ١٩٦٣م .
الخفاف ، عبد علي .
ـ جغرافية العالم الاسلامي اسس عامة من المحيطين الطبيعي والبشري ، دار الشروق ، الاردن ، ٢٠٠٣م.
داهش ، محمد علي .
ـ العلاقات المغربية العثمانية (١٥١٠-١٩١٢م) ، منشورات اتحاد المؤرخين العرب ، د / م ، ٢٠٠٠م .

الدباغ ، مصطفى مراد .

ـ الموجز في تأريخ الدول الاسلامية وعهودها في بلاد فلسطين ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٨١م .

دراج ، احمد .

ـ المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري ـ الخامس عشر الميلادي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٦١م .

الدسوقي ، محمد كمال .

ـ الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، دار الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٦م .

الديب ، محمد محمود ابراهيم .

ـ الجغرافية السياسية اسس وتطبيقات ، المطبعة الفنية ، مصر ، ١٩٧٣م .

ديورانت ، ول واير .

ـ قصة الحضارة ، ترجمة : محمد بدران ، دار الجبل ، بيروت ، ١٩٨٨م .

راقد ، محمد عبد السيد واخرون .

ـ الغزو العثماني لمصر ونتائجه على الوطن العربي ، مطبعة م . ك ، الاسكندرية ،١٩٧٢م .

رفعت ، محمد واخرون .

ـ معالم تأريخ العصور الوسطى ، مطبعة مصر ، مصر ، ١٩٢٦م .

رنسيمان ، ستيفن .

ـ تأريخ الحروب الصليبية ، ترجمة : الباز العريني ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٧م .

رياض ، زهير .

ـ استعمار افريقيا ، الدار القومية ، القاهرة ، ١٩٦٥م .

زكي ، عبد الرحمن .

ـ تراث مصر في الحضارة الاسلامية ، دار النيل ، مصر ، ١٩٥١م .

الزيدي ، مفيد كاصد .

ـ موسوعة تأريخ اوربا الحديث والمعاصر ، دار اسامة ، الاردن ، ٢٠٠٤م .

سالم ، عبد العزيز .
ـ تأريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي حتى الفتح العثماني ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦١م .
سرهنك ، اسماعيل .
ـ حقائق الاخبار عن دول البحار ، المطبعة الاميرية ، مصر ، ١٨٩٦م .
سعد ، احمد صادق .
ـ تأريخ مصر الاجتماعي ـ الاقتصادي ، دار الغد ، بيروت ، ١٩٧٩م .
سعيد ، ابراهيم حسن .
ـ البحرية في عصر سلاطين المماليك ، دار المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٨٣م .
سليم ، محمود رزق .
ـ الاشرف قانصوة الغوري ، دار مصر ، مصر ، د / ت .
ـ عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والادبي ، ج١ ، المطبعة النموذجية ، مصر ، ١٩٦٢م ، ج٧ ، دار الحمامي ، القاهرة ، ١٩٦٥م .
شاكر ، محمود .
ـ التاريخ الاسلامي ، المكتب الاسلامي ، بيروت ، ٢٠٠٠م .
شلبي ، احمد .
ـ الموسوعة الاسلامية ، لجنة التاليف ، القاهرة ، ١٩٦٧م .
شيشولم ، ج. ج. .
ـ الجغرافية التجارية ، ترجمة : قلم الترجمة العلمية ، مطبعة المعارف ، مصر ، ١٩١٢م .
صبرة ، عفاف سيد .
ـ العلاقات بين الشرق والغرب ، علاقة البندقية بمصر والشام في الفترة من (١١٠٠-١٤٠٠م) ، دار النهضة العربية للطبع والتوزيع والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٣م .
ضومط ، انطوان خليل .
ـ الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري (١٢٩٠-١٤٢٢م) ، الدار الحديثة ، بيروت ، ١٩٨٢م .

ابو طالب ، حسن .

ـ علاقات مصر العربية ١٩٧٠-١٩٨١م ، مرحلة السادات ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٩٨م .

طرخان ، ابراهيم علي .

ـ المسلمون في اوربا العصور الوسطى ، مطابع سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٦٦م .

ـ مصر في عصر المماليك الجراكسة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٠م .

طلس ، احمد اسعد .

ـ عصر الانحدار ، يشتمل على تأريخ العراق وبلاد الشام ومصر ، دار الاندلس ، بيروت ، ١٩٦٣م .

عاشور ، سعيد عبد الفتاح .

ـ أوربا العصور الوسطى ، مكتبة الانجلو المصرية ، مصر ، ١٩٧٢م .

ـ أوربا في العصور الوسطى النهضات والحضارة والنظم ، دار وهدان للطباعة والنشر ، مصر ، ١٩٧٨م .

ـ بحوث ودراسات في العصور الوسطى ، دار الاحد ، بيروت ، ١٩٧٥م .

ـ الحركة الصليبية ، مطابع سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٧١م .

ـ حضارة ونظم اوربا في العصور الوسطى ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٦م .

ـ العصر المماليكي في مصر والشام ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٦م .

ـ قبرص والحروب الصليبية ، مكتبة النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٥٧م .

ـ مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٢م .

العبادي ، احمد مختار .

ـ تأريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام في عصري الايوبيين والمماليك ، دار الاحد البحيري ، بيروت ، ١٩٧٢م .

ـ قيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٦٩م .

عبد التواب ، عبد الرحمن محمود .
ــ قايتباي المحمودي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر ، ١٩٧٨م .
عبد الجواد ، توفيق حمد .
ــ تأريخ العمارة والفنون الاسلامية ، دار وهدان للطباعة والنشر ، د / م ، ١٩٧٠م .
عبد السيد ، حكيم امين واخر .
ــ قيام دولة المماليك الثانية ، الدار القومية ، القاهرة ، ١٩٦٦م .
عثمان ، شوقي عبد القوي .
ــ تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الاسلامية (٤١-٩٠٤هـ/٦٦١-١٤٩٨) ، مطابع السياسة ، الكويت ، ١٩٩٠م .
العريني ، الباز .
ــ الحضارة والنظم الاوربية في العصور الوسطى ، جامعة القاهرة ، القاهرة ، ١٩٦٨م .
ــ المماليك ، دار النهضة العربية ، د / م ، ١٩٦٧م .
عزت ، يوسف .
ــ تاريخ القوقاز ، تحقيق : خستوفة عبد الحميد غالب بك ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاءه ، اسطنبول ، ١٩١٢م .
عطية الله ، احمد .
ــ القاموس الاسلامي ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٨م .
عمر ، عمر عبد العزيز .
ــ تأريخ المشرق العربي(١٥١٦-١٩٢٢م) ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٤م .
عمر ، فاروق .
ــ تأريخ الخليج العربي في العصور الاسلامية ، الدار العربية ، بغداد ، ١٩٨٦م .
عنان ، محمد عبدالله .

ــ مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٩م .

عودات ، احمد واخرون .

ــ تأريخ المغول والمماليك من القرن السابع الهجري إلى القرن الثالث عشر الميلادي ، دار الكندي ، الاردن ، ١٩٩٠م .

عوض ، محمد مؤنس .

ــ تاريخ الحروب الصليبية التنظيمات الدينية والحربية في مملكة بيت المقدس اللاتينية القرنيين (٦-٧هـ/١٢-١٣م) ، دار الشروق ، عمان ، ٢٠٠٤م .

غزالة ، حبيب .

ــ جزيرة رودس جغرافيتها وتاريخها واثارها ، د / م ، د/ م ، د / ت .

ابو غضيب ، هاني خيرو .

ــ اطلس العالم القديم والمعاصر ، دائرة المطبوعات للنشر ، عمان ، ٢٠٠٤م .

فاخوري ، مصطفى .

ــ الاقطار والبلدان ، دار المعرفة الجامعية ، بيروت ، ٢٠٠٣م .

فرح ، نعيم .

ــ تأريخ اوربا في العصور الوسطى ، مطبعة طبرين ، دمشق ، ١٩٧٨م .

فريد بك ، محمد .

ــ تأريخ الدولة العلية العثمانية ، دار الجبل ، بيروت ، ١٩٧٧م .

فشر ، هـ . أ.ل .

ــ اصول التاريخ الاوربي الحديث من النهضة الاوربية الى الثورة الفرنسية ، ترجمة : زينب عصمت راشد واخرون ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٢م .

ــ تأريخ اوربا العصور الوسطى ، ترجمة : محمد مصطفى زيادة واخرون ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٩م .

فهمي ، نعيم زكي .

ــ طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب اواخر العصور الوسطى ، مطابع الهيئة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٣م .
كاهن ، كلود .
ــ الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ، ترجمة : احمد الشيخ ، د / م ، القاهرة ، ١٩٩٥م .
كروسيه ، رينيه .
ــ الحروب الصليبية صراع بين الشرق والغرب ، ترجمة : احمد ايبش ، دار قتيبة ، دمشق ، ٢٠٠٢م .
الكناني ، مصطفى حسن محمد .
ــ العلاقات بين جنوة والشرق الادنى الاسلامي (٥٦٧-٦٩٠هـ / ١١٧١-١٢٩١م) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨١م.
لسترنج ، كي .
ــ بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة : بشير فرنسيس واخر ، مطبعة الرابطة ، د / م ، ١٩٥٤م.
لوتسكي .
ــ تأريخ الاقطار العربية الحديثة ، دار التقدم ، موسكو ، ١٩٧١م .
لين بول ، ستانلي .
ــ سيرة القاهرة ، ترجمة حسن ابراهيم حسن واخرون،مطبعة الشبكتي ، مصر ، ١٩٥٤ .
ماجد ، عبد المنعم .
ــ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، مكتبة الجامعة العربية ، بيروت ، ١٩٦٦م .
ماهر ، سعاد .
ــ البحرية في مصر الإسلامية واثارها الباقية ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، د / م ، ١٩٦٧م .
مبارك ، علي .

ــ الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة لمدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، مطبعة دار الكتب ، مصر ، ١٩٦٩م .

محمود ، علي السيد علي .

ــ العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين ، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، د / م ، الاسكندرية ، ١٩٩٦م .

المعاضيدي ، خاشع واخرون .

ــ تأريخ الوطن العربي والغزو الصليبي ، دار الكتب ، الموصل ، ١٩٨١م .

النبراوي ، محمد رأفت .

ــ السكة الإسلامية في مصر عصر دولة المماليك الجراكسة ، مركز الحضارة العربية للاعلام والنشر ، القاهرة ، ١٩٩٣م .

النقاش ، زكي .

ــ العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٥٧م .

نوري ، دريد عبد القادر .

ــ سياسة صلاح الدين الايوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة ، مطبعة الارشاد ، بغداد ، ١٩٧٦م .

هازارد ، هاري .

ــ اطلس التاريخ الإسلامي ، تحقيق : ابراهيم زكي خورشيد واخرون ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، جامعة برنستون ، ١٩٥٥م .

هنتس ، فالتر .

ــ المكاييل والاوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري ، ترجمة : كامل العسلي ، مطبعة القوات المسلحة الاردنية ، عمان ، ١٩٧٠م .

وهيبة ، عبد الفتاح محمد .

ــ الجغرافية التاريخية دراسة اصولية اقليمية ، منشاة المعارف ، الاسكندرية ، د / ت .

يحيى ، جلال .

ــ مصر الحديثة (١٥١٧-١٨٠٥م) ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، د / ت .
اليوزبكي ، توفيق سلطان .
ــ تأريخ تجارة مصر البحرية في العصر المماليكي ، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر ، جامعة الموصل ، ١٩٧٥م .
يوسف ، جوزيف نسيم .
ــ علاقات مصر بالممالك التجارية الايطالية في ضوء وثائق صبح الاعشى ، د / م ، الاسكندرية ، ١٩٧١م .
اليوسف ، عبد القادر احمد .
ــ العصور الوسطى الأوربية ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٦٧م .
يوسف ، عبد القادر الجبوري .
ــ التاريخ الاقتصادي ، دار الكتب ، بغداد ، ١٩٨٠م .

ثالثاً : الرسائل الجامعية

الجاسم ، عبد الرزاق ذنون .
ــ العلاقات السياسية والاقتصادية بين المماليك وبلاد النوبة (٦٤٤- ٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م) دراسة في التاثيرات الحضارية ، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى كلية الاداب ، جامعة الموصل ، ١٩٨٠م .
الجرجري ، جاسم محمد جاسم .
ــ بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة (٧٨٤-٩٢٢هـ/١٣٨٢-١٥١٦م) ، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب ، جامعة الموصل ، ٢٠٠٠م .
الزهيري ، حنان جاسم .
ــ العثمانيون في السياسة المملوكية ، اطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة الى كلية الاداب ، جامعة الموصل ، ٢٠٠٢م .

ـ العلاقات السياسية الملوكية التركمانية خلال عهد دولة المماليك الجراكسة ٧٨٤هـ/٩٢٣م ، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب ، جامعة الموصل ، ١٩٩١م .

صالح بك ، عمر سلهم صديق .

ـ الحركة الصليبية في ساحل شرق افريقيا (٦٦٩-٩٥٠هـ/ ١٢٧٠-١٥٤٣م) رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى كلية الاداب ، جامعة الموصل ، ٢٠٠١م .

الصواف ، خولة حمدون عبدالله .

ـ مصر في عهد عمرو بن العاص ، اطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة الى كلية الاداب ، جامعة الموصل ، ١٩٩٩م .

كصبان ، سعدي محمد علي .

ـ العلاقات العربية البيزنطية في جزر شرق البحر المتوسط للفترة (٢٨-٣٥٥هـ/ ٦٢٨-٩٦٥م) ، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب ، جامعة الموصل ، ٢٠٠٣م .

متروك ، عادل محمد دوينغ .

ـ الحياة العلمية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة ، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب ، جامعة الموصل ، ٢٠٠٣م .

اللهيبي ، فتحي سالم .

ـ مملكة ارمينية الصغرى دراسة في العلاقات السياسية ، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى كلية الاداب ، جامعة الموصل ، ٢٠٠٠م .

المشهداني ، ياسر عبد الجواد حامد .

ـ العلاقات المصرية الهندية (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م) دراسة في الجوانب السياسية والحضارية ، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى كلية التربية ، جامعة الموصل ، ٢٠٠٠م .

رابعاً : المقالات والبحوث

ابراهيم ، محمد كريم .

ـ العلاقات التجارية بين عدن والهند خلال القرنين السادس والسابع الهجريين / الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، مجلة المؤرخ العربي ، ع٣٣ ، دار الخليج ، ١٩٨٧م .

احمد ، ابراهيم خليل .

ـ بدايات التوجه العثماني نحو منطقة الخليج العربي ، مجلة المؤرخ العربي ، ع ٤٣ ، بغداد ، ١٩٩٩م .

الاطرقجي ، رمزية .

ـ نشاط العرب في حوض البحر المتوسط ، مجلة المؤرخ العربي ، ع ٣٩ ، الموصل ، ١٩٨٩م .

البكر ، راغب حامد عبدالله .

ـ الصليبيون والبحر الاحمر في العهدين الايوبي والمملوكي ، مجلة اداب الرافدين ، ع ٣٠ ، جامعة الموصل ، ١٩٩٧م .

الحجي ، حياة ناصر .

ـ الاوضاع السياسية والاقتصادية في حكم المؤيد شيخ في سلطنة المماليك (٨١٥-٨٢٣هـ / ١٤١٢-١٤٢٠م) ، المجلة العربية للعلوم الانسانية ، الكويت ، مج ٩ ، ع٣٦ ، ١٩٨٩م .

الحداد ، محمد يحيى .

ـ مقاومة العرب للنشاط البرتغالي البحري بعد اكتشاف راس الرجاء الصالح الى الهند ، مجلة المؤرخ العربي ، بغداد ، ع ٤٥ ، بغداد ، ١٩٩٣م .

الحمداني ، طارق نافع .

ـ التحدي البرتغالي للوطن العربي ووسائل التخلص منه ، مجلة الوثيقة ، ع ٢٨ ، البحرين، ١٩٩٥م .

حمدي ، صبري فالح .

ـ البحرين خلال السيطرة البرتغالية (١٥٠٧-١٦٠٢) مجلة الوثيقة ، ع ٣٤ ، البحرين ، ١٩٩٨م .

دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة : احمد الشنتاوي واخرون ، دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٦٩م .
ــ سوبرنهايم ، مادة برسباي ، مج٧ .
ــ ج ، فيت ، مادة برقوق ، مج ٧ .
ــ كراموز ، مادة سليم الأول ، مج١٢ .
دياب ، صابر محمود ، دراسات في العلاقات بين المدن الإيطالية والدول الإسلامية ، بين القرنيين العاشر والثاني عشر ، مجلة جامعة القاهرة بالخرطوم ، ع٤ ، ١٩٧٣م .
رزوق ، محمد .
ــ صفحة من صفحات التاريخ المشترك بين المغرب والخليج العربي خلال القرن السادس عشر (الغو البرتغالي كنموذج) ، مجلة حوليات كلية الاداب والعلوم الانسانية ، ع٢ ، قطر ، ١٩٨٥م .
السورجي ، محمد محمود .
ــ اولى الانتصارات العربية في العصر الحديث طرد البرتغاليين من عمان (١٦٥٨م) ، مجلة المؤرخ العربي ، ع ٤١-٤٢ ، بغداد ، ١٩٩٠م .
طرخان ، ابراهيم علي .
ــ البرتغاليون في غرب افريقيا ، مجلة كلية الاداب ، مج ٢٥ ، ع١ ، القاهرة ، ١٩٦٧م .
عاشور ، سعيد عبد الفتاح .
ــ بعض اضواء على العلاقات بين جنوا وتونس ، مجلة كلية الاداب ، ع ، جامعة القاهرة ، ١٩٦٩م .
عبد الرحيم ، عبد الرحيم عبد الرحمن .
ــ العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الولايات العربية ابان العصر العثماني ١٥١٧-١٧٨٩م ، المجلة العربية للعلوم الانسانية ، مج٢ ، ع٩ ، الكويت ، ١٩٨٣م .
ــ نشوء الرأسمالية المحلية في مصر في العهد العثماني (١٥١٧-١٧٩١م) استناداً الى المحاكم الشرعية المصرية ، المجلة العربية للعلوم الانسانية ، مج٥ ، ع ١٨ ، الكويت ، ١٩٨٥م .

عبيد ، طه خضر .
ـ قبرص بين العرب والبيزنطيين (٢٨-٣٥٥هـ/٦٤٨-٩٦٥م) ، مجلة اداب الرافدين ، ع٣٢ ، الموصل ، ١٩٩٩م .
عوض ، عبد العزيز .
ـ الاحتلال البرتغالي لموانئ الجزيرة العربية ، مجلة المورخ العربي ، ع ٢٩ ، بغداد ، ١٩٨٦م .
غنام ، علي .
ـ كيف نجحت دولة اوربية صغيرة في استعمار بلدان كبيرة ، مجلة المؤرخ العربي ،مج ١٩ ، ع ١ ، بغداد ، ١٩٨٧م .

خامساً : الكتب الاجنبية

Abdallh , Hassan .
-- The Hand Book Of Egypt , Printing House Cairo , Cairo , ١٩٦٦.
Ashtor , Eliyahu .
-- Studies On The Levantine Trade In The Middle Ages , Great Britain , London , ١٩٧٨.
Ayalon , David .
-- Gunpowder Firarms In The Mamluk Kingdom , Great Britain , London , ١٩٥٦.
-- Lesclavage Du Mamelouk , Jerusalem , ١٩٥١.
Bury , J. B. .
--The Cambridge Medieval History , Great Britain , London , ١٩٦٤.
Chronicales , Hadrami .
-- The Portuguese Of The South Arabian Coast ,No. P. Oxford , ١٩٦٣.

Davis , R. H. C. .

-- A History Of Medieval Europe , Great Britain , London , ١٩٦٦ .

Fischel , Walter J .

-- Ibn Khaldon In Egypt , United States Of America , California , ١٩٦٧ .

Fisher , Sydney Netteton .

-- The Middle East History , Lund Humphries , London , ١٩٦٠ .

Gapriel , Francesco .

-- A Short History Of The Arabs , Great Britain , London , ١٩٦٥ .

Harris , J. R. .

-- The Legacy Egypt , Great Britain , London , ١٩٧٧ .

Hitti , K. Philip .

-- History Of The Arabs , Great Britain , London , ١٩٦٤ .

-- A Short History Of The Near East , United States Of America , New York , ١٩٦١ .

-- The near in history A ٥٠٠٠ Year Story , United States Of America , New York , ١٩٦١

Holt , P. M.

-- Egypt And Ferrile Crescent (١٥١٦- ١٩٢٢) , No. p. , London , ١٩٦٦ .

-- Political And Social Change In Modern Egypt , No. P. , London , ١٩٦٨.

-- Studies In The History Of The Near East , No. P. London , ١٩٧٣

.

Hottinger , Arnold .

-- The Arabs their history Cultuer and plece in the Modern World , Great Britain , London , ١٩٦٠ .

Kirk , George. E.

-- A Short History Of Middle East , Methuen Colted , London , ١٩٦٤ .

Lane – Poole , Stanly .

-- History Of Egypt In The Middle Agest , Holland , ١٩٦٨ .

Little , Tom .

-- Modern Egypt , Great Britain , London , ١٩٦٦ .

Mirepoix , Camille .

-- The Missle East Arab States , No. P. , London , No. Dt. .

Pirenne .

-- Economic And Social History Of Medieval Europe , Great Britain , London , ١٩٦٦ .

Smith , Wilfred Cantwell .

-- Islam In Modern History , United States Of America , New York , ١٩٦٦ , ١٩٦٦ .

Spuler , Bertold .

-- The Muslim World , Netgrlands , Leiden , ١٩٦٠ .

Stevenson , W.B.

-- The Crusader In The East , Slim Press , Beirut , ١٩٦٨.

Toussant , Auguste .

-- History Of The Indian Ocean ,No. P. , London , ١٩٦٦ .

سادساً : البحوث الانكليزية

Fischel , Walter .

– The Spice Trade In Mamluk Egypt , Journal Of The Economic And Social History Of The Orient , London , ١٩٦٠ .

Inalik , Halit .

-- Bursa And The Commerce Of The Levant , Journal Of The Economic And Social History Of The Orient , Leidan , ١٩٦١ .

Shoshan , Boaz .

– Exchange Rate Policies Fifteen The Century Egypt , Journal Of The Economic And Social History Of The Orient , Netgerlands , Brill , ١٩٨٦ .

سابعاً : الموسوعات الاجنبية

Encyclopedia Britannica , London , ١٩٦٦ .

-- Art : " Argon " , " Bayezid II " , " Bergen " , " Catalonia " , " Commune " , " Egypt" , "Genoa" , "Italy", " Messina , " Murad II " , " Purtogal " , " Ragus " , " Selim I " , " Venice " .

The Encyclopedia of Islam , Leiden , Brill , ١٩٦٧ .

-- Art : " Barkuk " , " Consul " .

ABSTRACT

Mamluk and Circassian state considered as the most important Islamic powers after the Seventh century A.H– and Ten Third A.D which are represented by its wide political power in region, cause it prevented Mongolian invasion (AL-Taymori) and Purtaghlian invasion, which threatened its trade and varied relationships between enemy and friend with Othman state.

Where as the civilization level, there are many singes of this age, but the economical level it was extending to different sides especially the commercial side which was considered and vertebra back for Circassian state. The matter which pushed me to study part of this history which focused on Mamluk and Circcassian that means The Second Sultanate Mamluk . it was complete recoding my thesis under the title (***The Egyptian – European Relations during the Mamluk Sultanate–Al Circassian in ٧٨٤-٩٢٢ A.H/١٣٨٢-١٥١٦ A.D). (A political and economical study****)and the thesis Was divided into introduction and fuor Chapters :-*

This introduction Deals With the concerned in political realations and this first part classified into three chapters the first includes the imprtance of geagraphical location for Egypet and its name, and how leaded to the coming of Mamaleak and Circassian to Egypt until reached to the age of Barqouq Sultan (the man who established the jarakesiah state).

The first chapter handled the Crossic and Egyptain relations in the islands of Miditerrean in the two islands (Quabras and Rudusss)

which are considered a direct dangours on the Circassian state because of its trade geographical location.

The Second chapter also concerned with European powers which are representing by the kindoms (Spain and Italia) in addition to the french and Egyptian relations at that time

Were as the Third chapters deals with Eurpean and Egyptain econimical releations and the factors of trade flroushing. Finally the Fourth Chapter deals With focused on studying the most important factors which leads to damage the bridge of Cirassian state which ruled about century and qurter.

This study concluded many results, the most are the follwoing-:

١. *Establishing the state of Jarkassish and its raised related into two factors:- first factors, the weakness of the first Bahreyia state and coming the Sultans who have not any political ability to lead the state .Second ،The personality of King Barquaq sultan, the real establisher for Circassian state who has political and adminstration ability.*

٢. *This Circassian style specialized in following diplomiatc style towards the (foreign merchants) who were exsiting in its lands and keeping them on its lands to use them as a pressure protecting tool for Jarkassiah state politically and economically.*

٣. *It was showing from this study the improtant of geographical Location which enabled it to control on trad's roads and made it as linking ring between east and west in transporting goods, and commerical goods from and into European .*

٤. It was explaining from events that the first and last aim of European powers is finishing on Muslims specially the location of Islamic rule in Egypet even that if cost it to coaperat with its Eorupeain enemies and leaving the misunderstangs aside just to reach to its aim .

٥. at last the study showed that the policy which is following by the Circassian Sultans and their orders to point some certain goods on Eurpean merchents and obliged them to buy it. This caused to complain and and to find new road (which was Called cape of good Hope) discovered by Portugal. This leaded to ruin its state cause it was the main for its falling.

.٦The reasons of Circaessian destruction related to many external and inner reasons coming in the first.

A. Economical element-:

which is considered main reason which was eating the state's body from inside .

B. Political element-:

Which is representing by dividing the political opinions for inner powers which are representing by AL Sultan Al Ghuri and some of his princes towards the Othman state, where they tried behind this to achieve personal interests ,although this inner division but the external element which was represent by Othman state and its extending policy it was great effect in destructing the bases of Circassian state on (٩٢٢.A.D/ ١٥١٦ P.D)

الملاحق والأشكال

أولاً : الملاحق

الملحق رقم (١)

مخطط بأسماء السلاطين الجراكسة وسنوات حكمهم

التسلسل	أسم السلطان	سنوات حكمه	ملاحظات
	الظاهر سيف الدين أبو سعيد برقوق	(٧٨٤-٧٩١هـ/١٣٨٢-١٣٨٨م)	٧ سنوات / خلع
	الصالح صلاح الدين حاجي بن شعبان	(٧٩١-٧٩٢هـ/١٢٨٨-١٣٨٩م)	من سلاطين المماليك البحرية
	الظاهر سيف الدين أبو سعيد برقوق	(٧٩٢-٨٠١هـ/١٣٨٩-١٣٩٨م)	للمرة الثانية ٩سنوات / توفي
	الناصر فرج بن برقوق	(٨٠١-٨٠٨هـ/١٣٩٨-١٤٠٥م)	٧ سنوات / خلع
	المنصور عبد العزيز بن برقوق	(ربيع أول-جمادى ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)	(ثلاثة اشهر) / قتل
	الناصر فرج بن برقوق	(٨٠٨-٨١٥هـ/١٤٠٥-١٤١٢م)	للمرة الثانية (٧ سنوات) قتل
	المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي	(٨١٥-٨٢٤هـ/١٤١٢-١٤٢١م)	(٩ سنوات) / توفي
	المظفر احمد بن شيخ	(محرم-شعبان ٨٢٤هـ/١٤٢١م)	(عدة اشهر) / خلع
	الظاهر سيف الدين أبو الفتح ططر	(شعبان-ذي الحجة٨٢٤ هـ/١٤٢١م)	(٩٤يوماً) / توفي
١٠	الصالح محمد بن ططر	(٨٢٤-٨٢٥هـ/١٤٢١-١٤٢٢م)	(٤٤يوماً) / خلع
١١	السلطان الأشرف برسباي	(٨٢٥-٨٤١هـ/١٤٤٢-١٤٣٨م)	(١٦ سنة) / توفي
١٢	السلطان العزيز يوسف بن برسباي	(٨٤١-٨٤٢هـ/١٤٣٨م)	(٩٤يوماً) / خلع
١٣	السلطان الظاهر جقمق	(٨٤٢-٨٥٧هـ/١٤٣٨-١٤٥٣م)	(١٥ سنة) توفي
١٤	الأشرف أينال العلائي	(٨٥٧-٨٦٥هـ/١٤٥٣-١٤٦١م)	(٧ سنوات) / توفي
١٥	الظاهر خشقدم الرومي	(٨٦٥-٨٧٢هـ/١٤٦١-١٤٦٧م)	(٧ سنوات) / توفي
١٦	الظاهر تمريغا الرومي	(٨٧٢هـ/١٤٦١م)	(٥٧ يوماً) / خلع
١٧	الأشرف قايتباي	(٨٧٣-٩٠١هـ/١٤٦٨-١٤٩٦م)	(٢٩ سنة) / توفي
١٨	الأشرف محمد بن قايتباي	(٩٠١-٩٠٤هـ/١٤٩٦-١٤٩٨م)	(سنة واحدة) / خلع
١٩	الناصر محمد بن قايتباي	(٩٠٢-٩٠٤هـ/١٤٩٦-١٤٩٨م)	للمرة الثانية (سنتان) / خلع
٢٠	الظاهر قانصوة الاشرفي	(٩٠٤-٩٠٥هـ/١٤٩٨-١٥٠٠م)	(سنة) / خلع
٢١	السلطان الأشرف جانبلاط	(٩٠٥-٩٠٦هـ/١٥٠٠-١٥٠١م)	(ستة اشهر) / قتل
٢٢	الأشرف قانصوة الغوري	(٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠١-١٥١٦م)	(١٧سنة) / قتل
٢٣	الأشرف طومان باي الثاني	(٩٢٢-٩٢٣هـ/١٥١٦-١٥١٧م)	(اقل من سنة) / قتل

نقلاً عن : متروك ، الحياة العلمية ، ص ٣٠-٣١ .

الملحق رقم (٢)

يوضح النقود الذهبية والفضية في عهد السلطان الناصر فرج



نقلاً عن : النبراوي ، السكة الإسلامية ، ص٣٧٣ ، ٣٧٥

الملحق رقم (٣)

يوضح الشروط الجركسية الفلورنسية في عهد السلطان قايتباي .

مرسوم بشأن الامتيازات التجارية الممنوحة لطائفة الفرنتيين في مصر وسوريا بناء على طلب جمهورية فلورنسا ورئيسها الافخم لورنزوديميدتش والمقدمة بواسطة التجار لمنحهم امتيازات مثل ما للبنادقة في بلادنا .

فصل (١) لا يتعرض احد لاي تاجر فلورنسي ولا لتجارته ولا لحاجاته ولا لممتلكاته ولا لسفنهم ولا لاشخاصهم ولا لقنصلهم بأي شيء ضد العدل كما لا يطالبون بدفع ضرائب ازيد من المطلوب على متاجرهم إلا حسب العرف القديم كما يظهر للديوان وكما يدفع البنادقة حالياً دون اتخاذ أي اجراء مضاد مخالف للعدل والنظام . ولذلك نأمرك ايها الأمير الحاكم حاكم الاسكندرية ان يجب ان تعمل وتلاحظ تنفيذ هذه الاوامر مع عدم القيام بأي اجراء مضاد .

فصل (٢) إذا حدث بيع أو شراء بين تجارنا والتجار الفرنتيين فان هذا البيع والشراء يجب ان يحدث أمام شهود واذا حدث ان تحلل احد الطرفين من الاتفاق على البيع أو الشراء دون موافقة أو رغبة الطرف الآخر فانه في هذه الحالة يجب عليك أيها السيد امير الاسكندرية ان تراعي القانون في حل هذه المشكلة وان يكون الشراء والبيع منذ ذلك الوقت باشراف القانون أمام شهود لا ماكن تحديد المسئولية .

فصل (٣) يقول التجار الفرنتيون ان بعض تجارنا يشترون من هؤلاء التجار الفرنتيين أثواباً وأقمشة وكماليات وحريراً وأنواعاً أخرى كثيرة من التجار ، ويتاجرون بها في اماكن كثيرة ، ولكنهم أحياناً لا يجدون من يشتريها منهم ، وحينئذٍ يعودون بها إلى التجار الفرنتيين مرة اخرة لاسترداد اموالهم ورد السلع ، ولما كان هذا ضد العدل والحق وليس فيه أي حرية لذلك نامرك ايها السيد الأمير ان تراعي عدم حدوث مثل هذه الامور وان تستمر في المعاملة كما كان سابقاً وينال كل فرد حقه بالعدل .

فصل (٤) يقول التجار الفرنتيون ان بعض تجارنا يعاملوهم بطريق المقايضة وقد جرى العرف انه في حالة المقايضة يكون سعر السلعة المقابض عليها لاي الطرفين اكبر قليلاً من السعر في حالة الدفع نقداً لهذه السلعة ، ولكن يحدث احياناً ان يرفض التاجر المسلم استلام السلعة المقايض عليها ويطلب الثمن على اساس السعر المرتفع (عن سعر المقايضة) للانتفاع بفرق السعر ، ولما يرفض التاجر المسيحي تصير خناقة ضخمة يحاول فيها التاجر

المسلم استغلال وجوده في بلده والمطالبة بالسعر المرتفع لسلعته دون السلعة الأخرى موضوع المقايضة ولما كان في هذا ظلم صارخ للتاجر الفرنتي لذلك نأمرك ايها السيد أمير الاسكندرية بالا يحدث مثل ذلك ، واذا حدث أي انفاق فسيكون الشهود ويلزم الطرفين بالعدل .

فصل (٥) إذا حدث خلاف بين تاجر من الفرنتيين وتاجر مسلم وأراد كلاهما الاستئناف أمام السلطان فيجب ان ييسر لهما الأمر ، وفي حالة غيابنا ينوب عنا الحاكم أو نائبه أو كاتب (كاتب الديوان) لذلك نامرك ايها السيد أمير الاسكندرية بان يراعى ما جاء بهذا الأمر وينفذ بكل دقة والا يمنع أي شخص من المثول أمام السلطان لمقاضاة وخاصة من التجار الفرنتيين .

فصل (٦) يقول التجار المذكورون ان الحمالين والمكاريين الذين كانوا يحملون التوابل من مكان لاخر ، يعدون إلى سرقة التوابل ثم غشها بوضع مواد غريبة اخرى بدل الماخوذ وهذه الطريقة تضر التجار المذكروين لذلك نأمرك ايها السيد أمير الاسكندرية ان تراقب هذه الاشياء وتجلد الحمالين والمكاريين المذكورين وتحل محلهم غيرهم وتعطى التجار تعويضاً لذلك من الجزء المزيف ــ ونأمرك ايها السيد أن تراعي ما جاء بامرنا هذا وتنفذه ..

فصل (٧) يقول التجار الفرنتيين انهم بعد وصولهم إلى الاسكندرية وموانئ سورية والمدن الأخرى في بلادنا بمتاجرهم ، ويدفعون الضرائب المطلوبة ويحاولون بعد ذلك اخراج متاجرهم للسوق فيمنع ذلك عمال الجمرك وعمال الميناء وموظفو السلطان ويريدون ان يتم البيع بالجمرك قبل اخراج المتاجر إلى الأسواق ــ وان الموظفين لا يعطون للتجار الثمن الذي تساويه السلع ، وانه عند دفع ضرائب الجمرك ، يجبرون على دفع رسوم اكثر مما يعود على هؤلاء التجار بضرر كبير ، لذلك نأمرك ايها السيد الأمير انه بمجرد دفع التاجر الفرنتي الضرائب الجمركية يمكنه ان يخرج إلى أي مكان يريده أو يخزنها أو يبيعها كما يشاء ، ولا يجبر احد على ان يشتري أو يبيع غير ما يريد كما يجب ان يكون تقدير ثمن السلعة المذكورة ودفع الضريبة المطلوبة عنها بما تساويه فعلاً عند وصولها لبلادنا ونامرك ايها السيد الأمير بمراعاة ذلك عند وصول هؤلاء التجار ...

فصل (٨) كما كان يجري العرف سابقاً انه يجب إلا يدفع التاجر الفرنتي رسوم المتاجر والسلع إلا حين في ديوان الجمرك ، واذا كان للتاجر الفرنتي نقود من مدة سابقة فانه يعد بيعه سلعة ويريد خصم الرسوم المطلوبة من الحساب الذي له لدى الجمرك فيجب ان ييسر له هذا الأمر ، لان التجار يشتكون من ان الجمرك لا يريد خصم الرسوم مما يستحقه التجار لديه من اموال كما لا يريدون اعطاءهم الباقي . لذلك نأمرك ايها السيد الأمير ان تلاحظ العرف القديم وان التجار الفرنتيين لا يجب ان يدفعوا الرسوم إلا إذا كانت السلع في جمرك (أي لا يدفع

مقدماً ويدفع الرسوم حين وصول السلع إلى جمرك) ويجب ان تعمل لـه تسوية حساب للمطلوب والخصم مثلما تفعل تماماً مع التجار البنادقة لذلك نأمرك ايها السيد الأمير ان تراعي ذلك والا تفعل غير ما نامرك به كما نفعل نحن مع البنادقة .

فصل (٩) جرى العرف القديم انه إذا مات تاجر مسيحي ، فان قنصل دولتـه وحـده هـو المختص بالاشراف على سلع هذا التاجر المتوفى ، أو من ينيبه القنصل سواء كان وكيلـه أو احد تجار طائفته ، لذلك نامرك يا حضرة الأمير انه بالنسبة للتجار الفرنتيين يسري العـرف السابق .

فصل (١٠) يحدث أحياناً يعد وصول مراكب الجالير (القطائع) للفرنتيين وعليها تجـارهم ان تحجز السفن والتجار بواسطة الجمرك أو كبار تجارنا الوطنيين فلا يستطيع الفرنتيون البيع والشراء إلا إذا قررت اسعار التوابل لهذه المدة ، وهذا يسبب تعطيل التجـار ويـسبب لهـم خسائر كبيرة ــ لذلك نامرك ايها الأمير ان تكون الموافقة وتحديد السفر جاهزة قبول وصول هؤلاء التجار بسفنهم والا توضع اية عقبة في سبيل البيع والشراء كما هو الحال بالنسبة لتجار البندقية .

فصل (١١) يقول تجار الفرنتيين ان بعض التجار المسلمين كثيرا ما يشكوهم للسلطان فـي دعاوي لا اصل لها مما يسبب لهم خسائر جسيمة لذلك نامرك ايها الأمير انه إذا حدث مثـل هذا فان التاجر المسلم لا يحق له ان يستدعى التاجر المسيحي إلا إذا اعلنت الشهادة الواجبـة بما حدث ، وحينئذٍ إذا لم يدفع التاجر المسيحي المطلوب منه ، فيجب ان يمثل أمام القاضي أو السلطان في حالة الاستئناف والقضاء هو وحده المختص بذلك .

فصل (١٢) جرى العرف ان قنصل البنادقة في دمشق يشرف على جمرك مواطنيه وسلعهم به كما ان قنصلهم بالاسكندرية يراقب حركة تجارة مواطنيه ، لذلك نامرك ايها الأميـر ان تعطي قنصل الفرنتيين في الاسكندرية ودمشق نفس الوظيفة التي لقناصل البندقية في بلادنا .

فصل (١٣) إذا دفع التاجر الفرنتي رسوم الجمارك على سلعة في بيروت فلا يلـزم بـدفع رسوم اخرى على سلع دمشق إلا إذا اوصلت هذه السلع إلى دمشق فعـلا فتحـصل عليهـا الرسوم، لذلك نامرك ايها الأمير نائبنا على دمشق وبيروت ان تراعي ذلـك مـع التجـار الفرنتيون حسب ما هو متبع مع تجار البندقية .

فصل (١٤) كما جرى العرف السابق إلا يؤخذ تاجر بجريرة أو ذنب تاجر آخر إلا إذا كان التاجر الأول ضامنا شخصيا ملزما للثاني ، لذلك نامرك ايها الأمير بالنسبة لتجار الفرنتيين ان تراعي ما هو متعارف عليه وما هو متبع بالنسبة لتجار البندقية .

فصل (١٥) جرى العرف انه إذا نهب قراصنة المسيحيين سفن المسلمين في البحر ثم جاءت سفن الفرنتيين إلى موانينا فان تجارنا وعمالنا يجبرونهم على دفع تعويض عما لحق بالمسلمين من اضرار بواسطة قراصنة المسيحيين ـــ فنامرك ايها الأمير ان تبطل هـــذا ، والا يجبـــر هؤلاء التجار على دفع تعويض ايا كان ولا يؤخذوا بجريرة القراصنة المسيحيين ويضع هـــذا الأمر موضع التنفيذ مثل ما هو متبع مع البنادقة تماما .

فصل (١٦) حيث انه من الضروري لهؤلاء التجار ان ينتقلوا من ميناء لاخر ومن بلد لاخر لجمع المتاجر المطلوبة فهم يحتاجون للميره لمعيشتهم ، لذلك نامرك ايها الأمير نائبنـــا انـــه بالنسبة للتجار الفرنتيين لا يمنع عنهم ما يحتاجون إليه من الميرة ـــ في رحلاتهم ويلبســـون الملابس المماليكية ويتجولون امنين إذا ارادوا في أي مكان يشاءون فعليهم ايها الأمير نائبنـــا مراعاة إلا يتعرض لهم أي احد في الطريق كما يراعي إلا يغلق باب فندقهم إلا لـــيلا ويظـــل مفتوحا طول اليوم .

فصل (١٧) إذا جاءت سفن فلورنسية بمتاجرها فلا تجبر على دفع الجمارك إلا بعد التفريغ ، واذا لم يوجد من يشتري هذه السلع ويريد اصحابها اعادتها مرة اخرى إلى الـــسفينة فلهـــم الحرية في ذلك على إلا يدفعوا رسوماً لا قبل ولا بعد الانزال ما دام البيع لم يتم ، ونـــامرك ايها الأمير ان تراعي بالنسبة لطائفة الفرنتيين على ما هو جار بالنسبة لتجار البندقية .

فصل (٢٠) إذا وجدت سفن قطائع (جالير) أو مراكب اخرى فـــي الميـنـــاء أو أي مـــوان خاصة بنا واحتاجت إلى اصلاح فعليكم مساعدتها ومنح الامتيـــازات الخاصـــة بـــذلك لهـــا ولاصحابها ولتجارها وتقديم الخدمات لهم بنقودهم ، ونامرك ايها السيد الأمير باتباع ذلك مع طائفة الفرنتيين المذكورة مثل ما يتبع مع البندقية .

فصل (٢١) إذا وجدت سفن لطائفة الفرنتيين في أي مكان تابع للسلطان وهاجمتهـــا ســـفن القراصنة فعليكم مد يد المعونة لها ومساعدتها في كل ما تطلبه بنقودهم لذلك نامرك ايها السيد الأمير اتباع ذلك مع طائفة الفرنتيين مثل ما هو متبع مع طائفة البنادقة .

فصل (٢٢) المتبع مع طائفة البنادقة انهم عندما يحضرون معهم خرافـــا بيـــضاء وســـوداء لطعامهم الخاص في فندقهم ، فان موظفينا يحصلون على بعض منها ، بدون مقابل فنحـــذركم ايها الأمير إلا تفعلوا مثل ذلك مع طائفة الفرنتيين ، كما لا تمنعوهم مـــن البيـــع بالاســـعار المناسبة ولا تجبروهم على بيع خرافهم بأسعار منخفضة بل بحرية كاملة ولفائدتهم ولا ينهبون كما هو متبع مع البنادقة .

فصل (٢٣) جرى العرف ان طائفة البنادقة تصل للميناء ومعها بعض المئونة الخاصة بهم مثل الجبنة وغيرها ، ولا يدفعون عنها رسوما إلا على التاجر فقط ، في حين ان جماركنا تحصل من الفرنتيين ما قيمته ١/٣% ، لذلك نامرك ايها السيد الأمير ان تراعي عدم الزام الرعايا الفرنتيين بدفع مثل هذه الضريبة ، كما هو متبع فعلاً مع البنادقة .

فصل (٢٤) جرى العرف في ميناء بيروت انه إذا حملت سفينة للبندقية (٥٠) طرداً من التوابل فانها تلزم بدفع خمس دوكات رسماً اضافيا لنائب بيروت واذا نقصت الحمولة عن (٥٠) طردا ، فلا تجبر على دفع شيء ، لذلك نامرك ايها السيد الأمير ان تراعي ذلك بالنسبة لطائفة الفرنتيين ، كما هو متبع مع البنادقة .

فصل (٢٥) جرى العرف انه إذا حملت سفينة رفاتا أو رمادا لموتي فان صاحب السفينة يدفع لنائب بيروت (٥) دوكات ، كما ان سفن القطائع (الجالير) تدفع (٣) دوكات عن كل واحدة لنائب بيروت ولا تدفع اكثر من ذلك . وقد اعتاد البنادقة ان يفعلوا ذلك ، فيراعي ايها السيد الأمير ان يتبع مثل ذلك مع طائفة الفرنتيين . ويراعي كذلك إلا يؤخذ تاجر باهانة وجهها بحار لاي عربي مسلم ، انما يؤخذ بالعقاب من قام بالاهانة فعلا لا غيره . لذلك نامرك ايها السيد الأمير ان تراعي تنفيذ ذلك مثل ما هو متبع مع طائفة البنادقة .

فصل (٢٦) جرت العادة انهم يدفعون عن كل جوال قطن خام رسما قدره (٨) دراهم فضة وعن كل جوال قطن خيوط ١٥ درهم فضة ، ويوجد من يريد ان يدفع اكثر من هذا لاكثر من سبب ، لذلك نامرك ايها السيد الأمير ان تراعي ذلك بالنسبة لتجار جميع الطوائف ولطائفة الفرنتيين خاصة والا يجبروا على دفع اكثر من المعتاد من الرسوم كما يفعل البنادقة . واذا حدث أي ظلم لاي تاجر واراد المثول امامنا ومعه القنصل فلا يمنع من ذلك .

فصل (٢٧) إذا ادان تاجر مسيحي آخر مسلما ولم يستطيع الحصول على باقي امواله واراد الحضور لحضرتنا فلا يمنع من ذلك ، ونامرك ايها السيد الأمير ان تراعي ذلك مثل ما هو متبع مع البنادقة .

فصل (٢٨) إذا اشترى تاجر مسيحي توابل أو سلعا من تاجر عربي ودفع الثمن واودعها عند التاجر العربي على الذمة ، ثم حاول صاحبها العربي استردادها بعد بيعها للمسيحي فلا يحق له ذلك ، إلا إذا كان المسيحي قد دفع عربونا فقط عنده . وعليك ايها الأمير ان تراعي هذا الأمر كما ان السلع لمن اشتراها مهما كانت الظروف ويحق للتاجر المسيحي صاحب

السلع ان يقاضي التاجر المسلم الذي يعيد بيع السلع وهي في ذمته ولا يلزم التاجر المسيحي بشيء سواء اكان رد البضاعة ام رد الثمن .

<u>فصل (٢٧)</u> إذا أراد القنصل ان يصل الينا للشكوى بسبب ظلم وقع عليه أو بسبب خطابات وصلته من دولته لنا ، أو لاي سبب آخر فيكون له مطلق الحرية في الحضور بدون أي عقبة، وكذلك عند وصول السفن التجارية ومتاجر التجار فهم يحضرون معهم ، دوكانات منقوشة بندقية لنقائها وجودة ذهبها وضبط وزنها ونامرك ايها السيد الأمير انه بالنسبة للتجار الفرنتيين ان يراعي ما جاء بهذا النص ولا يعمل عمل مخالف لذلك وان توجه اليهم عناية ورعاية كاملة .

ملحق لمعاهدة الامتيازات الممنوحة لطائفة الفرنتيين ببلاد السلطان المماليكي عام ١٤٨٨ ـ بامتيازات جديدة غير ما منح للبنادقة .

<u>فصل (١)</u> إذا باع مسلم توابل لمسيحي مقابل سلع اخرى نقداً أو بالمقايضة ثم رفض التاجر المسلم تسلمها بعد الاتفاق على البيع بسبب الخوف من ضياعها قبل نقلها إلى مخازنه أو لأي سبب آخر وأنها تبقى تحت مسئولية التاجر المسيحي لفترة أخرى ، فننا نأمرك أيها السيد الأمير انه بمجرد حدوث اتفاق البيع يتم الاتفاق على التسليم في مدة محدودة وعند حدوث التسليم يتخذ التاجر المسلم شاهدين ويتسلم السلع وكذلك التاجر المسيحي يسلم السلع أمام شاهدين في جمرك القبان . ثم بعد الاتفاق تخرج السلع خارج الجمرك وخارج المخازن وتبقى تحت مسئولية التاجر المسلم ولا يلزم التاجر المسيحي بشيء بعد ذلك . ويلاحظ هذا خاصة بالنسبة للتجار الفرنتيين .

<u>فصل (٢)</u> إذا دفع التاجر المسيحي رسوم الجمارك ثم تغير بعدها ناظر الخواص والموظفين الذين تسلموا الرسوم ، ولا تزال السلع بالجمرك ، فانه لا يحق للناظر الجديد أو الموظفين الجدد ان يحصلوا رسوماً جديدة ـ لذلك نأمرك أيها السيد الأمير بمراعاة عدم الدفع إلا مرة واحدة سواء تغير الناظر أو الموظفين أو بقوا . ويلاحظ هذا خاصة بالنسبة للتجار الفرنتيين .

<u>فصل (٣)</u> إذا دفع التاجر المسيحي السمسرة الخاصة بالتوابل ، ثم تغير الناظر والموظفون وحاول الجدد الحصول على سمسرة جديدة قبل ان يحصل التاجر المسيحي سلعه فيجب إلا يحدث ذلك ، ويجب ان تراعي ايها الأمير ان السمسرة لا تدفع إلا مرة واحدة فقط ، ويلاحظ كذلك ان يسرى هذا خاصة على التجار الفرنتيين .

فصل (٤) فضلاً عن هذا ، كما هو متبع مع تجار البنادقة انهم يبيعون سلعهم علـــى الـــسفن وعلى البر ، نامرك ايها الأمير بمراعاة منح هذا الامتياز للتجار الفرنتيين ، وان يمارســـوا هذا في البر والبحر كالمعتاد .

فصل (٥) جرت المادة ان التجار عندما يرحلون بالمراكب لا يدفعون رسوما جديدة ، لذلك نامرك ايها السيد الأمير ان تراعي هذا بالنسبة للتجار الفرنتيين كما هو متبع مـــع الطوائـــف الأخرى .

فصل (٦) جرت العدة ان التجار ينقلون توابلهم إلى الخارج من الاسكندرية لنقلها إلى السفن حسب ما يتراءى لهم ، لذلك نامرك ايها الأمير إلا يعوق احد لهم هذه الرغبـــة ولا تحـــصل منهم رسوم جديدة .

فصل (٧) طلب التجار الفرنتيين ان يراعي موظفو الجمرك تقدير اثمان السلع حسب تسعيره اليوم نفسه في السوق (يوازي الان سعر البورصة) يوم وصول السلع ــ وان يكـــون لكـــل سلعة رسم الجمرك المحدد لهم ــ لذلك نأمرك أيها السيد الأمير مراعاة عدم رفع الاســـعار بالنسبة لهؤلاء التجار وحساب السعر حسب سعر السوق .

فصل (٨) طلب التجار المذكورون مراعاة انه إذا باع تاجر منهم سلعا لتاجر مسلم أو اشترى تاجر مسيحي سلعة من تاجر مسلم ، ثم رجع أحدهما في كلامه ثم يعد بعد ذلك تصرف التاجر المسيحي أو المسلم في السلعة بالبيع لثالث ــ وحاول استردادها بحجة انها كانت على الذمة ــ لذلك يراعي عدم حدوث شيء من هذا ولا يلزم التاجر المشتري الجديد (الطـــرف الثالـــث) برد البضاعة ما دام البيع تم حسب القوانين أمام الشهود وان يراعي ذلـــك بالنـــسبة لتجـــار الفرنتيين خاصة .

فصل (٩) يطلب التجر المذكورون انه بعد وصول سفنهم والانتهاء من البيـــع والـــشراء لا يعوق رحيلهم باي حال من الاحوال كما يسمح لهم بالتعامل بالفرنتي الخاص بهم مثل الدوكات الذهبي البندقي .. ولا سيما ان عملتهم نقية وسليمة الوزن (الفلورين = الفرنتـــي) ، لـــذلك نامرك ايها السيد الأمير ان تراعي هذا بالنسبة لطائفة الفرنتيين .

فصل (١٠) يطلب التجار المذكورون انه بمجرد مجيئهم ومعهم قنصلهم ان يمنحـــوا فنـــدقا للاقامة وتخزين سلعهم وان يكونوا في رعايتنا الخاصة ولا يضار احدهم لاي سبب ونـــامرك ايها الأميران تسلم صورة في هذه الشروط والمنح لهؤلاء التجار وقنصلهم وللسلطات المسئولة للتنفيذ وحدوث الامان لهم .

نقلاً عن : فهمي ، طرق التجارة ، ص ٤٣٩-٤٥٠ .

الملحق رقم (٤)

يوضح البلد المنتج للبضائع وصادراته لها [١]

ت	البلد المنتج	صادراته
١.	جنوب شرق اسيا والهند	التوابل ــ العطور ــ الخشب ــ جوز النارجيل ــ الحرير ــ الاحجار الكريمة ــ الفخار ــ السيوف .
٢.	الساحل العربي وخليجه	الخيول ــ اللؤلؤ ــ العنبر ــ القور ــ البخور
٣.	الساحل الافريقي	الذهب ــ العاج ــ الحديد ــ ريش النعام ــ الرقيق
٤.	مصر	الكتان ــ المنسوجات ــ السكر ــ المسابح ــ العقود ــ الزمرد
٥.	أوربا	ملح النشادر [٢] ــ الزرنيخ ــ الحديد ــ الاسلحة ــ الجوخ ــ الشمع ــ الفراء ــ البندق [٣]

[١] نقلاً عن : عثمان ، تجارة المحيط ، ص ٢٠٧ .

[٢] ملح النشادر : يستخدم في تجفيف وصبغ الجلود المدبوغة . ينظر : عثمان ، تجارة ، ص ٢٠٧ .

[٣] علماً ان معظم تلك المواد كانت تستهلك في اسواق مصر وبلاد الشام .

الملحق رقم (٥)
يوضح تعليمات مجلس العشرة البندقية

مايو ١٥٠٤- البندقية

تعليمات مجلس العشرة في البندقية للسفير البندقي " فرانسسكو " تكلفه بالتوجه للقاهرة للتفاوض مع السلطان المماليكي " الغوري " سرا في الوسائل الممكن اتباعها لمنع توسع البرتغاليين التجاري في مياه الهند .

١. بعثة فرنسسكو تالدي إلى سلطان مصر . تقبل هذه التعليمات باسم الامير . نحن نضع فيك يا سيد فرنسسكو الثقة الكاملة . لذلك نرسلك إلى سلطان مصر باعتبارك مواطناً صالحاً . ولهذا نكلفك بان تسافر بأول سفينة إلى جزيرة كريت ومنها إلى ميناء دمياط . وعليك ان تخفى عن جميع صفتك الرسمية .
٢. من دمياط تذهب إلى القاهرة وتعمل بكل ما اوتيت من مهارة وسرية ان تسمع صوتك للسلطان شخصياً . وتمثل امامه عن طريق امير الاسكندرية ، أو الدوادار أو كاتب السر ، أو من يبدو لك انه الأصلح . وفي غياب الأمير لك ان تلجأ إلى المهمندار (المندوب السفرى) الذي يجب ان تكلمه سراً . ولا تنس ان يكون حديثك مع السلطان نفسه سرا .
٣. لما تسنح لك الفرصة للانفراد بالسلطان قدم له خطاب اعتمادك سفيراً لنا بعد التحيات الواجبة باسمنا وباسم دولتنا لفخامته تهنئه بالصحة والسلامة بألفاظ مناسبة ، وتتفاهم معه سرا فيما كان يتحدث به النبيل " بنديتو سانودو " في العام الماضي عن الملاحة في المحيط الهندي ، والتي أصبحت في يد البرتغاليين ، وان تفهم فخامته انه يترتب على ذلك خسائر للجميع له ولنا ولتجاره وتجارنا . وبالنسبة للعلاقات القديمة التي بيننا وبينه . والتي قامت على المصلحة المشتركة ، فاننا وضعنا مشاوراته معك ومع السفير سانودو موضع الاهتمام الكامل لامكان معالجة الأمر في بدايته .
٤. ولكي تكون على علم تام بكل ما يستجد في هذا الموضع نبلغك باننا أثناء بحثنا هذا الموضوع في السناتو مع مستشارينا وصل إلى بلادنا المبعوث السلطاني مطران اورشليم الاخ المحترم " ماوروجوارديان " من جبل صهيون ، ومعه رسالة من سلطان مصر مملوءة بعبارات الود والاحترام والرغبة التي يبديها السلطان نحو دولتنا في كل مناسبة . فعليك ان تتولى نيابة عنا شكر السلطان الافخم بعبارات ود واحترام مبادلتنا شعوره الطيب ، واننا متاكدون جداً من اننا اكثر الجاليات رعاية في بلاده وان تجارنا سيجدون كل عطف وعون ومودة من السلطان ورجاله مما يجعلهم يتلهفون على الذهاب للمتاجرة في

بلاده ولا يفكرون في هجرته إلى لشبونة مثلاً ، لانه من المعروف إلا يبقى أي فرد في مكان ما إلا إذا كان يعامل معاملة طيبة ويحصل على فائدة كاملة .

٥. ويجب ان تعلم فضلاً عن ذلك الأخ المحترم السيد ماوروجورديان مطران اورشليم ومبعوث السلطان إلينا قد تحدث معنا شخصياً ، علاوة على ما جاء بخطابات السلطان في ان نكتب إلى الحبر الأعظم البابا ، وملك اسبانيا ، وملك البرتغال ليعملوا على وقف ملاحة البرتغاليين في الهند وتركها لهم ، كما طالبوا بان يصدر مجلس السناتو قرارات يشيرون فيها إلى ذلك ، فعليك ان تقول للسلطان : " اننا بكل صراحة وأمانة قد وجهنا الاخ المحترم ماوروجورديان لرحلة إلى اسبانيا والبرتغال ، وزودناه بكل المعلومات التي لدينا لكي ينهى الموضوع حسب رغبة السلطان التي هي رغبتنا ، ولم نعط خطابات توصية إلى البابا في هذا الموضوع ، ولا إلى ملك اسبانيا ، ولا إلى ملك البرتغال ، حتى لا تحدث نتيجة عكسية ولكي لا نتهم بأننا متواطئون مع المسلمين ضد المسيحيين ، لان مثل هذه الخطابات ستحدث ضجة شديدة ضدنا في العالم المسيحي ، لان الجميع يعرفون ان مجيء السيد ماوروجورديان بناء على رغبة السلطان وبناء على طلبه ، فلو اننا ارسلناه من طرفنا بخطابات توصية لفقدنا كل سمعة طيبة في العالم المسيحي .

٦. يجب ان تبلغ السلطان ان منع الملاحة في المحيط الهندي لا يمكن ان تأتي من جانبنا للاسباب السابق ذكرها ، لان المسافة من بلدنا للبرتغال طويلة لا تقل عن ٤٠٠٠ ميل ، فضلاً عن المسافة من البرتغال إلى الهند ثم إلى اسبانيا وملكها القوى المحالف للبرتغال يقع في الطريق بيننا وبين البرتغال ، علاوة على انه استولى حديثاً على مملكة نابلي من لويس ١٢ ، وله حدود مع مملكتنا في اماكن عدة من البحر والبر . وقد ذكرنا هذا للسيد ماوروجورديان ، وزودناه بنفقات الرحلة إلى روما واسبانيا والبرتغال ، وسنحاول ان نبلغ السلطان أولاً باول بخط سير واخبار مبعوثة إلى اسبانيا والبرتغال البابوية .

٧. يهمنا ان نذكر لسيادة السلطان انه قد وصل إلى البرتغال ١٤ مركباً من الهند محملة بالتوابل من بين ما تحمله ٥٠،٠٠٠ حمل من الفلفل وقد ارسلت بواسطة ملك البرتغال إلى انجلترا أو الفلاندرز وفرنسا وايطاليا ، ولكل العالم تقريباً . لفائدته وربحه بحيث انه اصبح ملكاً غنياً جداً . ويرجع ذلك إلى انه وجد ان سعر التوابل بالاسكندرية مرتفع جداً، وكذلك في دمشق اكثر من المعتاد ، وانه لما كانت التوابل منخفضة الاسعار في الهند ولشبونة ، لذلك لجأ عملاء نابلي إلى اسواق البرتغال ، وهذا بالطبع أدى إلى ثرائه ، فضلاً عن ان هنالك في ميناء لشبونة اسطولاً مكوناً من ١٢ سفينة مستعدة للرحيل فوراً إلى الهند و ١٦ سفينة اخرى مستعدة للذهاب فعلاً بعد عودة السابقة لاحضار المزيد من التوابل .

٨. وعليك ان تلفت نظر السلطان إلى انه ابتداء من الان ستكون الرحلة سهلة بالنسبة للبرتغاليين ولا نعرف طريقة نستطيع بها منع ملاحتهم إلى المياه الهندية والتي نرى انه ينشأ عنها ضرر لا يمكن احتماله ولا قبل للسلطان به . واننا فضلاً عن مصالح تجارنا التي بدأت تنهار فاننا تحملنا خسائر في جماركنا وضرائباً تبعاً لذلك .

٩. واحقاقاً للواقع كان قد اقترح علينا الاشتراك في الرحلات لفائدتنا ، ودعينا فعلاً من قبل ملك البرتغال لارسال تجارنا إلى اسواق لشبونة لطلب التوابل . وكثير من تجارنا ورعايانا يرغب في ذلك ، لان تجارنا يدفعون في لشبونة ضرائب جمركية ، ومع ذلك فهم احرار . إلا اننا لما كنا نقدر عظمة السلطان ، واننا لم نرغم ابدا على ترك التجارة معه والتي كانت على اتصال معه منذ قرون عدة والتجارة هي مصدر حياتنا وربحنا كما اننا لم ننظر ابدا للدعوة التي وجهها الينا ملك البرتغال والتي لا يزال حتى الان يعرضها علينا . ومصداقاً لذلك ارسلنا سفنناً هذا العام إلى الاسكندرية لاعتقادنا ان السلطان المعظم هو الذي يستطيع وحده ان يضع حداً لتهجمات البرتغاليين في مياه الهند ووقف تجارتهم حتى تعود تجارة التوابل إلى ما كانت عليه من قبل .

١٠. وعليك يا سيد فرنسيسكو ان تضع أمام اعين السلطان النقط الاتية ، يبدو انها على جانب كبير من الاهمية بالنسبة للسلطان ليتخذها ضد البرتغاليين في الهند :

أ. العمل بأي وسيلة على وصول اكبر كمية ممكنة من التوابل إلى بلاد السلطان لكي تقاوم بها إغراق البرتغاليين لاسواق أوربا بالتوابل ، لان هذا سيمنع عن البرتغاليين المكاسب الضخمة وبالتالي يمنع سفنهم من الوصول للهند لجلب التوابل .

ب. يرسل السلطان من طرفه سفراء إلى ملك كوشين بالهند وكانانور والاماكن الأخرى التي يتعامل معها البرتغاليين ، وان يطلب منهم باسم الدين والجوار والتعامل القديم الامتناع عن معاملة ومد يد العون إلى البرتغاليين وان يضعوا العقبات باستمرار أمام البرتغاليين ، ويبينوا لهم الاضرار التي سوف تترتب على استمرارهم في التعامل مع البرتغاليين ويستطيع فخامة السلطان بحكمته ان يبينها لهم ويفسر لهم ان كثرة وصول البرتغاليين لبلادهم ستكون لها اثار سيئة ، وربما استولوا على بلادهم نفسها ويصبحون اسياد هذه الجزر وبلاد كوشين وكانانور . ونحن نؤمن بقدرة السلطان المعظم على عمل ذلك وامكانه الوصول إلى اتفاق مع هؤلاء القوم .

ج. ومن الممكن ان يسارع فخامة السلطان بإرسال سفراء من لدنه إلى قاليقوط وكامباي وامراء هذه البلاد رفضوا قبول التعامل مع البرتغاليين ، وهؤلاء الأمراء بامكانهم التاثير على اخوانهم ومواطنيهم بعدم التعامل مع البرتغاليين ووجوب مرور التوابل كالمعتاد بمصر

وسوريا ، ويذكرونهم بمدى الاضرار التي تحيق بهم من التعامل مع البرتغاليين ، وما يجره هذا كذلك على السلطان من اضرار .

د. يجب ان يرسل السلطان من لدنه قوات عسكرية قوية لمعاونة قوات الهند التي تحتاج لمزيد من الرجال والسفن والسلاح ، وقد فهمنا ان السلطان أرسل فعلاً السفن والسلاح والجنود ، وهذا ما نمدحه عليه ــ لانه إذا لم يجد البرتغاليين من يقبل التعامل معهم واعطاءهم التوابل ، وانهم رجعوا اكثر من مرة فارغين من غير هذه التوابل ، فانهم لن يفكروا في العودة لهذه الرحلة الطويلة بعد أن يفقدوا السمعة والوقت . ولذلك فانه يلزم من الان القيام باجراءات سريعة قوية لملاقاة هذا الخطر .

١١.هذه هي كل الاشياء التي نراها ذات أهمية بالغة وضرورة وتلفتون نظر فخامة السلطان اليها ليتخذ بشأنها اجراءات سريعة واننا متاكدون ــ كما سبق ان ذكرنا لسيادة السلطان ــ ان مصالحه العديدة في الهند والتجارة الهندية ستجعله يقوم باكثر مما اشرنا به عليه .

١٢.ولكن نظراً لان السيد المحترم ماوروجورديان قد ابلغنا ان السلطان الاعظم في حالة رفض البرتغاليين الاستجابة لطلباته فانه سيمنع الزيارة للاماكن المقدسة المسيحية ببلاده ، ويغلق كنيسة القبر المقدس ودير سانت كاترين في سيناء ، وكنائس المسيحيين في مصر وسوريا ... ونحن نوجه نظرك إلى ان تنصح فخامة السلطان إلى ان هذا الإجراء سيكون ضد مصالح السلطان نفسه ، وعلى حساب سمعته ، وان فتح هذه الأماكن فيه فائدة مادية له ولبلاده ، وغلقها ــ علاوة على الاضرار المادية التي قد تصيبه ــ فانها لن تجعل أي مسيحي يعطف عليه أو يوقف حملات البرتغاليين إلى الهند بهذا السبب ، لذلك يجب ان تنصحه بان هذا العمل غير مجد وأن الأماكن المسيحية المقدسة يجب ان تظل مفتوحة ليعلم الغرب مدى سوء تصرف البرتغاليين ، واعتداءهم على حدود ومصالح السلطان ، وعليك استخدام منتهى اللباقة والكياسة والدبلوماسية في هذا المجال ...

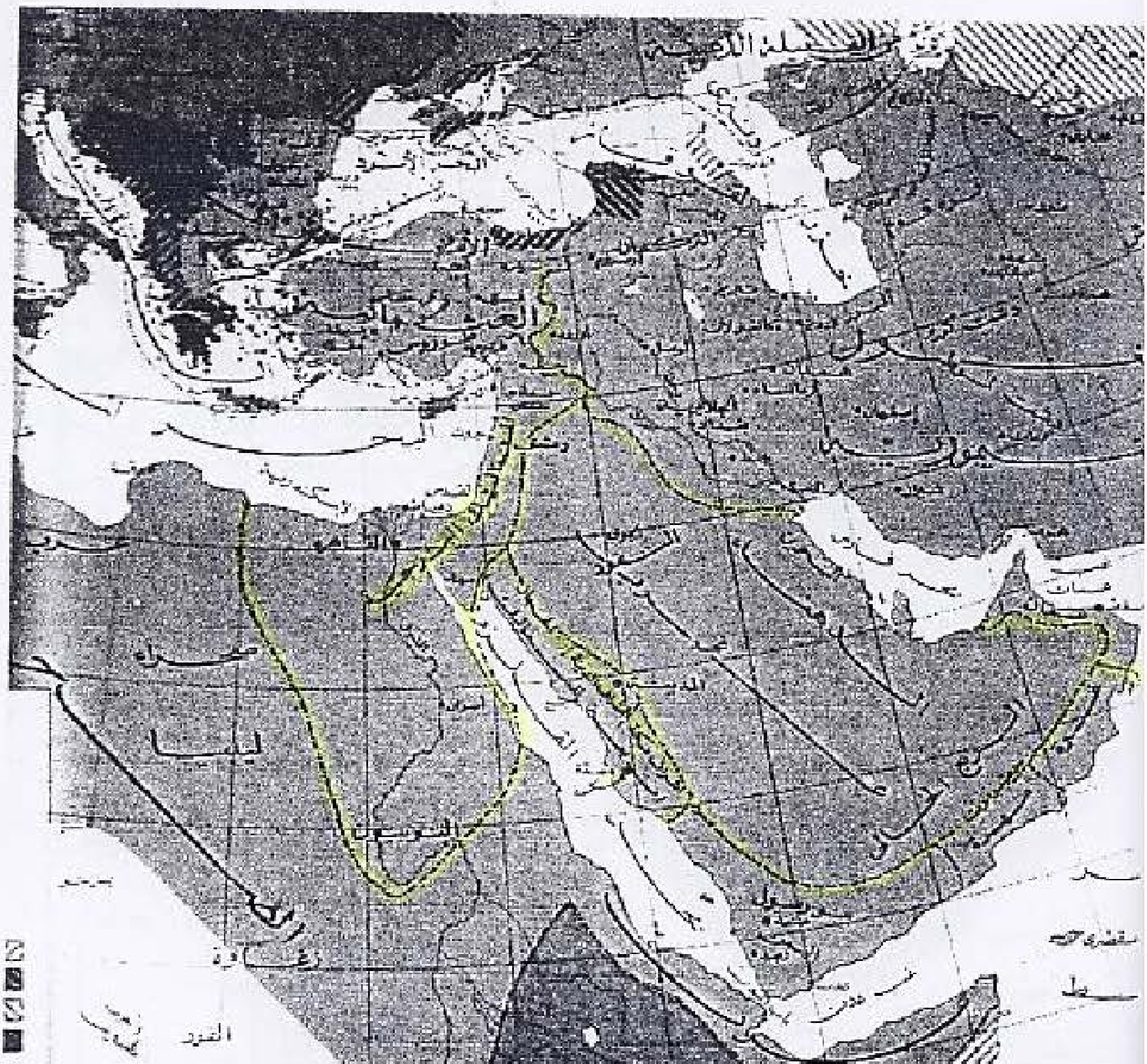
الموافقون : (١٧) الرافضون : (٥) المشكوك فيهم : (٢)

نقلاً عن : فهمي ، طرق التجارة ، ص ٣٨١-٢٨٧ .

ثانياً : الاشكال

الشكل رقم (١)

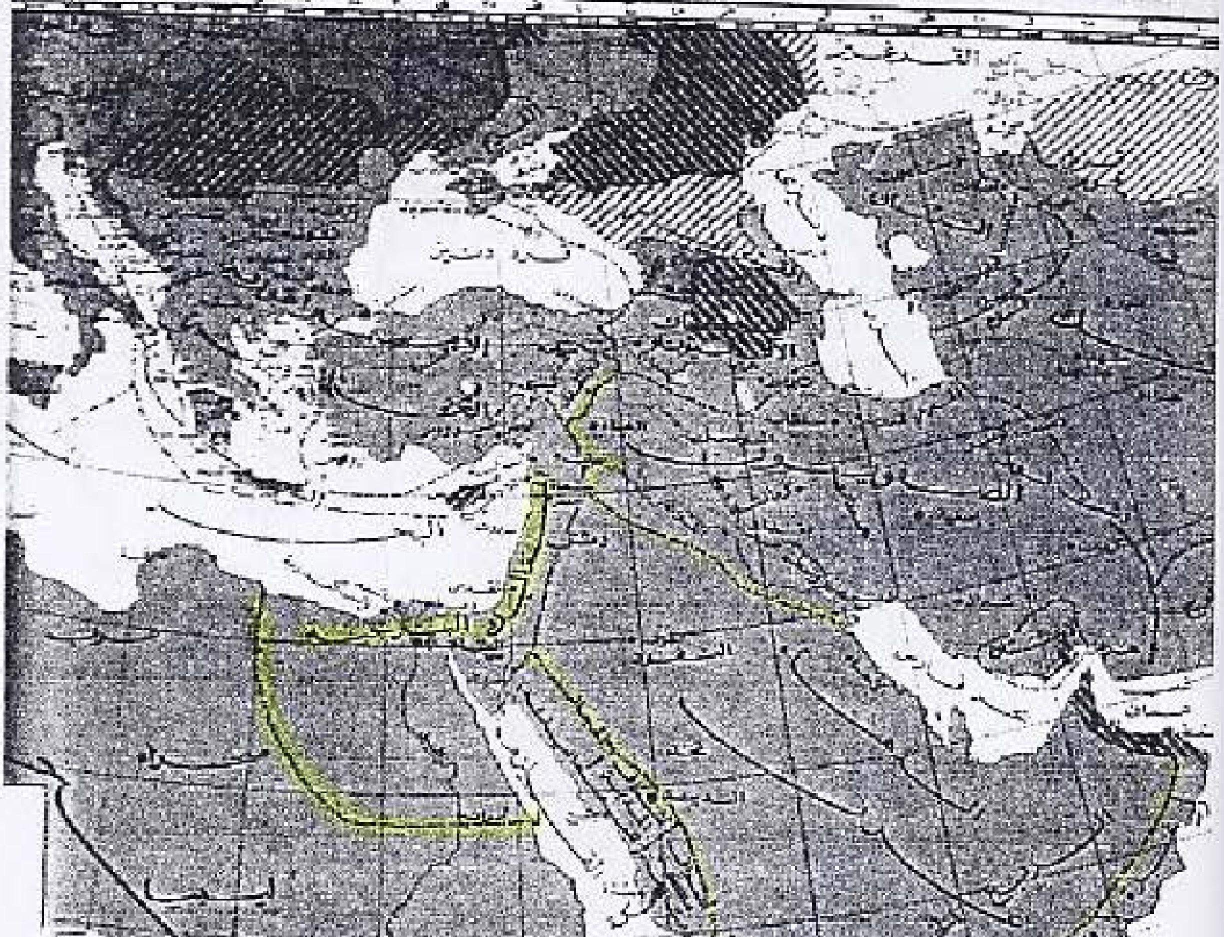
يوضح حدود الدولة الجركسية في القرن التاسع الهجري



نقلاً عن : هازارد ، أطلس التاريخ ، ص ٢٣ .

الشكل رقم (٢)

يوضح حدود الدولة الجركسية في القرن العاشر الهجري



نقلاً عن : هازارد ، أطلس التاريخ ، ص ٢٥ .

الشكل رقم (٣)

يوضح سير الحملات البحرية الثلاث على جزيرة قبرص في عهد السلطان برسباي .



الحملة الاولى سنة (٨٢٧هـ/١٤٢٣م)

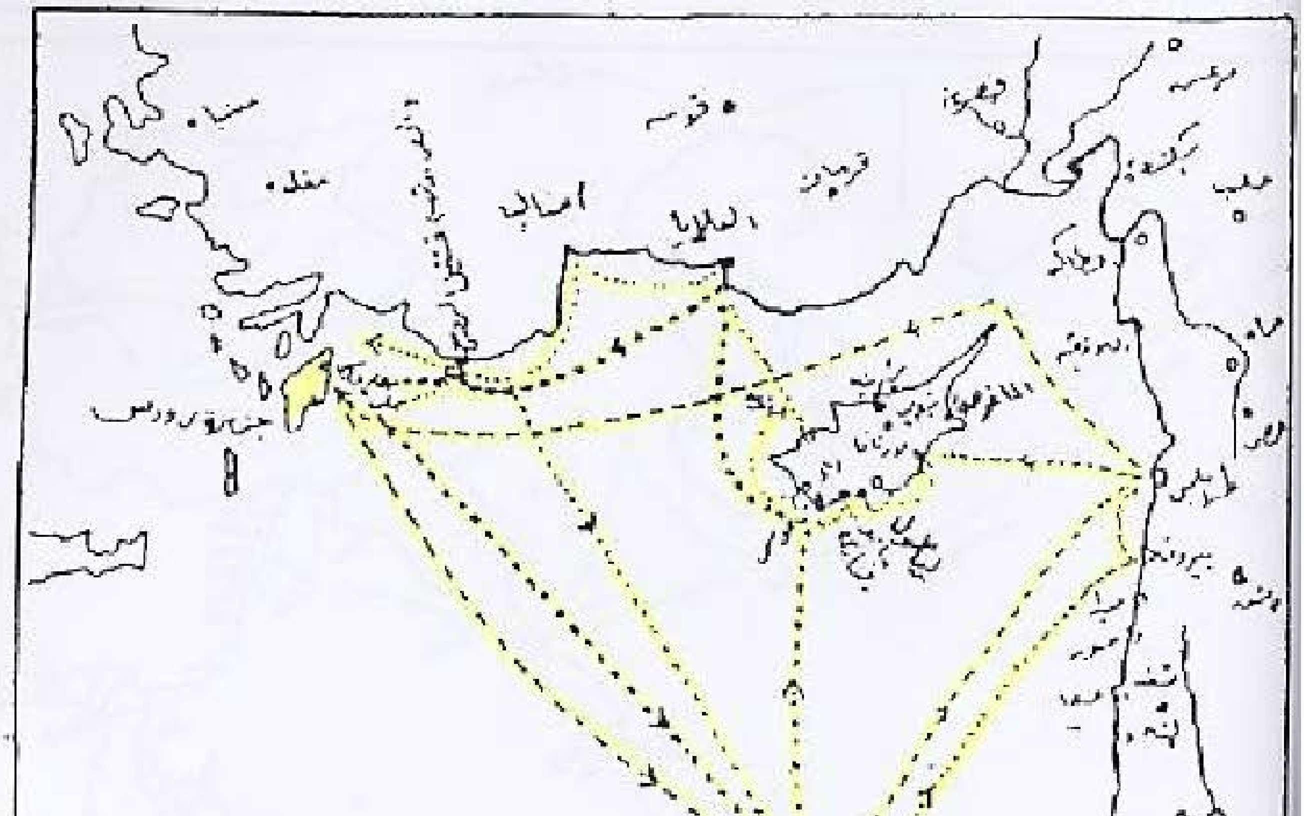
الحملة الثانية سنة (٨٢٨هـ/١٤٢٤م)

الحملة الثالثة سنة (٩٢٩هـ/١٤٢٥م)

من عمل الطالب بالاعتماد على عاشور ، قبرص والحروب ، ص٧٥ .

الشكل رقم (٤)

يوضح سير الحملات البحرية الثلاث على جزيرة رودس في عهد السلطان جقمق .



الحملة الاولى سنة (٨٤٤هـ/١٤٤٠م)

الحملة الثانية سنة (٨٤٧هـ/١٤٤٣م)

الحملة الثالثة سنة (٨٤٨هـ/١٤٤٤م)

نقلاً عن : طرخان ، مصر في عصر ، ص١١١ .

الشكل رقم (٥)

يوضح الطريق الأول للتجارة



نقلاً عن : فهمي ، طرق التجارة ، ص٥٠٦ .

الشكل رقم (٦)

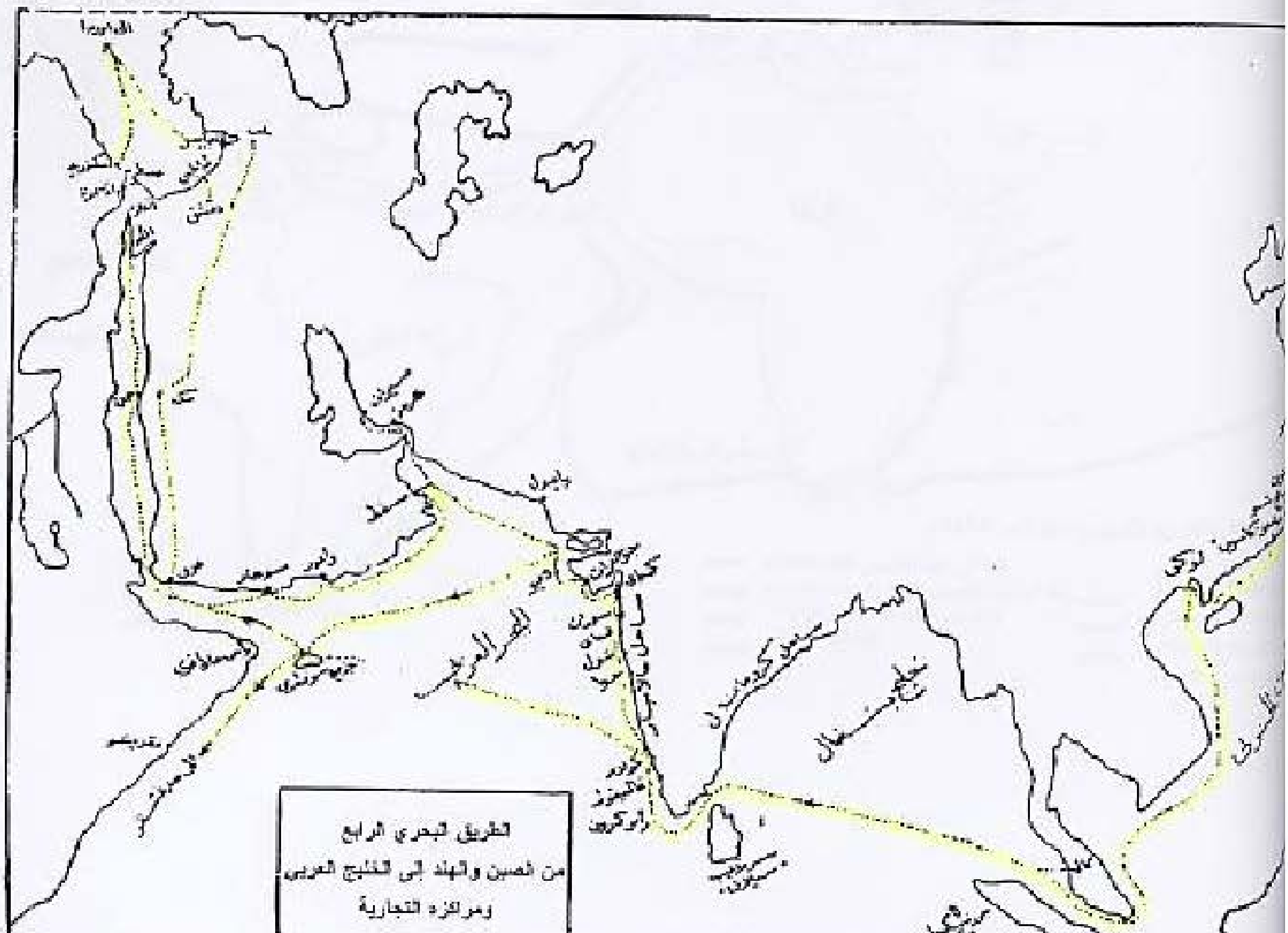
يوضح الطريق الثاني للتجارة



نقلاً عن : فهمي ، طرق التجارة ، ص ٥٠٧ .

الشكل رقم (٧)

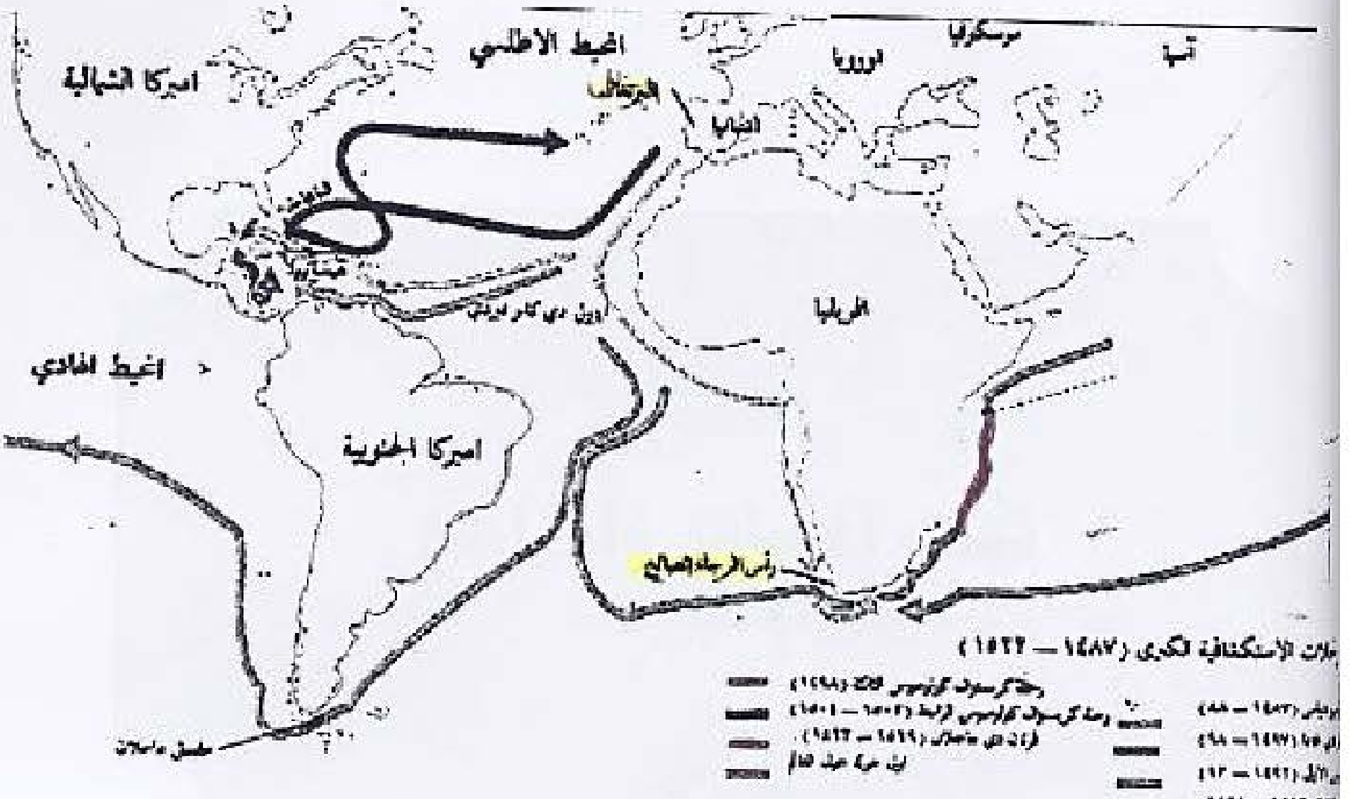
يوضح الطريق الرابع للتجارة



نقلاً عن : فهمي ، طرق التجارة ، ص ٥٠٨ .

الشكل رقم (٨)

يبين إكتشاف الطريق التجاري البحري المعروف برأس الرجاء الصالح



نقلاً عن : ابي غضيب ، أطلس العالم ، ص٧٢ .